الإسلام في الألفية الثالثة

ديانة في صعود

د. مراد هوفمان

مكتبة الشروق

د. مُـراد هوفـمان

الإسلام فى الألفية الثالثة
ديـانـة فى صُعُود

تعريب

عـادل المعـلم يـس إبـراهيـم

مكتبة الشروق

المحتـويات

الموضـــوع	الصفحة

مقـــدمة

شعار : «إننى لا أستطيع إلا أن أقرر - بصفتى طبيبًا - أن الإنسانية غارقة فى أزمة رهيبة».

(فريدريش ديرنمات NZZ بتاريخ ٦/ ٤/ ١٩٩٠)

لقد تمكنت الألفية الجديدة منا . فبعد الاحتفالات والغبطة وكل ما صاحب قدوم الألفية من إثارة، وجدنا أنفسنا نواجه حياتنا اليومية المعتادة فى اليوم الأول من يناير عام ٢٠٠٠ . ألم يحدث أى شىء؟ هل كانت مشكلة الصفرين فى الحاسبات الآلية هى مشكلتنا الوحيدة؟ ألا تعانى جميع الأنظمة المسيطرة على حياتنا ومجتمعاتنا من الأزمات؟ هل المستقبل هو ما كان يومًا ما؟

لم يكن العالم يفتقر إلى مؤشرات دالة على الأزمة التى تعانى منها مجتمعاته كافة ونحن على أعتاب ألفية جديدة، هذه المؤشرات التى ساهمت وسائل الإعلام المختلفة فى تأكيدها وتضخيمها حتى أصبحت بمثابة رعب هستيرى من نهاية العالم وفناء الإنسان، وتخَوُّف من الألفية الجديدة، وتأهب لما ستأتى به هذه الألفية من شرور.

ولكن سبقت هذه المخاوف بسنوات طويلة حالة غريبة انتابت المجتمعات الغربية، هى حالة اللا مبالاة حيال الكوارث المتوقعة، هذه الحالة من اللامبالاة ترجع إلى شعور بالإحباط والانهزامية وليس بالتفاؤل.

لقد استبدل العالم حالة جديدة من الاسترخاء بحالة من الذعر غير المعقولة من نهاية العالم المرتقبة - والتى كانت حتى وقت قريب ينفرد بالتحذير منها أصحاب الثقافة الخضراء، أى أنصار البيئة.

فمن ذا الذى انتابته مخاوف ليلة رأس السنة لعام ١٩٩٩ مع انتظار قدوم أول أيام عام ٢٠٠٠ مثل : استمرار سريان قانون الطوارئ، واحتمال وقوع حرب نووية بين القوى النووية، والتدمير الهائل للغابات وموت الكثير من أشجارها، وثقب الأوزون وتأثيره على التغيرات المناخية، وتكرار مأساة تشيرنوبل، وزيادة درجة حرارة الأرض، والإنسان الزجاجي، وأمراض مثل الإيدز وجنون البقر، واشتراك قوات الدفاع الاتحادية فى معارك حربية؟

لقد واكب خفوت رومانسية أنصار البيئة تضاؤل المخاوف على هذه البيئة وخمول سياسى : لقد أصبح المأزق الاقتصادى والاجتماعى والأخلاقى - هذا إن وجد الأخير - كيف يكون الأمر فى ألمانيا على غير هذا النحو؟ إنها أزمة مريحة تتناسب مع تناول البيرة والخمور.

لقد استبعد هذا المنتج الواعد بإمكانات استخدام هائلة «حالة ترقب لنهاية العام» قبل أن يطرح فى الأسواق.

لم يتم احتفال المسلمين بالألفية الجديدة بتناول الخمور، ولكنه اتسم بهدوء أكثر عما حدث فى الغرب. فلقد صادف قدوم الألفية الثالثة أن يكون هذا فى وسط العام ١٤٢٠ للتقويم الهجرى[1]. كما أن قليلا من المسلمين يهتمون بأسرار الأرقام. ولا يفترض أصلاً أن يكون لقدوم ألفية جديدة تأثير بالغ على المسلمين، حيث إن الساعة يمكن أن تقوم فى أى وقت، أى أن ينتهى العالم فى أى لحظة[2].

كما أن كتابة التاريخ الإسلامى تهتم بتسمية كل قرن باسم شخصية كان لها تأثيرها البالغ فى هذا القرن بوصفه مجدداً. فأطلق اسم الفيلسوف أبى حامد

(١) لقد انطلق المسلمون فى تقويمهم من عام هجرة الرسول من مكة إلى المدينة (١٠-٢٢ سبتمبر ٦٢٢) بناءً على اقتراح الخليفة الثانى عمر.

ولقد صارت بداية أول عام هجرى - وهو سنة قمرية - يوم ٦ من يوليو عام ٦٢٢ بأثر رجعى. (انظر G.S.P Treemann - Grenville: The Islamic and Christian Calenders AD 622 - 2222 (All 1 - 1650) (التقويم الإسلامى والتقويم المسيحى) Garnet: Reading (Uk) 1995. p.4.

(٢) القرآن الكريم : الآية ٦٣ من سورة الأحزاب، الآية ١٨ من سورة الشورى، الآيات ٤٢-٤٦ من سورة النازعات.

الغزالى (توفى عام ٥٠٥ هجريا - ١١١١ ميلادي) على القرن الخامس الهجرى . وحمل القرن الثامن اسم الفقيه ابن تيمية (توفى ٧٢٨هـ - ١٣٢٨م)، وسمى القرن الثانى عشر بقرن شاه ولى الله، المصلح الهندى (توفى ١١٧٦هـ - ١٧٦٣م)، وكذلك اسم محمد بن عبد الوهاب مؤسس الوهابية فى السعودية (توفى ١١٨٧هـ - ١٧٨٧م) .

وعرف القرن الرابع عشر بقرن الشيخ محمد عبده المجدد المصرى (توفى ١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م) .

لقد تقبل المتصوف الهندى أحمد سيرهند (توفى ١٠٣٤هـ - ١٦٢٤م) عضو الطريقة النقشبندية فى حياته، أن يحمل اللقب الشرفى غير الرسمى «مجدد الألف الهجرى الثانى»[٣] .

لا يمكننا أن نستنتج مَن شخصية المجدد المرتقبة؟ . لقد قال الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو على يقين بأن المستقبل والغيب لا يعلمهما سوى الله - : «إننى مباه بكم الأمم يوم القيامة» . «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرة على الحق لا يضرها من خالفها»[٤] . ولكن حذر محمد - صلى الله عليه وسلم - أن كل جيل سيكون أقل تمسكًا بعقيدته من الجيل الذى سبقه[٥] . «لن يأتى زمان إلاَّ والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»[٦] . وسيكون من قرب علامات الساعة حدوث مثل هذه الظواهر : التى جاءت فى أحاديث كثيرة منها : «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا»[٧] . وسينقسم المسلمون على أنفسهم ويتشرذمون فى مجموعات تفوق فُرقة اليهود والمسيحيين، كما جاء فى الحديث :

---

(٣) لقد قام بدور الوسيط بين الفرق الصوفية المتطرفة وبين من يرفضونها على أساس المذهب الحنبلى . . انظر عبد الحق أنصارى، ونظرية الشيخ سيرهند عن وحدة الشهود فى Islamic Studies 37/ No. 2 Islamabad 1993.

(٤) البخارى جزء ٦ رقم ٥٠٤ / مسلم ٤٧١٥ - ٤٧٢٢ .

(٥) البخارى جزء ٨ رقم ٦٨٦ / النووى ٤٠٩ .

(٦) البخارى جزء ٩ رقم ١٨٨ النووى ٩٢ .

(٧) البخارى جزء ١ رقم ٨٠ وجزء ٨ رقم ٨٠٠ .

«افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة»[8].

لم يشهد الدين الإسلامى فترة ازدهار وذروة تحقيق ذاته بعد انقضاء فترة توهجه الأولى وبداياته تحت القيادة الكاريزمية لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا فى لحظات نادرة. فحتى الفترة الذهبية، فترة الخلفاء الراشدين التى امتدت من عام ١١ إلى ٤٠هـ (٦٣٢ - ٦٦١)، نلحظ فيها عند الفحص والدراسة الدقيقة ملامح يوتوبيا تعليمية. وهذا لا ينفى بطبيعة الحال عظمة وتوهج هذه الفترة.

على أى حال لم يشهد الإسلام تحولاً له، وتحقيقًا لجوهره فى الحياة العملية، لا فى عهد الأمويين الذين حكموا من دمشق حتى عام ٧٥٠[9] ولا فى ظل حكم العباسيين من بغداد والذى امتد حتى القرن الثالث عشر رغم كل ما فيه من ازدهار ثقافى وحضارى، ولا حتى فى قمة ازدهار الحضارة الإسلامية بالأندلس قبل حلول عام ١٤٩٢[10].

بالرغم من أن الإسبان لا يزالون إلى يومنا هذا يصيحون «الله» عندما يقولون «Olé» «أليه».

ينطلق المسلمون اليوم من معرفة مفادها أن العلم والمعرفة لا ينبنيان فقط على أعمال السلف، ولكنهما يشهدان إضافة وزيادة، حتى إن بعض المسلمين يمكنهم - عن حق - أن يدّعوا أن معرفتهم بتراث الإسلام وبالقرآن، تفوق معرفة أسلافهم[11]. ولذلك فهم يتعلمون بكل جدية، خصوصا أن القرآن يأمرهم

---

(٨) [صحيح] أبو داود [٤٥٩٦].

(٩) يتشكك بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين فيما نسب للأمويين من اتهامات بالانحراف عن الإسلام ومخالفة الكثير من قواعده فى الحكم، فهل حدث هذا فعلاً، أم أن هذه الاتهامات ألصقت بهم بفضل الدعاية المضادة لهم والتى أشعلها وقادها العباسيون؟ (تلك المعارضة اقتصرت على ذكر موضوعات دينية لأسباب سياسية بطبيعة الحال).

(١٠) يوفر Jayyusi نظرة جيدة على الحضارة الأندلسية.

(١١) خذ على سبيل المثال الآية الثانية من سورة العلق. فلم يكن أوائل المسلمين يعلمون معنى العلق كما يعرفه المعاصرون اليوم.

بالمعروف وينهاهم عن المنكر لأنهم خير أمة أخرجت للناس(١٢)، وكذلك عندما يخاطبهم القرآن قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١٣).

ولكننا لا نستطيع أن نؤكد بعد انقضاء احتفالية رأس السنة، أن مخاوف الجانبين - المسلم والغربي - تلاشت تمامًا.

فلا نستطيع أبدًا أن نتفق مع ما تنبأ به فرانسيس فوكوياما بأن نهاية التاريخ تلوح من خلال سيادة الحضارة الغربية في صورة سيطرة نظام حكمها الليبرالي الديمقراطي، وما يحمله من قيم على العالم كافة(١٤).

لا نستطيع أن ننكر أن العولمة في المجالات المختلفة الاقتصادية - التكنولوجية - الأيديولوجية - الثقافية، قد أخذت تنمو وتؤتي ثمارها فيما تستهدفه من تحويل العالم إلى «قرية صغيرة».

لكن في نفس الوقت بدأت الشكوك تنتاب الغرب فيما شعر به من زهو وانتصار بعد انهيار الشيوعية، فهل كان الغرب محقًا في إحساسه بهذا الانتصار؟

أو لم يتضح بالدليل القاطع والبرهان البين أن القرن العشرين المنصرم، كان أكثر القرون دموية في تاريخ البشرية، بكل ما شهده من حروب عالمية مدمرة وانتشار الأسلحة القادرة على إبادة الملايين من البشر، ومعسكرات الإبادة وعمليات التطهير العرقي وغيرها من مآسي البشرية؟ وكل هذا يشهده العالم بعد مرور ٢٥٠ عامًا على بداية عصر التنوير ومشروع الحداثة! وتتركز هذه الأعمال الوحشية المهينة للبشرية في أوروبا «المتحضرة» الشديدة الزهو والفخر بعقلانيتها وإنسانيتها(١٥).

فهل تعاني المجتمعات الغربية من مرض ما؟ أم يتهددها خطر السقوط الأخلاقي كما حدث للبولشفية من قبل؟

---

(١٢) كما جاء في الآية ١١٠ من سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

(١٣) الآية ١١ من سورة الرعد.

(١٤) فوكوياما (١٩٩٠).

(١٥) لقد شهد القرن العشرون سقوط أكثر من ثلاثين مليون قتيل من الشباب.

لقد ثبت أن نظريات صمويل هنتنجتون بشأن صدام الحضارات الذى لا مفر منه خاصة بين الغرب والإسلام بكافة «أبعاده الدموية»، ما هى إلا صيحة إنذار ذات طبيعة دفاعية فى المقام الأول(١٦).

ومنذ ذلك الوقت، فإنك تستمع دائمًا إلى نغمة تشاؤم لا سبيل إلى تجاهلها عندما يتم استدعاء ذكرى حضارات العالم التى امتنعت عما يسمى بالـ Social Re - engineering، أى بإعادة الهيكلة الاجتماعية والاقتصادية(١٧).

لقد تكون فى الغرب شعور بضرورة وجود قطبين فى العالم، أى هنا وادى السيليكون. . . . وهنا مكة(١٨) ـ كما لو أن العالم لم يتطور منذ أعلن إرنست رينان Ernest Renan يوم ٢٣ من فبراير عام ١٨٦٢ فى الكوليج دى فرانس Collège de France « أن الإسلام هو النفى التام (النقيض) لأوروبا».

لن ينكر معاصر دارس للثقافات والسياسات، أن تطور عالمه ـ أيًا كان موقعه الجغرافى ـ فى القرن الحادى والعشرين سيتأثر ـ إن لم نقل سيكون محكومًا ـ بما سيشهده الإسلام وبما سيؤثر فيه. هل سيقوم العالم الإسلامى بتحديث نفسه؟ أم سيمتثل هذا العالم لأسلوب الحياة الأمريكى؟ أم أن هذا العالم سيستمر فى رفضه للأسلوب الأمريكى فى الوقت نفسه؟ هل سيستمر انتشار الإسلام فى الغرب كما حدث فى الثلث الأخير من القرن العشرين؟ هل سيتم هذا بالوسائل السلمية؟

---

(١٦) هنتنجتون (١٩٩٣).

(١٧) تعد تركيا أوضح الأمثلة. فلقد باءت محاولات أتاتورك ومن سار على نهجه فى تحويل تركيا ـ قسرًا ـ إلى قطعة من أوروبا بالفشل، نظرًا للجذور الثقافية والتاريخية الإسلامية الراسخة ـ فبالرغم من جميع محاولات التغريب، فإن الإسلام يؤدى اليوم دورًا أكبر مما كان يقوم به فى الثلاثينيات فى حياة مصطفى كمال.

(١٨) لا تزال النظرة المتشائمة لضرورة اختلاف الحضارات والثقافات بعضها عن بعض شائعة بين كثير من الدارسين والمهتمين بأفرع العلم المختلفة، ويؤدى هذا إلى مقولات مؤسفة وخاطئة، مثل الحكم العام بأن البلاد الإسلامية غير قادرة على ممارسة الديمقراطية لطبيعتها، كما لا يمكن لهذه المجتمعات أن تتحول إلى مجتمعات مدنية تحمى حقوق الإنسان بسبب بنيتها الثقافية. ويعد بسام طيبى (١٩٩٤) أحد ممثلى هذه المقولة المهينة للمسلمين.

ما النتائج المترتبة بالنسبة للغرب والمؤثرة فيه فى حالة فشل العالم الإسلامى فى القيام بعملية تجديد أخلاقى وإحياء لبنائه ؟

وما النتائج المرتقبة فى حالة نجاح العالم الإسلامى فى أن ينهض من جديد؟ وبالتالى يكتسب قوة جاذبة فى الغرب؟ هل يمكن أن يصبح هذا الدين ـ وهو نظرى وعقائدى ـ بالفعل دينا يسود العالم؟

هل يصبح الإسلام فى هذه الحالة العلاج والشفاء الذى سينقذ الغرب من نفسه؟ وهل سيصبح الغرب قادراً على الاعتراف بالإسلام كدواء يصلح لشفائه، دواء يساعد الغرب على تخطى أزمته وإنقاذ حضارته؟

هذه هى خلفية هذا الكتاب، وهذه هى الأسئلة التى يطرحها هذا الكتاب محاولاً الإجابة عنها.

* * *

يتضمن هذا الكتاب قائمة من المراجع، تبدو كبيرة جدا ومستفيضة، وستجد بها أغلب الكتاب الذين شاركوا فى ا لمناقشات الدائرة حول الإسلام خاصة فى العقود الثلاثة المنصرمة.

لم أستق هذه القائمة من الإنترنت، ولكننى قرأتها كلمة كلمة. وساعدنى فى تحقيق هذا، عملى كناقد للكتب فى مجلة The Muslim World Book Review الربع سنوية.

إننى أدين بالشكر لكتابين هما: «التناقضات الثقافية للرأسمالية» ـ "The Cultural Contradictions of Capitalism» عام ١٩٧٦ لكاتبه Daniel Bell.

لقد شخص Daniel فى هذا الكتاب مساوئ الحضارة الغربية وآلياتها المدمرة.

من الجدير بالذكر أن Daniel Bell كان أستاذاً للعلوم الاجتماعية بجامعة هارفارد.

أما الكتاب الثانى، فهو «صلاة الجنازة على روح السياسات الحديثة» ـ «Requiem for Modern Politics».

وهذا الكتاب يعد دراسة تحليلية دقيقة فى غاية الذكاء لما تتضمنه المجتمعات الغربية من إمكانات رفض قاتلة، بسبب أيديولوجية التقدم والتطور التى تتبناها تلك المجتمعات.

والآراء التى يتضمنها هذا الكتاب ليست نتاج قراءات بالمفهوم الضيق، ولكنها قامت على خبرات معيشية أكثر منها على قراءات فقط.

وساعد على ذلك أننى، منذ اعتزالى من عملى كدبلوماسى فى صيف عام ١٩٩٤، أتجول كمحاضر متنقلاً - دون فترات راحة تذكر - فى الغرب والشرق، من هلسنكى إلى كوالالمبور، من الرياض إلى لوس أنجيلوس، ومن الخرطوم إلى ليبزج فى ألمانيا، حتى أساعد فى شرح كل جانب للجانب الآخر، ولكى أقيم جسورا من التفاهم بين الغرب والشرق، ولأساهم فى إزالة مشاعر العداء التى يكنها كل طرف للطرف الآخر[١٩].

لقد ظهرت بعض هذه المحاضرات ونشرت فى مجلات متخصصة عن الإسلام مثل الإسلام (ميونخ)، دراسات إسلامية - Islamic Studies (إسلام آباد) -The American Journal of Islamic Social Sciences (Herndon, Virginia) الجريدة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية.

آفاق Horizons - (إنديانا بوليس). اقرأ Iqra - (سان چوزيه كاليفورنيا). وكذلك Encounters. (Markfield, Leceister).

لقد استخدمت مادة علمية من هذه المحاضرات، ولكننى لم أنشرها من قبل بشكلها المكتمل.

إن حجم البيليوجرافيا ليس هائلاً ولا يتضمن عناوين أجنبية كثيرة، لكى أثير الإعجاب بى أو أعطى انطباعًا إيجابيًا عنى. ولكن لنعط معلومات يمكن للغير الاستفادة منها، ولكى تعبر عن:

---

(١٩) لقد قمت بإلقاء ١٣٩ محاضرة فى الفترة ما بين منتصف عام ١٩٩٤ ومنتصف عام ١٩٩٩ تدور كلها حول موضوعات إسلامية فى تسعة بلدان غربية وتسعة بلدان إسلامية، كما حضرت ٢٧ ندوة ومؤتمرا كان الإسلام فيها الموضوع الرئيسى.

١ ـ كثافة المناقشات الإسلامية بين ا لمسلمين حول الموضوعات الكبرى فى زماننا، مثل الديمقراطية، وحقوق الإنسان، ودور المرأة. وكيف أن هذه المناقشات تدور بلا أدنى وجود لمحرَّمات ـ (تابو) ـ مسبقة.

٢ ـ زيادة سطوة الموضوع حتى أصبح يفرض نفسه على الدراسات الاجتماعية.

٣ ـ الدور الجديد الذى تؤديه اللغة الإنجليزية حتى فى الحوار الإسلامى، فلقد أصبح للإسلام الآن لغتان رئيسيتان: فاللغة الإنجليزية ينشر بها الآن عن الإسلام أكثر مما ينشر بالعربية، ولذلك أعتقد أن إلقاء نظرة على الببليوجرافيا يستحق هذا العناء.

إننى أقتصد فى الإشارة إلى مقولات محددة، وأفضل ذكر أعمال بكاملها، حتى يكون الكتاب مستساغًا فى أثناء القراءة، ولا يتخذ شكلاً علميًا بحتًا.

كما أننى لم أرمز إلى قول «عليهم السلام» الذى نعقب به على ذكر الرسل: موسى وعيسى ومحمد، كما يفعل المسلمون بما هو متعارف عليه فى الكتب الإسلامية بـ (s) أو (pbuh)[٢٠] (Peace be upon Him)، فهذا أمر بديهى يفعله كل مسلم من تلقاء نفسه.

مراد فيلفريد هوفمان

إستنبول

الأول من يناير عام ٢٠٠٠

---

(٢٠) (S) تعنى صلى الله عليه و سلم و(pbuh) يعنى عليه السلام.

مفتون ـ الغرب المحير ـ (الألمان)

الشعار الأول : حيث تغيب الآلهة تسود الأشباح وتسيطر .

(مقولة لنوڤاليس أحد أدباء الرومانسية)

الشعار الثانى : إن الاعتقاد بضرورة تبنى الشعوب غير الغربية لقيم ولمؤسسات ولحضارة غربية ، لهو أمر غير أخلاقى فى نتائجه . (بالنظر إلى نتائجه وتوابعه)

(صامويل هنتنجتون : «الغرب الفريد» ص ٤١)

ـ ١ ـ

إذا أراد المرء أن يتنبأ بالتطورات المستقبلية للغرب وللشرق (الإسلامى) ـ أو أراد على أقل تقدير وصف المقومات التى يتطلبها التطور المرجو ـ فعليه فى بادئ الأمر أن يقوم بعملية حصر للعوامل المتعلقة بهذا الموضوع . عليه أن يبدأ بالسؤال التالى : ماذا يحدث على الجانبين الآن؟ .

أعتقد أن أنسب الناس وأقدرهم على الإجابة عن هذا السؤال هم من يتمتعون بتفكير نقدى سليم ، وأتيحت لهم الفرصة بأن يعيشوا فى الجانبين دون أن يتنكروا لجذورهم الأصلية . أعتقد أن حكم هؤلاء على الوضع الراهن ، ورأيهم لجديران بالإجابة عن سؤالنا عن الوضع الراهن فى الجانبين .

وإننى إذ أقول ذلك ، يخطر على ذهنى هؤلاء الطلبة الزائرون الذين يعودون إلى بلادهم بعد استكمال دراساتهم فى الغرب (هؤلاء يشاهدون بلادهم بنظرة جديدة) وهم بطبيعة الحال غير اللاجئين إلى الغرب سواء لأسباب سياسية أو اقتصادية ؛ إذ أن هؤلاء ـ نظراً لوضعهم ـ لا يملكون إلا إبداء الإعجاب الشديد بالبلد المضيف أو

الاعتماد الكلى عليه، وبالتالى أراهم غير قادرين على ممارسة النقد النزيه أو التفكير بشكل نقدى سليم.

ولتحقيق ذلك، سأقوم بخلق شخصيتين من بنات أفكارى لطالبين مسلمين نمطيين يعيشان فى الغرب حاليًا، وسأقوم بتوجيه الأسئلة إليهما عن هذا الغرب، حتى أصفه من خلال عيونهما. أما فى الفصل التالى، فسأقوم بهذه التجربة مع طالبين أوروبيين - هما بطبيعة الحال شخصيتان ابتكرتهما أنا فى خيالى - اعتنقا الإسلام فأسألهما عن انطباعاتهما عن العالم الإسلامى. وسأضيف إلى الشخصيتين المتخَيَّلتَين بعدًا إضافيًا من خيالى، فإحدى الشخصيتين اختارت هذا العالم وطنًا لها، أما الأخرى فلا ترى داعيًا لهجرة وطنها الأصلى.

ومن خلال هذه التجربة سنشاهد هذا العالم - العالم الإسلامى - من خلال عيون غربية عنه.

أما النتيجة فأعتقد أنها ستكون محيرة.

-٢-

ينتمى الطالب الأول الذى نستمع إليه، إلى ما يمكن أن نسميه بالإسلام الميلادى، فهو مسلم بالميلاد والجذور والبيئة، أكثر منه مسلمًا بالممارسة، أى ممارسة الإسلام. هذا الطالب طالما حلم بالغرب قبل أن تطأه قدماه. منذ طفولته كان الغرب بتقدمه مثالاً له (كان منذ طفولته يضع تقدميته كمثال يجب الوصول إليه حتى فى فسادها الماركسى).

فلا غرابة إذًا فى أن يحاول تشرُّب هذه الحضارة الغربية التى طالما عشقها، حتى إنك لا تميزه عن محيطه الغربى الذى يعيش فيه.

إننى لأتحدث عن تجربة وخبرة، حيث إننى انتقلت عام ١٩٥٠ وعمرى آنذاك ١٩ عامًا من ألمانيا المقسمة، المهزومة، المحتلة، والمنكسرة إلى: Union College فى نيويورك، فى قلب جنة ما بعد الحرب العالمية الثانية بأمريكا فى قمة ازدهارها، حيث تسيل أنهار من الكوكاكولا و(ميلك شاكس - Milkshakes).

لقد كان تأثير أمريكا منذ زمن - والآن الغرب بأكمله - على المهاجرين من الشباب أشبه بتأثير المخدرات التى تصور لهم مستوى معيشة أفضل . فا لكل يتخيل إمكانية تحقيق أى شىء وكل شىء هنا . هنا فى هذا العالم حيث يجد الأصحاء والمثابرون الفرص العظيمة بمنتهى السهولة ، حتى يخيل لهم أنها ملقاة فى الشارع ليلتقطوها .

أما أسباب هذا التصور فواضحة . فالغرب متقدم تكنولوچيا بدرجة عالية جدا . الغرب يعيش بعد اختراعات القرن العشرين ثورته التكنولوچية الثالثة ، حيث تنهال الاختراعات التى تقلب صناعة المعلومات رأسًا على عقب .

فالعالم لم يعد هو العالم نفسه منذ اختراع الإنترنت .

أعتقد أن وصف الطالب المسلم - المسلم ميلاديا - بحكم المولد والبيئة ، للغرب الذى يكن له تقديرا كبيرا سيكون كالتالى :

كل ما يتعلق بالتكنولوچيا - بما فى ذلك الطب والبيروقراطية - يسير على أكمل وجه ، حتى إن الإنسان أصبح هو عامل الإزعاج الوحيد والأخير . هذه الكفاءة نجدها تسود كذلك مجالات مثل الاقتصاد والإدارة والتربية . يلتزم غالبية المواطنين بالقوانين ويطبق الدستور بشكل روتينى فى الدولة . فدولة الدستور حقيقة وواقع مطمئن . والحديث عن الرشا قليل جدا ، والقوات المسلحة تدين بالولاء التام للحكومة المدنية المنتخَبة ، ولا يتعرض أتباع الأديان والمعتقدات المختلفة للسجن أو التعذيب . والدولة تتحمل مسئولية مواطنيها من المهد إلى اللحد . كما تتحمل الدولة مسئوليتها فى المحافظة على البيئة . ونادراً ما ينقطع التيار الكهربائى أو المياه أو التدفئة . (عند هذه النقطة من وصف الغرب ، يرغب المرء - بوصفه مواطنا يعيش فيه - فى التوقف ، حيث يشعر بملل شديد من ذكر كل الأمور التافهة هذه . أما بالنسبة لمواطن من العالم الثالث ، فما ذكر ليس من التفاهات بشىء ، بل كلها إنجازات يحسد عليها الغرب) . فالفرد يقف فى موقع المركز ، سواء فى الدولة أو المجتمع أو الاقتصاد بسوقه المشبع حتى التخمة . هذا الفرد يتمتع بأقصى حماية من قبل الشرطة والقضاء ضد أى ظلم يقع عليه أو تعسف يمارَس ضده . كما يقوم الأفراد باختيار حكوماتهم بحرية تامة . العملة ثابتة وكل ما يقوم بشرائه من منتجات وأدوية سليمة وغير مغشوشة ، فهناك رقابة صارمة على الجودة . وهنا فى الغرب لا يجد العاطل

عن العمل نفسه مضطراً إلى مد يده ليتسول . حتى الاضطرابات العمالية لا تتدخل الشرطة لإنهائها!

الفكرة والقيمة السائدة هي الحرية والتحرر . التحرر من الظلم والقهر والخوف والجوع والندرة والرقابة واللوائح ، والحياء . هنا تسود حرية إبداء الرأى وحرية التجمع وحرية الاعتقاد وحرية اختيار مكان الإقامة وحرية أداء الخدمة العسكرية . ومن خلال ملاحظاتنا لسوق العمل - وكذلك ملابسها - يتبين لنا أن العوائق كافة قد زالت من طريق المرأة لتحقيق ذاتها . فالتحرر الجنسى أصبح حقيقة ملموسة . لقد تحررت المرأة تمامًا ، والقانون والمبدأ السائدان بين الجنسين هو : ما يهواه المرء فهو مسموح به . ويتضمن هذا بطبيعة الحال الاعتراف بحياة الشواذ حياة مقبولة ومتساوية مع غيرها . لم يصبح الشواذ فى حاجة إلى التستر أو الاختفاء ، بل بالعكس يمكنهم اليوم إنشاء تنظيم خاص بهم .

مجمل القول : ينظر طالبنا المسلم المندمج فى الغرب إلى هذا العالم نظرة شديدة الإيجابية ، حيث يراه أقصى ما بلغته الحضارة الإنسانية من مراحل وأزهاها ، وبالتالى يحق للغرب وحضارته أن يسودا العالم .

- ٣ -

نجد فى مقابل هذا الطالب فى الغرب نوعية أخرى من الطلبة الأجانب ، وهم الذين يمارسون شعائر الإسلام ويرفضون الغرب المذكور سابقًا - رغم مميزاته - جملة وتفصيلاً ، بل إنهم يلعنونه بشكل مطلق ، حتى إن المرء كثيراً ما يتساءل لمَ لا يعودون فوراً إلى أوطانهم ليتركوا «الشيطان الأكبر» المكروه منهم لحاله؟[١] .

(١) النمط الأكثر انتشاراً الممثل لهذا الموقف ، هم أعضاء حزب التحرير الإسلامى ، تلك المنظمة المعارضة التى تأسست عام ١٩٥٣ على يد الشيخ تقى الدين النبهانى ، والتى لها تمثيل قوى فى كل من الأردن والولايات المتحدة . وتتميز بنبذها للعنف ، فهذه الجماعة تتوقع أن تجد مشكلات العالم كلها حلاً عن طريق عودة الخلافة التى ألغاها مصطفى كمال أتاتورك وتشكيل نظام إسلامى قوى . إن هذه الحركة تقوم بنشر أعمالها عن طريق «منشورات الخلافة» فى بريطانيا وفى الولايات المتحدة عن طريق TINA (تنظيم الإسلام لشمالى أمريكا).

ونحن نريد الآن أن نتتبع مسار تفكير أحد هؤلاء الطلبة، وهو بطبيعة الحال شخصية متخيَّلة وليست حقيقية. إنه يسوق مسوِّغات منطقية وحججا قوية ومسوِّغة لحكمه السلبى على الغرب، شأنه شأن زميله المغرم بالغرب.

يبدأ هذا الطالب أول ما يبدأ بتوجيه نقده إلى النزعة العقلانية الغربية، والتى يرجع إليها الفضل فى ظهور ما يسمى بـ «مشروع الحداثة»؛ منذ القرن الثامن عشر.

فالتاريخ الحقيقى والفعلى للغرب منذ عصر التنوير، لم يكن تحقيقًا للعقل بقدر ما كان سلسلة متتالية من الفظائع والأعمال غير الإنسانية، مثل: عمالة الأطفال، تحويل قطاعات ضخمة من المزارعين إلى عمال فى قطاع الصناعة وما ترتب على ذلك من أضرار للأراضى الزراعية، تجارة العبيد والتفرقة العنصرية، اشتعال حربين عالميتين مدمرتين، استخدام أسلحة كيميائية ونووية، إرهاب تمارسه الدولة تحت شعارات أيديولوچية كالبولشفية، وكذلك نزعات كالشوفونية الفاشية، وليس آخر هذه الفظائع عمليات التطهير العرقى فى وسط أوروبا كما هو الحال فى كرواتيا والبوسنة وصربيا.

لا نستطيع أن ننفى عن آباء التنوير المسئولية غير المباشرة عن هذا الفشل الفريد لفكرة عظيمة، هى سيطرة العقل على أفراد مستقلين وعلى تصرفاتهم. فمفكرون من أمثال ديڤيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦)، ڤولتير (١٦١٤ ـ ١٧٧٨)، فريدريك الكبير (١٧١٢ ـ ١٧٨٦)، ليسينج (١٧٢٩ ـ ١٧٨١)، وجوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢)، ومن قبلهم مونتانى (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢) وديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) ولوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) وكذلك ليبنتس (١٦٤٦ ـ ١٧١٦). هؤلاء جميعًا لم يكونوا ملحدين ناكرين لوجود إله، ولكنهم كانوا مؤمنين بإله كعلة أولى، ناكرين للوحى، مؤمنين بإله واحد بعيد وليس بصورة الثالوث الإلهى الذى تتبناه الكنيسة المسيحية. اعتمد إيمانهم على ملاحظة الطبيعة وتأملها والتفكير فيها، وليس على التسليم بالوحى. لم يرغب هؤلاء فى إلغاء فكرة عقيدة أو ديانة، ولكن اتجهت جهودهم إلى القضاء على سيطرة الكنيسة على معتقدات البشر وعلى نفوذ الكهنوت.

ولقد استغل بعض التنويريين الإسلام (كعملية التفاف) للإسراع بعملية التحرر

من نير الكنيسة . لقد حقق ليسينج هذا بشكل مناسب من خلال مسرحيته «ناثان الحكيم»[٢] التى كتبها عام ١٧٧٩ التى أبرز فيها مثالية وإيجابية المسلم .

أما ڤولتير ، فقام بمحاولة سابقة - غير لائقة - حيث قام فى عام ١٧٤٢ بكتابة مسرحية «ماهومت النبى الكاذب» . لقد أراد من خلال عمله نقد الكنيسة من خلال هجومه على الإسلام[٣] . ولقد كافأه فريدريك الأكبر على عمله هذا بمنحه وساماً .

أما بالنسبة لأعمال كانط النقدية ، فلم تكن ضد الدين بقدر ما كانت موجهة ضد الكنيسة ، فلم يدلل كانط - ولم يرغب أصلاً فى التدليل - على عدم وجود الله فى عمله «نقد العقل» (١٧٨١) ، ولكن أراد نفى إمكانية الاعتماد على تصورات ميتافيزيقية تتعدى نقد المعرفة ، وبالتالى تتحول حتمًا إلى لعب بالألفاظ كما كان سيقول ڤيتجنشتين . لقد لجأ كانط فى عمله التالى عام ١٧٨٨ «نقد العقل العملى» إلى أن المسلَّمة (الفرضية المسلَّمة) «الله» ضرورة لمسيرة المجتمع . ولكن بالرغم من ذلك أدى التحرر من سيطرة الكنيسة على البشر كنتيجة لعملية التنوير ، إلى تهميش دور الدين . لقد احتل الإنسان الفرد مكانة الله بحُسبان أنه هو الإنسان الفرد مقياس ومعيار كل شىء . لقد تمادى الإنسان فى تقدير ذاته وقدراته حتى أصبح الوثن الجديد لهذا العصر .

لم يكن فى مقدور غالبية الناس التعايش مع ما يمثله كانط من موقف اللاأدرية إزاء المعرفة واللامعرفة ، بمعنى أن يتأرجح ما يتعلق بالموقف الفلسفى والدينى ، أى أن يحيا وكأن الله موجود دون أن يملك دليلاً علميا على هذا الوجود ؛ ولذا كان

---

(٢) Kuschel (١٩٩٨) .

(٣) لقد قام القيصر فريدريك هذا بالتفاوض عام ١٧٧٥ مع ألف «عائلة محمدية» ليستوطنوا بروسيا الغربية ، ويقيم هو لهم فيها بيوتا وينشئ لهم بها المساجد (جاء هذا فى خطابه إلى ڤولتير فى ١٣ من أغسطس) . فريدريك هذا كان يعى تمامًا أن صديقه ڤولتير لا يعرف عن محمد أكثر من معرفته عن إمبراطور الصين (خطاب ١٠/ ١/ ١٧٧٦) . لقد اعترف ڤولتير فى خطاب منه إلى فريدريك فى ديسمبر عام ١٧٤٠ أن «محمدا لم يأت بفعل الخيانة الذى يستخدمه ڤولتير موضوعا لهذه المسرحية» (ماهومت) ، ويعتذر عن جهله بالتاريخ وعبثه به بمقولة يشيب لها الولدان : «من يجرؤ على إشعال حرب فى بلده وذلك باسم الله ، أوليس قادراً على فعل أى شىء؟» فى الخطابات المتبادلة بين ڤولتير وفريدريك . Voltaire - Friedrich der Grocsse -Briefwechsel Haffmans Verlag Zurich 1992.

الفرد العادى فى القرن الثامن عشر يميل إلى الأخذ بفرضية باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢): إذا ما أخذ المرء بمبدإ الإيمان بالله، فإنه إذا تبين أن ذلك حق، فاز حينئذ بكل شيء، وإذا تبين خلافه فإنه لن يخسر شيئًا. ولكن كان من البديهى، بل منَ الضرورى، أن يؤدى القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر، قرن الإلحاد، وممثليه الأساسيين لودفيج فويرباخ (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) وشارلز داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) وكارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) وسيجموند فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩).

وفى اللحظة التى أصبح فيها الله مجرد إسقاط لرغبات البشر، أصبح المجال مهيأ لتأليه الإنسان فى صوره المختلفة، سواء كان ذلك بتأليه الجماعة فى الدولة (الماركسية، الاشتراكية، الفاشية) أو تأليه الفرد (الفردية، الليبرالية، الرأسمالية، النزعة النفسية).

ولذا أمكن لفردريش نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) أن يعلن بعد ١٠٠ عام فقط من صدور عمل كانط «العلم السعيد» ١٨٨٢ موت الله[٤]، واختفاء صورة الإله كما وردت فى المسيحية. وبهذا الإعلان مهد نيتشه للقرن العشرين المثقل بالأيديولوچيات الكثيرة المختلفة وبصراعاتها.

لقد أيقن من منطلق خبراته الخاصة ما عرفه المسلمون من قبل، وهو أن اقتصار الدين على المجال الخاص للشخص، هو أولى الخطوات للقضاء عليه والتخلص منه.

منذ تلك اللحظة عاشت الإنسانية ما لم تره من قبل وما لا مثيل له: فالحضارة الغربية هى الحضارة الأولى من نوعها التى تظن أن بإمكانها الحياة بدون الإيمان بكل ما هو مقدس[٥]، بدون إله وبدون غيبيات، وذلك عن طريق سلوكيات تتسم بالإلحاد، حتى وإن لم تؤمن نظريا بالإلحاد.

تحول الإلحاد فى المعسكر الاشتراكى إلى البديل الدينى، خاصة فى كل من ألبانيا والصين الماوية.

---

(٤) لقد أثبت نيتشه فى كتابه الأول: «Wir Furchtlosen "Die Fröhliche Wissenschaft» أن أحدث وأعظم الأحداث هو أن الله قد مات، أى أن الإيمان بإله المسيحية أصبح غير مقبول أو مصدق به، وقد أخذ يلقى بظلاله على أوروبا. انظر Nietzxbe الجزء الأول ص ٤٨٩.

(٥) لم يوضح أحد معنى ضياع «المقدس» كما فعل Rudolf Otto.

أما فى ألمانيا الديمقراطية، فلقد أثبتت إحصاءات أجريت بعد ١٠ سنوات من زوال الحكم الشيوعى عنها أن النجاح لم يحالف النظام إلا من خلال محاولته فرض العقيدة الشيوعية وتعليم الإلحاد فى المناهج الدراسية. وخير دليل على ذلك طقوس الشبيبة، فطبقا لها كان كل من يؤمن بالله يوصم بالخروج عن المجتمع، بل يُعَدّ من المهمشين(٦).

أما اليوم، فالإحصاءات تعطى صورة عن إيمان الشعب الألمانى، كما يلى: يَعُدُّ ٤٧٪ من الألمان أنفسهم لادينيين، و٩٪ يسمون أنفسهم ملحدين. ويرتفع هذا الرقم إلى ١٨٪ فى ألمانيا الشرقية. أما بالنسبة لمن يَعُدُّون أنفسهم مؤمنين فيذهب ٩٪ منهم بانتظام إلى قداس الأحد، ولا ينبغى أن نعجب إذا وجدنا ٣٢٪ من البروتستانت الألمان يؤمنون بـ«قوة عليا»، بينما ٣١٪ منهم يؤمنون بالإله الذى تدعو الكنيسة إلى الإيمان به.

إنهم بإيمانهم هذا إنما يتخلون ويبتعدون، بدون وعى، عن صورة الإله الاستشرافى (الغيبى) عن طريق الوحى الإلهى السامى، ويتجهون بتقديسهم، أيضًا بلا وعى، إلى الصورة الفلسفية للإله الواحد الذى يتجلى فى الطبيعة، وهى صورة للإله تبناها من قبل مفكرون يونانيون سبقوا ظهور الديانة المسيحية. وهذا المنطق يفسر خروج المئات من المسيحيين من الإيمان الكنسى، فلقد فقدت الكنيسة الكاثوليكية فى ألمانيا عام ١٩٩٧ : ١٢٤ ألفًا من أعضائها. وهذا التطور يعود إلى ما يدور فى عقول الناس من تفكير، أكثر مما يعود إلى ضريبة الكنائس المالية.

وإذا كانت الإحصاءات قد بينت فى عام ١٩٩٦ أن ٣٩٪ فقط من الألمان ينتمون إلى الكنيسة الإنجيلية و٣٣٪ إلى الكنيسة الكاثوليكية، فإن ذلك يعنى بطبيعة الحال أن ربع تعداد السكان الألمان بلا مذهب دينى.

لقد ذكرت مجلة «دير شبيجل» فى عددها ١٥ من يونيو عام ١٩٩٢ من خلال مقالة بعنوان: «وداع الله» أن ألمانيا قد تحولت إلى بلد كافر، بها بقايا مسيحية. ولقد

---

(٦) لن تجد اختلافات بين استبيانات الناس فى ألمانيا الغربية والشرقية إلا فى مجال الدين. انظر FAZ ٢٢/٤/١٩٩٨ و١٠/١١/١٩٩٨ و٢٤/١١/١٩٩٨.

دفع ذلك رئيس الأساقفة الكاثوليك «ليهمان» إلى القول بأنه منذ بونيفاتيوس لم تشهد ألمانيا مسيحيين أقل منها اليوم.

وتُعَدُّ بعض الطرق السوقية والفجة لنشر نظريات علمية، عاملاً أساسيا في هذا التطور. فنظرية داروين على سبيل المثال تجعل البعض يؤمن بأن كل شيء ما هو إلا نتيجة لسلسلة من التطورات تقع بمحض الصدفة، والتي يمكن إعادتها بطريقة عكسية «reverse engineering». واستناداً إلى نظرية النسبية لأينشتين، يعتقد البعض أنه لا يمكن الثقة بأي شي. أما ستيفن هاوكنج(*) فيجعلهم يعتقدون أنه لا أهمية لوجود الله لتفسير بدء الخليقة، حيث يُستبدل بذلك الـ (Big Bang). أما الوصول إلى سر الحياة والروح والوعي، فهو مسألة وقت لا غير، كما يراها رجل الشارع العادي. وستتكفل الكيمياء الحيوية وعلوم الكمبيوتر بحل هذه الألغاز.

ولا يختلف إنسان العصر الحديث، إنسان القرن الحادي والعشرين كثيراً عن سلفه إنسان القرن التاسع عشر؛ فهو كسلفه ـ وإن اختلفت حداثة وتطورات الشعارات العلمية ـ يرى ويتوقع أن يفسر الوعي من خلال معطيات مادية، وأن يتوصل إلى صيغة للعالم على أساس ميكروفيزيقي، بمقتضاها يمكن تفسير كل وجود العالم من خلال حجر بناء أساسي دون الحاجة إلى اللجوء إلى تفسيرات فلسفية.

وأعراض هذه الحالة تتمثل في عملية الاستبعاد لكل ما هو ديني من المجال العام. فإذا كان المستشار الألماني لم يعد مستعدا ـ وكذلك لم يعد يرغب ـ في أداء يمين منصبه أن يذكر الله، وإذا كان الله لم يذكر في خطابات أعياد الميلاد الألمانية الرسمية، فإن هذا ليس يدل فقط على تحول أوروبا الغربية عن المسيحية(٧)، ولكنه يدل على ما هو أعظم أثرًا من ذلك، وهو تسلل ودخول نزعة مادية فظة إلى فكر ووجدان الكثير من الناس في الغرب.

---

(٧) انظر Paul Schwarzenau : «عصر ما بعد المسيحية، عناصر لدين كوكبي» في Kirste ص ٤٧٨ وما يليها. وينطلق علماء لاهوت مسيحيون آخرون، مثل John Hick و Hans Küng من عدم وجود عالم مسيحي، وأن هذا العالم لن يوجد مرة أخرى.

(*) عالم أمريكي بريطاني الأصل كسيح له كتاب مشهور عن بداية العالم (الناشر).

هذا الإنكار لله الذى يعيشه الغرب - هو عدم مبالاة بأمور الآخرة أكثر منه إلحادا - وتأليه الإنسان، سيكون لهما على المدى الطويل آثار وخيمة العاقبة، بل سيجلبان الخراب بعينه، وإن طال الأمد.

يعرب عن هذا الرأى أوتو فون هابسبرج، إذ يقول: «إن أوربا بلا مسيحية كبيت من الورق لابد وأن يهوى»[8].

ومن قبله توصل جلبرت سيسترتون عام ١٩٠٥ فى «Heretics» إلى حكم مفاده: أن الحداثة إذا ما وصل المرء بتفكيره إلى ما ستكون عليه نهايتها، فإنه سيراها تقود إلى الجنون بعينه. ولكن هذا لن يقع بسرعة، فالمجتمع الذى أصابه الإلحاد سيستفيد لفترة من القيم المتوارثة والسلوكيات التى تمرس الإنسان عليها، وكذلك بعض المعتقدات التى تمتزج فيها الخرافة مع معتقدات جوته. ولكن سرعان ما ينتهى هذا الرصيد. فسرعان ما يبدأ البشر فى البحث عن اللذة ومحاولة الحصول على كل ما يمكن من ملذات الحياة فى عمره المحدود، ويتزايد بالطبع إهمالهم للصالح العام وللعائلة. ويمكن للمرء أن يتعلم كيفية التمتع بالحياة فى معاهد «البحث عن السعادة». هذه الظاهرة - على ما أعتقد - أبلغ من أى قول عن العقلية الحاكمة لزماننا هذا، حتى أصبح الإعلاء من شأن الغرق فى الملذات وإعطاء الأولوية لمتع الدنيا كأنه الديانه غير الرسمية للدولة. عندما نصل إلى هذه النقطة - وقد وصلت إليها أجزاء كبيرة من العالم الغربى - تنهار الأسرة، البناء الأساسى والأول للمجتمع، وأعراض هذا الانهيار مخيفة. ففى الولايات المتحدة الأمريكية نجد أن ١٥٪ فقط من الزيجات التى تمت حديثًا يتوقع لها - إحصائيا - الاستمرار.

وحقيقة أن هناك الملايين من الأمهات اللاتى يتحملن بمفردهن تنشئة الأطفال بسبب غياب الأب، وهذا يؤدى بالقطع إلى وجود الكثير من الأطفال المضطربين. ولا يعانى هؤلاء الأطفال وحدهم من عدم رؤيتهم لآبائهم (إذا ما وجدوا أصلاً) فى عطلات نهاية الأسبوع[9]، ولكن كذلك يعانى أطفال الأسر التى يعمل بها كلا الأبوين.

---

(٨) Paneuropa, Otto von Habsburg رقم ٤/ ١٩٩١ ص ٦.

(٩) يطلق الفرنسيون على هؤلاء الآباء «péres démissionaires».

فهؤلاء الآباء والأمهات إنما يحاولون تبرئة ضمائرهم من تهمة إهمال أطفالهم بإغداق المزيد من المتع المادية عليهم، كاللعب، وهذه واحدة من صور الرشوة «الشراء» حب أطفالهم، وهم بذلك إنما يربون مبتزين صغاراً، وجيلاً جديداً من المستهلكين الشرهين (جيلا جديدا ضحية للنزعة الاستهلاكية). ويتولى عن هؤلاء الآباء «مجموعات الأصدقاء» مسئولية التنشئة الاجتماعية للأبناء. هذه المجموعات تضم في معظمها أحداثًا تحولوا إلى تجار مخدرات ونشئًا ينبئ عن مجرمين عتاة مستقبلاً.

لقد فقد الأطفال الأمريكيون منذ الستينيات ١٢ ساعة أسبوعيا كان بإمكانهم أن يقضوها من قبل مع ذويهم. وفي الوقت نفسه، تباعد الأجداد الأمريكيون عن حَفَدتهم. وفي الفترة الزمنية نفسها، تضاعفت معدلات الانتحار بين المراهقين، وسجلت معدلات أعمال العنف الصادرة عن الشباب زيادة تصل إلى أربعة أضعاف. فإذا كان الرفض هو ما يقابل به الطفل أو المراهق الأمريكي حتى بين أصدقائه وفي مدرسته، فإن أعمال العنف - كما هو المعتاد في المدارس الأمريكية - هي النتيجة المنطقية المتوقعة. وما كان للعنف الذي يبثه التليفزيون، وألعاب الفيديو التي تروج للعنف كحل لكل المشكلات، وتحول الجنس إلى بضاعة في متناول الأطفال، ما كان لكل هذا أن يكون له هذا التأثير المفزع إذا ما أتيحت لهؤلاء الأطفال الذين يلتصقون بشاشات التليفزيون فرصة مشاهدة ما يذاع مع ذويهم ومناقشة كل ما يرونه مع آبائهم، ولكن هؤلاء بالطبع غائبون. وهكذا يتخطى الأطفال المحرومون من العاطفة والمشاعر الأبوية، دون وعي بذلك، الحدود الفاصلة بين العالم الخيالي والعالم الحقيقي.

ويترتب على شعور الأطفال بعدم الانتماء داخل الأسرة المفككة، وشعورهم بأنهم غير مرغوب فيهم، زيادة أعداد الأطفال الذين يعانون من الاكتئاب! حتى أصبح ٥٥٪ من المراهقين الأمريكيين من المدخنين، وهم يلجئون إلى التدخين للتغلب على الضغوط العصبية أسوة بالبالغين.

ويرى المراهق من خلال وسائل الإعلام قبل بلوغه سن الرشد، في المتوسط ١٥ ألف جريمة قتل واغتصاب واعتداء بالضرب، وهذا ليس مستغربًا إذا ما علمنا أن

هذا المراهق الحديث ما هو إلا رفيق الشاشة الصغيرة، يقضى حوالى ٣٠ ساعة أسبوعيا فى متابعة التليفزيون وألعاب الكمبيوتر. عنف يولد عنف. والمدهش فى أعمال العنف - كالتى وقعت فى مدرسة ثانوية فى دنفر عام ١٩٩٩ - أن هناك من لا يزال يتعجب من وقوع مثل هذه الأعمال.

ويؤدى الميل إلى تناول الخمور دوراً أساسيا فى مثل هذه الأعمال، هذا الميل الراسخ فى أعماق الحضارة الغربية. فلقد خبرت بنفسى وأنا طالب فى الـ Union College بـ Schenectady عام ١٩٥٠ أنهم لا يتناولون الخمر للاسترخاء والتمتع بصحبة جيدة مثلا، بل إنهم يشربون حتى الثمالة ليفقدوا وعيهم. وهذا الميل يبدأ فى أمريكا منذ سن مبكرة، سن الدراسة الثانوية.

كان وأد البنات حديثى الولادة فى بلاد العرب قبل الإسلام لظروف اقتصادية صعبة، وذلك قبل أن ينهى القرآن(١٠) عن هذا الفعل المشين. أما اليوم، فيتم تحديد نوع الجنين من خلال كشف مبكر بالموجات فوق الصوتية، وبناء على ذلك يتم انتقاء نوع الجنين والتخلص من غير المرغوب فيه، ويتم من خلال هذه العملية التخلص من ملايين الأطفال قبل أن يولدوا. ففى مدينة برلين وحدها، لا يرى إلا ثانى طفل نور الحياة. ولكن هذا لا يتم بسبب ظروف اقتصادية، فغالبية النساء الشابات يعتقدن أنهن وحدهن يملكن الحق فى التصرف فى «أرحامهن» حتى وإن ارتبط هذا بقتل طفل لم يولد بعد.

وبناءً على قرار خاص بالموت السريع، يتم تفتيت أجنة فى مراحل متأخرة من النمو، ويتم القضاء على أطفال قادرين على الحياة.

وسابقا، كان القضاء على أناس غير قادرين على الحياة بشكل طبيعى، يُعَدُّ من قبيل الأعمال النازية.

ويُعَدُّ التحول فى موقف الرأى العام من الشذوذ الجنسى أحد الأعراض المميزة

---

(١٠) كما جاء فى الآية [١٥١] من سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾. والآية [٣١] من سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

للتوحش والعبث الجنسي[١١] الذى أحدثته «الثورة الجنسية». كان الطب النفسي حتى فترة طويلة عقب الحرب العالمية الثانية، يَعُدُّ الشذوذ الجنسي أحد أشكال الفساد الجنسي وإحدى صور انحطاطه الواضحة. أما فى عام ١٩٧٢، فقد حدث تغير ما حين صنف المعجم الأمريكي لتوصيف الأمراض النفسية الشذوذ الجنسي مرضا نفسيا. ولكن سرعان ما ظهر الشذوذ الجنسي أسلوبا للحياة، وانتفت عنه صفة المرض النفسي فى الطبعة اللاحقة للمعجم. فالشذوذ الجنسي طبقا لذلك ما هو إلا توجه معين فى الحياة، وممارسة لاحتمال قائم، أى أنه ظاهرة طبيعية لا يجب إخضاعها للعلاج النفسي.

وبناءً على هذه المعطيات كان من الضرورى إخفاء أدلة علمية قوية على حقيقة ارتباط نشأة فيروس فقدان المناعة (الإيدز) بالشذوذ الجنسي بين الرجال وما يرتبط به من عوامل اكتئاب. كما تمت محاولات لإخفاء حقيقة ارتباط هذا الفيروس بعوامل أخرى ذات تأثير سلبى على جهاز المناعة كالخمر والمخدرات[١٢].

كان يجب توجيه النظر بعيداً عن الأسباب المؤدية لظهور مرض الإيدز، والكامنة، بل والمستوطنة، فى المجتمع الأمريكي، ولزامًا كان يجب إخفاء نشأة مرض الإيدز فى مجتمع سان فرانسيسكو، وإلقاء المسئولية بعيداً، ولن تجد أبعد من أحراش إفريقيا والقرود الخضر لتحمل هذه المسئولية عنهم.

ولقد أدى هذا إلى أن يتعرض الزواج كمؤسسة إلى خطر داهم. إن إقبال الشواذ جنسيا من الجنسين، رجالاً ونساءً، على عقد زيجات بين أفراد الجنس الواحد، لهو أمر غريب وموضع للتساؤل.

تتعدد صور النهم الشديد لإشباع الملذات الجنسية كافة، فتظهر فى الصور الإباحية بجميع أشكالها وجميع وسائل نشرها، وكذلك النزعات السادية والماسوشستية، وصور تبادل الأزواج والزوجات، والتحرش الجنسي، بل والاستغلال الجنسي للأطفال. وتدل هذه الصور كافة على أن الغرب يحتفل بآخر انتصاراته لنزع عوامل الكبت البشرى!

---

(١١) Sexual Wilderness: Vance Packard ـ التوحش الجنسي.

(١٢) انظر مالك بدرى (١٩٩٧) وجاود جميل.

الحقيقة التى لا يمكن إنكارها، هى أن المجتمع الغربى أصبح فى بنائه مجتمعًا مدمنًا أيًّا كانت الصورة التى يظهر عليها هذا الإدمان: خمر، نيكوتين، ماريجوانا، كوكايين، هيروين، تليفزيون، ألعاب الكمبيوتر أو الإنترنت، وهو وضع يَعُدُّه المسلمون انحرافًا عن الطريق الموصلة إلى الله.

من المعتاد أن تتعرف بما لا يقبل الشك على مدمنين يرتادون معك وسائل المواصلات فى نيويورك وواشنطن وسان فرانسيسكو.

ثم إن تناول المخدرات والتعود عليها يؤدى دائمًا إلى المزيد من الإدمان. كذلك الحال فى الممارسة الجنسية، حيث يدفع التعود إلى مزيد من درجات التحرر لا يستطيع المرء معه أن يتخيل إلى أين سيمضى به هذا الانحلال بشكله الواسع هذا! وليس من العجب أن يغتال كل هذا الفساد كرامة المرأة، وإحدى الصور الواضحة لذلك هى مسابقات الجمال.

يشعر الإنسان فى الغرب بمزيد من الوحدة والفراغ رغم التقدم الهائل فى مجال وسائل الاتصالات وما نجم عنها من تضخم فى المعلومات، حتى إن البعض يسميه «تخمة معلومات».

إن كتاب شارلز رايش الذى حقق أعلى المبيعات عام ١٩٧٠ وكان بعنوان «اخضرار أمريكا - The greening of America» قد مثَّل وعداً لـ«المهزومين» بازدهار فكرى وروحى لأمريكا بعد حرب فيتنام[١٣] . أما ما عرفته أمريكا وخبرته فهو على النقيض: برودة شديدة جمدت العلاقات الإنسانية، ونزعة عنف لم يسبق لها مثيل.

ومن المظاهر التى تبعث على القلق، هذه الوحدة التى تُفرض على كبار السن، هؤلاء العجزة الذين يتم ترحيلهم إلى دور رعاية المسنين. وأسباب هذه الظاهرة لا تكمن فقط فى الحقيقة التالية: هناك أعداد غفيرة من الشباب ذوى الطموح إلى درجة الهوس بأعمالهم (يطلق عليهم Yuppies)[١٤]، والمتطلعين فقط إلى تسلق

---

(١٣) كان كتاب Reich أكثر من تحليل. لقد كان بمثابة إعلان، مانيفستو، أصاب به عصب جيله وإحساسهم ورؤيتهم للحياة.

(١٤) Yuppies (Young, upward mobile professionals) أى رجال أعمال من الشباب شديدى الطموح والإصرار على تسلق السلم الاجتماعى.

سلم النجاح المهنى (يطلق عليهم: متسلقو الأهرام- Pyramid climbers[١٥]). وهؤلاء يتنقلون من مكان إلى آخر وفق انتقالهم من وظيفة إلى وظيفة[١٦]، ويؤدى هذا إلى تفكك الروابط الأسرية.

ويمكن إرجاع أسباب الوحشة كذلك إلى تقلص عدد الأسرة الحديثة إلى ٣ أفراد بحد أقصى، وليس ذلك فحسب، بل هناك فراغ هائل يفرض على الإنسان الغربى، حتى إنه يصير عضوا فى «جماعة وحيدة»[١٧]. هذا العضو يجد نفسه وحيداً أمام عجلة قيادته برغم الزحام الذى يحيط به، وكذلك يجد نفسه وحيداً أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به.

وكان من الممكن أن تؤدى الكنيسة دوراً فعالاً فى هذه الفوضى الأخلاقية، إلا أن هناك جموعا من المؤمنين تفر فراراً من الكنيسة كلما حاولت هذه إظهار عملية تحديث لها[١٨]. فالكنيسة تفقد الكثير من أهميتها حينما تغير جلدها وتتحول إلى مؤسسة اجتماعية تنافس غيرها من المؤسسات العلمانية والدنيوية. فلقد حدث فى منطقة Oberbayern بألمانيا أن أعلنت راهبة تابعة للكنيسة عدم إيمانها بحياة أخرى بعد الموت. كما قام بعض أساتذة اللاهوت بتحويل يسوع إلى مصلح اجتماعى فقط، وفى ظل مثل هذه الوقائع، يترك الكثير من المسيحيين المؤمنين الكنيسة، ليس إلى دين آخر، ولكن لينضموا إلى هذا البحر الهائل من المتشككين.

نستطيع إذاً أن نقول إن الخبرة الأساسية التى عاشتها الحداثة هى الفشل، وكان

---

(١٥) لقد صاغ Vaixe Packard مصطلح Pyramid climbers أى متسلقى الهرم فى كتابه الذى يحمل العنوان ذاته ١٩٦٢.

(١٦) لن نجد مجالاً يظهر فيه إصرار العاملين على النجاح والتحرك والتنقل مثل مجال البنوك الاستثمارية.

(١٧) لقد صاغ David Riesmann هذا المصطلح فى الخمسينيات من خلال كتابه «The Lonely Crowd» أى «الجمع الوحيد».

(١٨) إن شمالى أمريكا أقل بعداً عن المسيحية مقارنة بأوروبا، وذلك بناءً على عضوية الناس هناك فى الكنائس والاعتراف العلنى فى المجالات العامة بوجود الله.
لقد تنبأ أسد (١٩٣٤) بهذا التطور، فقال بما معناه: إن كثيراً من المسيحيين لم يعد يقبل أن يمتهن عقله عن طريق التعاليم التى تروجها الكنيسة مثل التجسيد وإرث الذنب والخلاص على الصليب والثالوث، وسينصرفون أفواجًا ليس عن الكنيسة فحسب بل أيضا عن دينهم.

لا بد لمشروع الحداثة أن يفشل؛ لأنه يرتكز على خطإ فى التصميم (البناء الفكرى): يرتكز على الفرد الليبرالى كفاعل عاقل.

يمكننا أن نلاحظ أن المسلم الذى يتناول الأمور بعين ناقدة لم يتطرق فى نقده إلى نظام الدولة والاقتصاد. وإذا ما تحدثنا إليه فى ذلك يأخذ فى الهمهمة بأن العهد بحرية الإنسان ليس بعيداً، كما أن الدولة تنتهج منهجًا قصير النظر حيال المسلمين، وتصم آذانها عن مشكلاتهم. أما بالنسبة للصحافة، فإنها وإن لم تكن تخضع لرقابة حكومية إلا أنها تخضع لرقابة أخرى تحكمها المحرمات السياسية وغيرها فى المجتمع.

هذه هى ملاحظات شخصية المسلم المتخيلة، هذا المسلم الذى يؤمن عن اقتناع، ويمارس الإسلام عن يقين. هذه الملاحظات التى تؤدى إلى إصدار حكم قاطع على الغرب ورفضه، بل هو يرفض رفضًا باتا أن يقتدى بهذه الحضارة التى تعانى أزمة وجود، ويتمنى أن يبعد عن وطنه ما يؤدى به إلى هذا المصير. فهو يرى أنه ليس من العقل فى شىء أن يتبع نموذج تطور أثبت فشله، أو أن يسير خلف عملية تنوير تؤدى فى آخر الأمر إلى لا عقلانية الإلحاد وتوابعه الحتمية.

ألا يؤدى هذا بنا إلى التساؤل: هل شاهد كل من المسلم المؤمن عن اقتناع ويقين، والمسلم بالميلاد، هل شاهد فعلاً كل منهما نفس العالم ووصفه كل منهما حقا؟

نعم! لم يقم كل منهما بهذا فحسب، بل إن كلا منهما - بأحكامهما المتباينة بشدة - على حق. فهناك فى الغرب هذه الأيام الكثير مما يدعو إلى الإعجاب والاقتداء به، وهناك أيضًا بالفعل ما يتنافى تمامًا مع الطبيعة الإنسانية، بل ما يجرد الإنسان من إنسانيته، حتى إن كل هذا يمكن أن يؤدى إلى انهيار هذه الحضارة وإنجازاتها إن لم تسرع بتدارك الأمر.

وإذا كان الحق كل الحق مع الزميلين فى حكمهما، فإنهما قد جانبهما الصواب فى رد فعليهما. فيجب عليهما - وعلى كل إنسان فى الغرب - ألا يسير خلف كل مظاهر الأزياء (الموضات)، ولكن أن يواجهها، وأن يستفيد بإنجازات الغرب

الحقيقية، وأن يقاوم أمراضه الحضارية. «الانتقاء هو السبيل». ويتحقق هذا عندما نتخيل أنفسنا مرافقين لشابين مسلمين مُتَخَيَّلَين من الغرب، يقومان برحلة إلى الشرق المسلم؛ لأن هناك الكثير مما يثير الإعجاب ويحض على الاقتداء به، كما أن هناك الكثير مما ينفر، بل ويثير النقد الشديد.

* * *

الشرق المثير للتساؤل

شعار: يجب أن يكون هذا هو العصر الذى نسمو فيه على احتياجنا إلى دين.
(سلمان رشدى: ٦ من مارس عام ١٩٩٩ فى كلامه عن الألفية الثالثة).

-١-

يمكن أن نلاحظ وجود مجموعتين من الطلبة الغربيين المعتنقين للإسلام. فهناك من أدى اعتناقه إلى الإسلام إلى تحول هائل فى شخصه، حتى إنه أصبح يعيش بين عالمين، مثل عبد الهادى كريستيان هوفمان. والبعض الآخر ممن قرأ كتب Karl May فى صباه، اكتشف فى نفسه شغفا شديدا بكل ما هو عربى وإسلامى وشرقى، فاتجه إلى دراسة علوم الإسلام. وهم يحاولون الآن تحقيق الإسلام بدقة واتباع أدق تفاصيل سنة[1] الرسول - (صلى الله عليه وسلم) - فى أنفسهم وأسلوب حياتهم، حتى فى اتباعهم الهجرة[2]، إذ أنهم يهاجرون إلى العالم الإسلامى لأسباب عقائدية. وبعض هؤلاء من معتنقى الإسلام، يبالغون فى التعرب فى ملبسهم ومطعمهم ولغتهم وإيماءاتهم، حتى إن بعض المسلمين يتهمونهم بالرومانسية

---

(١) السنة هى المصدر الثانى للدين الإسلامى بعد القرآن، وهى تضم مجمل أقوال وأفعال الرسول - (محمد صلى الله عليه وسلم) - وما سمح به وما نهى عنه. وتُعَدّ السنة بناء على هذا مثالا يقتدى به المسلم.

(٢) الهجرة هى خروج الرسول محمد - (صلى الله عليه وسلم) - ومعه حوالى ٢٠٠ من أتباعه عام ٦٢٢م من مكة قاصدين يثرب التى تبعد ٤٠٠ كم عن مكة، والتى أصبحت فيما بعد تعرف باسم المدينة، حيث استطاع المسلمون لأول مرة أن يمارسوا إيمانهم بلا خوف أو اضطهاد، ويعملوا على إقامة أول دولة لهم. ولا يزال أمر الهجرة هذا ملزمًا للمسلم الذى لا يتمكن من إقامة شعائر دينه فى البلد المقيم به، لأسباب وعراقيل تضعها الدولة وتمنع المسلم من ممارسة دينه.

الشديدة فى تناولهم للإسلام، ويتهمونهم بأنهم يتجاهلون عالمية الإسلام التى لا يحدها زمان أو مكان. بل إن محاولتهم للتعرب هذه، تزيد من تأكيد حكم مسبق يطلقه الغرب ويتبناه، مفاده أن الإسلام دين قبلى عربى، هذا بالرغم من وجود أعداد من المسلمين الهنود تفوق أعداد المسلمين العرب. أما بالنسبة للـ ٢٥٠ مليون مسلم إندونيسى وماليزى وتايلاندى وفليپينى، فحدث ولا حرج(*).

-٢-

بادئ ذى بدء، نود أن نستمع إلى المسلم الغربى - الشخصية المتخيلة - وهو يوضح الأسباب الشخصية لرغبته فى الهجرة إلى بلد إسلامى. ما العوامل الحضارية - التى تكاد تزيد عن عشرين عاملاً - والتى تجعل أحد المجتمعات الإسلامية جذابًا إلى درجة الرغبة فى الحياة هناك؟ كيف يعتقد أوروپى أن بمقدوره أن يعيد شحن بطاريته الأخلاقية والروحية فى أحد المجتمعات الإسلامية، وهناك فقط، وأن يعيش الإسلام فى هذه البقعة وحدها؟

هيا نستمع إليه:

فى مقابل العائلة الغربية الصغيرة غير المترابطة، تجد العائلة الكبيرة الممتدة، التى تربطها أواصر وثيقة تمثل لحسن الحظ اللبنة الأساسية الصلبة للمجتمع. ولا ينتقص من أهمية هذا أن ظاهرة العائلة الممتدة لا تقتصر على العالم الإسلامى فحسب.

وبالرغم من الضغوط التى تتعرض لها العائلة المسلمة بهدف تغريبها، والمتمثلة فى السياحة والأفلام الغربية المتحررة (والتى تزين الطلاق) وتحسن الأحوال المعيشية التى تغنى عن التكافل، وتزيد من حرية حركة النساء، فإنها - أى الأسرة - تتكاتف وتتماسك عادة فى المجتمعات الإسلامية، حتى يشعر أفرادها بالدفء العاطفى والحسى، فتكون شكوى البعض من زيادة الاهتمام والرعاية وليس من غيابها.

ونرى حتى فى المجتمعات النفطية المسلمة، أى مجتمعات الوفرة، اجتماع أعضاء العائلة من الذكور أسبوعيا فى منزل كبيرهم فيما يطلق عليه مجلس العائلة.

(*) من جنس الملايو.

ولقد رأيت فى البحرين ما يزيد على ٨٠ شخصًا فى مثل هذه المجالس (لا ينتمى كل هؤلاء إلى العائلة بمفهومها الضيق المحدود). وطالما يتكسب أحد أفراد العائلة، فلا يجوع فرد منها.

يتم دائمًا التفكير فى الشيوخ والعجزة فى العائلة، كما يتم أخذ الأعداد الغفيرة من الأطفال فى الحسبان فى أى أمر من أمور العائلة أو مصالحها.

فحتى فى تركيا نفسها، ما كان من الممكن أن تجد قبل عشر سنوات دارًا للمسنين. كما يرفض ـ بشدة ـ ملك المغرب إلى الآن إقامة دار للمسنين؛ لأنه يرى فى ذلك مؤشرًا لانهيار الضمانة الاجتماعية التى تؤمنها العائلة للفرد.

هناك حقيقة ثابتة هى: تمثل العائلة فى العالم الإسلامى ـ سواء ثرية أو فقيرة ـ النسيج الاجتماعى الأساسى. وهذه هى المكانة التى كانت الأسرة فى الغرب تحتلها يومًا ما قبل أن تتولى الدولة عن الأسرة الأعباء التالية: تأمين المرضى، والعاطلين عن العمل، وأصحاب المعاشات، ومن تعرض لحادثة، وكل من يحتاج إلى رعاية.

أما فى الأسرة المسلمة، فيعيش الجميع معًا، يأكلون سويًا، يصلون معًا، يحتفلون مجتمعين، يحزنون معًا، ويعايش بعضهم البعض حتى فى الوفاة، ويتم كل هذا دون ممارسة ضغوط من أى فرد من أفراد العائلة لقمع الشخصية المتفردة، فالعائلة مجتمعة تساند المواهب الفردية. وهناك أمثلة واضحة، مثل تضامن العائلة لإيفاد أحد أفرادها الموهوبين لاستكمال دراسته فى الخارج.

ولا تغفل طبيعة العائلة المذكورة عن الضيافة ومظاهرها، خاصة أن الإسلام يدعو إلى إيواء الضيف وإكرامه لمدة ثلاثة أيام بحد أدنى(*)، وتلبية لتلك الدعوة، نشأت أساليب ومظاهر ضيافة لا يستطيع الغربى أن يفهمها، خاصة أنه مرتبط ارتباطا شديدا بخطط منزلية ثابتة. (كان علىَّ لفرط كرم الضيافة أن أثير انتباه الزائرين الرسميين من الألمان إلى الجزائر والمغرب فى أثناء شغلى لمنصب السفير فى

(*) ففى الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته» قالوا: وما جائزته يارسول الله؟ قال: «يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام، وما كان وراء ذلك فهو صدقة». البخارى [٦١٣٥]، وأبوداود [٣٧٤٨].

هذين البلدين، إلى عدم إبداء الإعجاب الشديد، وبطريقة ألمانية، فيما تقع عليه أعينهم عند أحد مضيفيهم. أما من لم يستمع إلى هذا الرأى، فكان يجد ما جذبه وأبدى إعجابه به - مثل كتاب قيم، لوحة جميلة أو تحفة ثمينة - فى حقائبه).

عادة ما يقوم المسلم بإحضار أكثر مما يطلبه منه أحد معارفه. فإذا كان المطلوب شراء أسطوانة موسيقية واحدة فإنك تتلقى اثنتين. إذا ما اصطحب أحد الأفراد شخصًا إلى السوق لشراء طعام أو شراب لمنزله، فلن يكون مستغربًا أن يهدى شيئًا لمنزل صاحبه.

يمثل الإحساس بالعائلة وكرم الضيافة، الخلفية للدفء الإنسانى والاستعداد التام لمساعدة المحتاج، التى تشع من المجتمعات الإسلامية: شعور الإخاء الذى يسود بين أبناء الأمة[٣]. لم يسمع معظم المسلمين عن ضرورة أن يحب المرء جاره كما يحب نفسه، ولكنه قرأ فى القرآن أن المسلمين إخوة[٤].

لذلك يعايش الأوروبى هذه الطيبة والتسامح الذى يتعامل به المسلمون فى المناطق الإسلامية كتجربة خاصة تجلب له سعادة غامرة، وينتابه إحساس غامر بالدفء الإنسانى وشعور الناس بعضهم ببعض. وهذه الحقيقة تُعَدّ أحد الأسباب التى تدفع بالكثير من الفليبينيين الكاثوليك ممن يعملون بدول الخليج العربى إلى اعتناق الإسلام[٥].

فالمسلمون - وإن لم يسبق لهم معرفة بعضهم بعضا - يتعانقون عند السلام، ويتحدثون بألفة شديدة دون لهجة خطاب رسمية، من الممكن أن نتوقعها من جماعة متقوقعة على نفسها، وليس من جماعة دينية يفوق تعدادها مليار نسمة. ولا نستطيع أن نغفل عن حقيقة أن الاضطهاد الذى يتعرض له المسلم فى بعض المناطق غير الإسلامية، تدفعه إلى الاحتماء[٦] بالمسلمين الموجودين معه، مما يؤدى

---

(٣) الأمة تعبير يصف جميع المؤمنين بأنهم إخوة بعضهم لبعض.

(٤) لقد جاء فى القرآن فى سورة الحجرات الآية ١٠ ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾.

(٥) تعمل منظمات كثيرة لتحقيق هذا الهدف، وتتعاون فيما بينها، مثل التبليغ الإسلامى فى قطر والبحرين والإمارات و Discover Islam.

(٦) إننى أشير هنا إلى الوضع المهين لـ ٨٠ مليون مسلم فى الهند بسبب تجاهل منظمات حقوق الإنسان لهذا الوضع ومخاطره. =

بالتالى إلى زيادة ارتباط المسلمين بعضهم ببعض . لكن إذا بادر المسلم فسأل مسلما آخر شيئا ، ففى الغالب يكون هذا الشيء هو الدعاء له .

ويتجلى شعور المسلمين بالإخاء فى حبهم لبذل المال بعضهم لبعض ، هذه الظاهرة التى تسجل فى الولايات المتحدة الأمريكية أرقامًا قياسية . فبجانب أموال الزكاة ـ التى تُعَدّ أحد أركان الإسلام الخمسة[7] ـ هناك الكثير من الصدقات التى يدفعها المسلمون فى أمريكا لأعمال الرعاية الاجتماعية . فالمسلم يعلم علم اليقين أنه لا يجوز له شرعًا أداء مناسك الحج ـ وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ـ إذا كان جاره فى حاجة إلى المال . وتبلغ حصيلة أى حفل عشاء يضم من ٨٠ ـ ١٢٠ مدعوا مقام لجمع تبرعات لصالح شأن من شئون الإسلام من ١٠٠ ألف دولار إلى ٥٠٠ ألف دولار فى بعض الأحيان . وهناك فى الولايات المتحدة الأمريكية أطباء مسلمون ألزموا أنفسهم منذ أن كانوا طلبة طب ـ بدفع ١٠٪ من دخلهم لصالح شأن من شئون الإسلام، وهذا مدى الحياة .

لكن حب بذل المال لا يفسِّر وحده ظاهرة بناء المساجد المنتشرة فى العالم الإسلامى . ولكن يضاف إليه دافع آخر وهو حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم مفاده : «من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة»[8] . لذلك تم فى تركيا فى العقد الأخير بناء مسجد كل ست ساعات بالجهود الذاتية . أما الملك السعودى فهد بن عبد العزيز ، فقد أقام من ماله الخاص ٦٠ مسجداً فى العالم الممتد بين لوس أنجيلوس وروما .

= انظر عمر خاليدى : Indian Muslims since Independence, Vikas Publishing New Delhi 1996 «الهنود المسلمون منذ الاستقلال» .

(٧) ففى الحديث : «بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» . البخارى [٨] .

(٨) يتضح أجر وثواب بناء المساجد من الروايات الصحيحة التالية : فقد روت عائشة كما جاء فى سنن أبى داود حديث رقم ٤٥٥ أن الرسول دعا إلى بناء مساجد فى الأماكن المختلفة التى يستوطنها المسلمون . وبنى أبو بكر ـ أبو عائشة ـ أول مسجد «خاص» فى مكة قبل الهجرة . أما عثمان بن عفان الخليفة الثالث ، فروى عن الرسول قوله : «من بنى مسجداً لله بنى الله له فى الجنة مثله» . (البخارى [٤٥٠]، ومسلم [٢٤/ ٥٣٣] .

يمثل هذا التضامن والشعور بالانتماء الذى يسود أمة المسلمين والذى يسمو فوق أى اعتبارات عرقية، حقيقة سياسية يمكن إبرازها فى أى وقت.

هذا، وإن لم يستطع مسلم ـ يأخذ الأمور بشكل جدى ويتعامل معها بدقة ـ أن يزعم أن الإسلام نجح فى القضاء نهائيا على أى تفرقة إثنية أو أحكام مسبقة يمارسها عرق ضد عرق آخر (فهناك الكثير من الأدلة والشواهد المريرة، ليس أقلها ما يحدث فى موريتانيا وشبه الجزيرة العربية) فإنه يستطيع أن يقول ـ وهو لا يتجنى على الحقيقة ـ إنك لن تجد دينًا نجح فى دحض العنصرية والتغلب عليها بالدرجة التى حققها الإسلام (انظر فصل «عمى ألوان»).

وتؤدى فريضة الحج وظيفة هائلة فى هذا الشأن، حيث تتلاشى فيها كل الفوارق بما فيها العرقية، فيتحول الحج إلى مهرجان لا ترى فيه اختلاف ألوان البشر، وكأن المرء مصاب بعمى ألوان، فلا يفرق بين لون وآخر. ولقد أدت تجربة حج واحدة بـ Malcolm X (مالكولم إكس) رئيس جماعة «أمة الإسلام ـ Nation of Islam» الذى عرف عنه معاداته للسامية وللبيض، إلى أن يتبين أن جماعته «أمة الإسلام» الموغلة فى العنصرية، تسير على الدرب الخاطئ. ومنذ تلك اللحظة، أصبح مسلما سنّيا حقيقيا، وانضم إلى كل من محمد على و Rap Brown ووارث محمد، وأسمى نفسه حاج مالك الشباظ (لقد دفع حياته ثمنًا لهذا التحول)(٩).

ومنذ تلك الواقعة ظهرت أعداد كبيرة فى المساجد العربية والهندوباكستانية، والمساجد السوداء، تحاول إصلاح مسارها والعودة إلى الطريق القويم للشريعة الإسلامية. (تجد تفاصيل هذا فى فصل: «إسلام صنع فى أمريكا ـ Islam made in USA».

نستطيع أن نقول إن الإسلام فى مجمله يتسم بدرجة عالية من المساواة بين

---

(٩) انظر Barboza u. Gardell . لقد تحول وارث محمد ابن إليجا محمد، مؤسس أمة الإسلام، بعد وفاة والده ورحلة الحج إلى مكة، إلى مسلم سنى يدعو أتباعه إلى الاندماج مع المسلمين البيض. أما Rap Brown، فقد تاب عن إجرامه وأصبح الآن بفضل تمكنه من اللغة العربية يزاول مهنة إمام.

البشر، ذلك أن القرآن ذكر أن المرء بتقواه وعمله وليس بغناه ونفوذه، ولا بحسبه ونسبه، ولا بجماله وشهرته(١٠).

وتتجسد فكرة مراعاة العمل الصالح والتقوى، فى أفضلية المرء إذا ما غاب الإمام الرسمى للجامع عن صلاة ما، فسرعان ما يتم اختيار من يكون بين المصليين أتقاهم وأعلمهم بشئون دينهم، ولا يعتد بجنس أو عرق أو مال أو جاه فى هذا الاختيار(*).

ولا ينفى هذا وجود مظاهر قليلة للملك وإمارة دنيويه فى العالم الإسلامى متمثلة فى الشيوخ والأمراء والملوك وأمرائهم الكثيرين، ولكنك لن تجد بلاطا يذكرك ببلاط بيزنطة إلا فى المغرب، حيث لا يقبل أحد أيدى الملوك فى إمارات الخليج على سبيل المثال، ولا يحنى أحد رأسه عند المصافحة بالأيدى بل يرفعها شامخة.

ومن التجارب المؤثرة أن تشاهد بعض البدو فى السعودية بملابسهم البالية وهم يحاورون ولى العهد الأمير عبد الله فى مجلسه الأسبوعى، ويواجهونه برأيهم بل ويلوحون بشدة بأصابعهم فى وجهه.

وتُماثل فكرة المساواة عند البدو والمنتشرة بين المسلمين فكرة أخرى، وهى الاحترام خاصة لمن هم أكبر سنًا. هذه الفضيلة التى يُنَفِّر الغرب عنها بصفتها رذيلة. فالمسلم يتعلم منذ نعومة أظافره احترام الله وكلمته، القرآن، واحترام السلطة الأخلاقية للرسول، كذلك احترام مكانة الأب والأم، واحترام المعلم، وكل من هو أكبر منه سنا؛ حتى إن الأخ الأكبر (بالتركية أبيه) والأخت الكبرى (بالتركيه أبله) يتمتعان باحترام الإخوة الأصغر سنا. هذا النهج فى التعامل باحترام مع الأكبر سنا، والذى طالما تعرض فى الغرب للنقد والتجريح، بل والاستهزاء، من الممكن أن يؤدى فى حالات فردية إلى أن يسبق مكانة الفعل الحقيقى للإنسان،

---

(١٠) تقول الآية ١٣ من سورة الحجرات: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، وكذلك فى أمر الزواج، على المسلم أن يفضل المؤمنة على الجميلة والغنية وذات النسب (النووى رقم ٣٦٤).

(*) ففى الحديث: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة.... الحديث». مسلم [٢٩٠/ ٦٧٣]، وأبوداود [٥٨٢]، والنسائى ٢/ ٧٦.

أو بمعنى آخر أن يتفوق العُمْر على القيمة الحقيقية للإنسان، خصوصا أنه ليس من الضرورى أن يتواكب العُمْر مع الحكمة. كما أن بالمدارس العديد من المعلمين التافهين.

ولكن فى آخر الأمر، يضفى استعداد الناس لإبداء الاحترام سمة إنسانية على المجتمع الإسلامى، فكثيرًا ما نفتقد - فى ألمانيا مثلاً - هذا الاحترام، فنرى أحد التلاميذ يجلس فاتحًا فاه وهو يلوك العلكة(*)، وامرأة حاملا لا تقوى على الوقوف، ولا يفكر أحد فى أن يقوم ليجلسها مكانه.

هناك سلوك حميد آخر مرتبط بهذا الاحترام ينتشر فى العالم الإسلامى، ألا وهو احترام الخصوصية، والذى تلحظه بدقه فى مدن كمدينة فاس، تلك المدينة ذات المبانى الشديدة الالتصاق بعضها ببعض. فى هذه المدينة يستطيع كل إنسان أن يرى من سطح بيته بيوت الآخرين، بل أن ينظر كل إنسان داخل نافذة الآخرين، ولكن سرعان ما تتراءى للمرء حقيقة أن كل إنسان يحجب نفسه عن الآخرين ويحمى نفسه من أنظار الآخرين[١١]. إننى أرى عامة البيوت الإسلامية مبنية وفق معايير هندسية معينة؛ لتوفر الحماية والخصوصية لأصحاب هذه البيوت كمعطف من الفراء وحاشيته من الحرير. ودورات المياه المخصصة للرجال فى العالم الإسلامى توفر خصوصية أكثر من مثيلاتها فى الغرب، فكل حمام مغلق كما هو الحال للنساء فقط فى الغرب.

وهناك ظاهرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بفكرة نفى الإسلام لأى هيراركية وإن لم يبد هذا لأول وهلة: ظاهرة دور الخطاب الشفوى فى الحضارة الإسلامية.

فأول كلمة تلقاها محمد عام ٦١٠ من الوحى هى اقرأ (سورة العلق: ١-٥). اقرأ هذه لا تتضمن فعل القراءة فحسب، بل أيضًا التلاوة على الغير، أى وجوب

(*) العلكة: اللبانة.

(١١) لقد صورت فاطيما مرنيسى الحياة فى بيت فى فاس له خصوصيته وعالمه الخاص المغلق مصحوبا بحنين جميل.

انظر: Mernisi, Dreams of Trespass, Tales of a Harem Girlhood, Addison - Wesley. Reading, MA, USA, 1994.

توصيلها للغير، ومنذ تلك اللحظة غدت تلاوة القرآن فنا رفيعًا وراقيًا، وأصبح حفظ القرآن مهارة تحظى بتقدير واحترام بالغين، وهي المهارة التي يحرص مئات الآلاف حتى اليوم على إتقانها[١٢].

ولكن بالرغم من هذا، فإنه من قبيل الفكر المضلل أن نتفق مع Hans Küng في رأيه، حيث يدعي أن تجسد الله في يسوع (أي التجسد المادي) يقابله في القرآن تجسد الله في الكلمة[١٣]؛ لأنك لن تجد مسلمًا واحدًا يقدس وجود الله المادي في القرآن المكتوب، ولكنه يحترم كلمة الله عند تلاوته، بدون ادعاء أن الله عالم لغة عربية.

ويلتصق بهذه المهارة - أي مهارة تلاوة القرآن - شكل آخر من التلاوة، وهي إلقاء القصائد المطولة كالمعلقات وقصائد الغزل التي تُعَدّ أرقى صور الموسيقى العربية.

حديثنا هذا لا يدل بأي شكل من الأشكال على التقليل من دور كل ما هو مكتوب في العلوم الإسلامية. وكيف يكون هذا، ونحن نعلم قيمة أعمال علماء الإسلام المكتوبة، وذلك منذ القرن الثاني الهجري؟ لقد تم تدوين القرآن في صحف متفرقة في أثناء حياة الرسول، وما لبث بعد فترة قصيرة أن ظهرت كتب مطوّلة يجمع فيها العلماء حديث[١٤] الرسول، كما ظهرت تفاسير كثيرة للقرآن الكريم. وكذلك ظهرت روايات لسيرة[١٥] الرسول وعلوم التأريخ وعلوم المعاجم وعلوم

---

(١٢) لقد تيقنت من خلال زيارتي لمدرسة تحفيظ القرآن في واد مدني (تبعد ٢٠٠كم عن الخرطوم جنوبا وتقع بين النيلين الأبيض والأزرق) قمت بها منذ فترة قصيره، أنهم يقومون بالتدريس هنا كما كان يحدث منذ ٤٠٠ عام مضى. لكن إذا ما تمكن مسيحي من حفظ العهد الجديد، فإن هذا يكون أمرا عجيبا يصور على أنه حدث استثنائي ومدو كما حدث للإنجليزي David Bathurst الذي حفظ العهد الجديد (FAZ١٩٩٨/٦/٣٠).

(١٣) Hans Küng. يعلمنا الإسلام نهاية الفصل بين الدين والسياسة في Die Welt رقم ٥٥ برلين ١٩٨٩/٣/٦ ص ١٣.

(١٤) أهم مجموعات الأحاديث الموثقة انظر: البخاري ومسلم ومالك.

(١٥) يتميز كل من الطبري وابن كثير بأنهما مفسرا قرآن وأنهما مؤرخان للتاريخ الإسلامي. ولقد ظهرت ترجمات لتاريخ الطبري، فظهرت ترجمة فرنسية في دارنشر سندباد، وأخرى إنجليزية من خلال (State University of N.Y. in Albany). أما تفسيره للقرآن فقد ظهر منذ عام ١٩٨٩ بالإنجليزية من خلال دار نشر Oxford University Press.

ويقدم محمود أيوب عرضا يضم ١٣ مفسرا للقرآن من عصور وتوجهات مختلفة في The Qur`an and its interpreters ظهر إلى الآن منه جزءان State University, of N.Y. Press; Albany 1984 & 1992.

أخرى كالنحو والفقه[١٦] وغيرها من العلوم. كانت علوم اللغة والبلاغة هذه منذ بدايتها وفي مراحل تطورها المختلفة حريصة دائمًا على أن تكون النصوص المقدسة وما يتعلق بها من نصوص كالتفسير في متناول كل إنسان بشكل مباشر، حتى الأمي، على عكس ما تجده في الكنيسة وعلاقتها بالنصوص المقدسة من ناحية وأتباعها من ناحية أخرى.

لم تكن علوم الدين الإسلامي ولا نصوصه علمًا سريا في أي وقت من الأوقات. وكل ما سبق ذكره يؤكد من قيمة الشفاهية في الإسلام، ويوضح ما يتمتع به الإسلام من صلابة وقدرة على مقاومة المتربصين به. فلم يستطع السوفييت القضاء على الإسلام في آسيا الوسطى؛ لأن اعتقال علماء الإسلام وحرق المكتبات وحده لا يفرغ الإسلام من قوته، فهناك عنصر الشفاهية - الذي سبق ذكره - كوسيلة تعليم وإعلام.

يقوم صديقنا المسلم المغرم بالشرق برصد عدة عناصر أخرى في أسلوب حياة المسلمين - وإن بدت أقل أهمية مما سبق - ويبدي إعجابه بها. من ضمن هذه المظاهر التي يذكرها بإعجاب شديد، الصبر الذي يتسم به المسلم، وهذه الصحوة التي يلمسها في كل مكان، وهو يعني بها قدرة المسلم على تجنب المخدرات والخمور، حتى وإن وجدت.

لن يضطر رجل في مدن يمارس فيها الإسلام أن يأخذ حذره من سائق مخمور ولا تضطر امرأة إلى أن تحتاط لنفسها خوفًا من مخمور يتهجم عليها. لن تستمع إلى جلبة وصخب يحدثهما مخمور، سواء ليلاً في شارع ما، أو على منضدة مجاورة لك في مطعم قصدته.

بل إن عينيك لن تدمعا بتأثير دخان من يجاورونك في أي مجلس؛ لأن أعداد المدخنين في العالم الإسلامي أقل بكثير من مثيلتها في أوروبا وحتى في الولايات المتحدة.

---

(١٦) تُعَدّ «الرسالة» للإمام الشافعي عملا يتسم بالأهمية الشديدة حتى إنه يستحق فعلا أن يكون قاعدة لعلوم التشريع الإسلامية. انظر: خضوري.

وكما هو متوقع من ابن رشد الطبيب والفيلسوف والفقيه، فإن كتابه القانوني: «بداية المجتهد» يُعَدّ نموذجا إلى يومنا هذا.

المسلم الحق عادة ما يكون رشيقا؛ لأنه اتباعا للسنة لا يجوز للمرء أن يأكل حتى الامتلاء(*). بينما نجد أن مشكلة السمنة هى إحدى المشكلات المؤرقة فى الولايات المتحدة، حيث تنتشر ظاهرة السمنة بشكل مفرط، لدرجة أنها تكاد تكون مشكلة قومية. ولذلك تجد منذ اللحظة التى تطأ فيها قدماك أرض أحد مطارات الولايات المتحدة أناسا يعانون من مشكلة السمنة من مختلف الأعمار.

ومن قبيل التفسير السطحى لدرجة الإخلال بمضمون المشكلة، أن نُرجع أسباب السمنة المفرطة فى الغرب إلى الشراهة فى تناول الطعام، بينما نعلل نحافة المسلم بصومه شهر رمضان. ولكن من المؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن مشكلتى السمنة والنحافة لا يمكن تفسيرهما فقط فى ضوء الأطعمة السريعة ذات السعرات الحرارية المرتفعة، أو اللحوم التى تحتوى على هرمونات تورث السمنة، ولكنهما يفسَّران كذلك فى ضوء الحالة النفسية للمرء؛ فلا عجب أن نتحدث عن «شحم الهموم»، مما يعيدنا إلى الحديث عن أهمية الإيمان ودوره فى حياة الأفراد والمحافظة عليها.

هناك أيضا بجانب عدم الإسراف فى الملذات صورة من صور الهدوء والاسترخاء فى البيئة الإسلامية الحقيقية. ويجنح البعض إلى تسويغ هذا الهدوء فى ضوء المناخ الحار، ولكنك تصادف ظاهرة الهدوء هذه فى الأقاليم الباردة كذلك. ويحلو للبعض الآخر تفسير هذا الاسترخاء بكونه إرهاقا متوقعا من أناس يستيقظون مبكرا لأداء صلاة الفجر (قبل شروق الشمس بحوالى ساعة ونصف الساعة تقريبا). ولكن فى حقيقة الأمر يعود السبب فى هذا الاسترخاء إلى غياب الضغوط الحياتية المعتادة، والذى لا يمكن تفسيره - أى هذا الغياب - إلا من رؤية دينية للدنيا وشئونها.

هناك بطبيعة الحال أطباء نفسيون فى العالم الإسلامى ومرضى فى حاجة إلى هؤلاء الأطباء[١٧]. لكن إيمان الناس ويقينهم الثابت بالقضاء والقدر، وثقتهم

(*) ففى الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه». [صحيح] الترمذى [٢٣٨٠].

(١٧) انظر بدرى (١٩٧٩).

بهداية الله وحسابه العادل فى الآخرة، واعتقادهم بالآخرة ووجود حياة يحياها الإنسان بعد الموت، يحفظ غالبية المسلمين من إحساس يبدو سمة لما يعرف بمرحلة ما بعد الحداثة بما يتضمنه من ضياع وجودى وفراغ كونى واغتراب مأساوى. كما يحميهم من الشعور بالاكتئاب بسبب التقدم فى العمر، كل هذه الأمراض التى طالما حولت الكثير من الأطباء النفسيين إلى أثرياء.

فيقين المسلم وإيمانه العميق المكلل بالتقوى يؤدى إلى تضاؤل أهمية أشياء كثيرة تبدو لغير المؤمنين ذات أهمية عظمى، بل إنها تفرغها من أهميتها نهائيا.

والأمر المهم جدا، أنك تسمع الأذان خمس مرات يوميا فى العالم الإسلامى مذكرًا إياك أن الله هو مانح الحياة والعاطى لكل شىء.

ومن الوظائف التى يفترض أن يؤديها الأذان، تنظيم حياة المسلم. ولكن يبدو أن هذا لا يتم إلا فى البلدان التى تُغلق فيها المحلات فى مواقيت الصلاة دون غيرها من البلدان التى لا تلتزم بهذا الأمر. تسهل الدولة برفعها للأذان على المسلم تذكر مواقيت الصلاة وأدائها، كذلك توفر له شراء اللحم الحلال وهو مغمض العينين من أى جزار؛ لأنه على ثقة بأن الذبيحة قد ذبحت حسب الشريعة الإسلامية[١٨]. هذا التيسير لا يلاقيه المرء فى العالم الغربى، حيث يقضى وقتا طويلا فى قراءة ما يكتب على أغلفة منتجات اللحوم ليتأكد من خلوها من لحم الخنزير.

ويتسم المسلمون بهدوء شديد فيما يختص بالوقت والزمن، حتى يُخيل إليك أنك تتحدث عن شعور مختلف بالزمن، شعور شرقى بالزمن إن جاز التعبير.

ومن المنطقى أن يتعذر وجود وقت أينما وحينما يساوى الوقت المال (Time is money). فحركة العالم تسرع خطاها فى العالم الغربى بسرعة حركة دوران المال. ويؤدى الإنترنت دورا أساسيا فى هذا الصدد؛ لأنه ينتج الاتصال فيما يسمى Real Time أى الاتصال فى نفس الوقت. ولذلك فمن المحتمل توافر الوقت حيث لا يتم مساواته بالمال. ومن النتائج الإيجابية للموقف الشرقى من الوقت هو انتفاء القلق

---

(١٨) إن اللحوم (ما عدا لحم الخنزير) حلال للمسلم لو تم ذبحها وفق الشريعة الإسلامية، أى تنحر باسم الله ويصفى دمها. يقول اليهود عن هذا النحر «Koscher» كوشير.

الدائم بأنك ستصل متأخرا عن موعدك، هذا الشعور الذى يلح باستمرار على الغربى.

فالمسلم لا يحول الوقت إلى طاغية يحكمه، ولا يحدد مواعيد يرزح تحت وطأة اللحاق بها؛ فهو مثلا لا يحدد موعداً كالساعة ١٦:٢٠، بل يقول فى الفترة ما بين صلاة العصر وصلاة الغرب. فالكل يعلم أن الأولوية للصلاة وأنها عذر مقبول لأى تأخير.

تضفى الصحوة والهدوء المذكوران سابقا وقارا، يزيد من هذا الوقار الخطوة التى يحكمها الجلباب أو الثوب[١٩] والقفطان.

إنَّ أول ما يخطر على بال صديقنا المسلم هذا عند ذكر الوقار المرأة المسلمة؛ لأنها اتباعا للقرآن[٢٠] والسنة ترتدى ملابس محتشمة تقيها شر الدخول فى منافسة للعرى مع المرأة الغربية، أو الدخول فى منافسة مع الرجل فى مجالات، Muscle Building، ولذلك فقد نجحت المسلمة فى العالم الإسلامى فى أن تحفظ نفسها ولا تقع فريسة للاستغلال كسلعة جنسية فى الدعاية أو فى مكان العمل.

لقد اتخذت حركة تحرير المرأة فى الغرب حماية المرأة والدفاع عن حقوقها هدفًا رئيسيًا لها، ولكن المرأة المسلمة تفوقت فيما حققته من نجاح على مثيلتها الغربية، وهذا ما يدفع النساء فى الغرب إلى اعتناق الإسلام، حتى إن عدد النساء اللاتى يعتنقن الإسلام فى الغرب يفوق عدد الرجال، رغم كل الدعاية المضادة.

---

(١٩) الجلباب المصرى أو الثوب العربى هو نوع من الملابس التى تصل إلى أقدام الرجال وذات أكمام طويلة، تكون فى الصيف عادة ذات ألوان فاتحة وفى الشتاء ذات ألوان داكنة.

(٢٠) الآية ٣١ من سورة النور ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، والآيتان ٥٣ و٥٩ من سورة الأحزاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ويتغاضى الغرب عن حقيقة دور المرأة وأهميتها فى البيت المسلم، حيث تقوم بالدور الرئيس، خاصة كأم، فهى تمارس سلطة هائلة على أبنائها، أكثر مما يبدو أو يتوقع أحد فى الغرب.

تختم الشخصية الغربية المتخيلة لصديقنا المسلم هذا، سرد الصفات التى تجذبه للحياة فى المجتمع الإسلامى والتى أخذ فى تبنيها بذكر حقيقة ثابتة، وهى شعوره بالارتياح لعيشه فى بيئة تقدر الله حق قدره، وتنزله المنزلة اللائقة بذاته سبحانه، وهذا يتم بطبيعة الحال (بلا شك) اليوم فى العالم الإسلامى أكثر منه فى الغرب.

حين يدير السائق محرك السيارة، فإنه يبادر بذكر الله قائلا: «بسم الله». ونفس هذا الفعل يأتيه كل من المحاضر وقائد الطائرة عند تحيته لضيوف رحلته، والأب عندما يهم بالأكل ويمسك بالملعقة فى يده. ولن نجد محاضرة لا يلقيها قائلها إلا ويستهلها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله والسلام لمستمعيه[٢١].

ويُعَدّ يوم مولد الرسول عيداً رسميا فى الدول الإسلامية، حتى إن رئيس الدولة المصرى يقيم استقبالاً رسميا بهذه المناسبة، ويقيم ملك المغرب حفل إنشاد دينى للمناسبة نفسها. أما الملك السعودى فيحمل لقب خادم الحرمين الشريفين.

قد يبدو كل هذا سلوكا مظهريًا قد يتحول إلى طقس بلا مضمون، ويقابل هذا «خصخصة» الإيمان فى الغرب، أى قصره على المجال الخاص للإنسان، هذا الإيمان الذى قد يخجل المرء أن يعلنه، خصوصا المتعلم أو المثقف.

ويشير صديقنا المسلم الغربى الذى تتملكه رغبة عارمة فى الهجرة إلى عالم إسلامى والحياة فيه، إلى أن الإسلام بالرغم من الاتجاهات ذات القوة المركزية الجاذبة للإله الواحد، فإنه يتمتع كذلك باتجاهات ذات قوة مركزية طاردة تذهب به إلى التعددية. فلم يلبس خليفة ما يومًا ثوب البابا المعصوم، ولَمْ يدَّعِ أحد فى الإسلام - بما فى ذلك محمد صلى الله عليه وسلم ذاته - الكمال أوأنه منزه عن الخطإ.

---

(٢١) عادة ما يبدأ المرء كلمته بـ«بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

يقبل فقهاء الإسلام بوجود سبعة مذاهب فقهية على التوازى، بالرغم من وجود تنافس موضوعى بينها وفى ظل اختلافات فى التفاصيل(٢٢).

كما أثرت التعددية علوما كعلوم الدين والفلسفة والتصوف، مما كان له أثره فى نشأة مدارس فلسفية كالمعتزلة والأشاعرة، وكذلك فى ظهور ملل ونحل(٢٣) كثيرة وطرق صوفية شديدة الاختلاف(٢٤).

أخيرا يقف كل مسلم أمام الله بغير وساطة أو تدخل لأى شخص مقدس أو أسرار دينية. وهكذا يصبح المسلمون ديمقراطيين أساسيين لا يخضعون لنفوذ أى رجل دين، ومدفوعين بتعاليم القرآن إلى إدارة كل شئون الجماعة عن طريق التشاور بين أولى الأمر والمحكومين بشكل ديمقراطى(٢٥).

وهنا تنتهى المرافعة الفنية للمسلم الغربى المتخيل، الراغب فى الهجرة إلى الشرق.

-٣-

نتوجه الآن بسؤالنا عن الإسلام والحياة فى العالم الإسلامى إلى الشخصية المتخيلة الثانية، شخصية الغربى المعتنق للإسلام ولكنه، على النقيض من زميله، يرصد سلبيات ونقائص عالم الشرق.

---

(٢٢) لقد تقاربت المذاهب السنية الأربعة حتى أصبح من المحتمل والمقبول أن تجتمع. وتُعدّ الزيدية أقرب المذاهب الشيعية إلى المذاهب السنية الأربعة، وهو ذلك المذهب الذى أسسه زيد بن على، وينتشر فى اليمن، يليها مذهب الإثنى عشرية، وهو أكثر مذاهب الشيعة عدداً، ويعيش أتباعه فى الشام والعراق وإيران ووسط آسيا. بعد ذلك هناك الشيعة الإسماعيلية، وأكثرهم فى وسط آسيا.

(٢٣) هناك غير المذاهب السنية والشيعية، الإباضية فى سلطنة عمان وشمال افريقيا، وهناك مذاهب أخرى مثيرة للخلاف والجدل، مثل البهائية والأحمدية والقاديانية.

(٢٤) تقدم Schimmel عرضا وافيا ودقيقا للطرق الصوفية الكثيرة على اختلافها. انظر كذلك Parrinder.

(٢٥) إننى أشير هنا إلى مبدإ الشورى الذى ذكرته آية ١٥٩ من سورة آل عمران، والآية ٣٨ من سورة الشورى، كأساس لحياة برلمانية إسلامية. والذى يسميه الشيخ محفوظ نحناح الجزائرى «شورى قرآنية».

(كما فعلنا قبل ذلك عند مشاهدتنا للعالم الغربي من منظوري الطالبين المسلمين).

نحن أمام شخص مثله كمثل محمد أسد الذي يحمد الله - وهو في الخامسة والثمانين من عمره - على أنه اعتنق الإسلام قبل أن يتعرف على العالم الإسلامي[٢٦]. لأنه بهذا الشكل لم يكن ليستطيع أن يتجنب رؤية الواقع الذي يلقي بظلاله على النظرية الإسلامية ذاتها والفكر الإسلامي، ولا أن يركز اهتمامه أساسا على النظرية الإسلامية ذاتها وليس تطبيقها من قبل البشر في الفترة الحالية من تاريخ الإنسانية والمسلمين. ويتفق صديقنا المسلم هذا مع الشيخ محمد الغزالي (المتوفى عام ١٩٩٦) في مقولته الشهيرة: إن بالغرب مسلمين قلائل والكثير من الإسلام، وإنه رأى العكس في كثير من أجزاء العالم الإسلامي، أي مسلمين كثيرين والقليل من الإسلام.

لا يجنح صديقنا إلى المبالغة فيدعي أن الإسلام هاجر من العالم الإسلامي سابقا إلى الغرب.

ولكن صديقنا هذا ينظر بسلبية شديدة إلى معظم ما رآه زميله إيجابيا في العالم الإسلامي، ويوجه نقده الشديد إلى غالبية العناصر التي مدحها زميله.

العالم الإسلامي جزء من العالم النامي (الدول النامية) الذي لا يتوافر فيه إلا أربعة أشياء فقط: الشمس والصحراء والأطفال والوقت. ولن تجد لهذا الوضع - الذي يحجبه فقط استيراد التكنولوجيا من الخارج - عذرا أو تسويغا تاريخيا أو جغرافيا.

يتسم مفهوم العائلة عند المسلمين بازدواجية شديدة، حتى إنك تستطيع أن تراه عاملاً أساسيا للفساد الذي يسري في العالم الإسلامي حتى النخاع. ففي العالم الإسلامي تُقسم المناصب المهمة في الإدارة والشئون الاقتصادية وحتى الثقافية - كمجالي المسرح والأدب - بناء على علاقات القرابة والمحسوبية، ومن ثم يحتل كثيرا من المناصب المهمة والحساسة أناس غير مؤهلين تنقصهم الكفاءة، وبذلك تحرم هذه

---

(٢٦) كذلك قال لي أسد البالغ من العمر آنذاك ٨٥ عاما في لشبونة عام ١٩٨٥. لقد تمادى أسد (١٩٨٨) أكثر، فقال إنه لم يكن ليصبح مسلما أبدا ما لم تكن قدرات فهمه متأثرة بالمدارس الأوروبية.

الدول من كفاءات تساهم فى تنميتها . بل إن هذا الأمر يعوق عوامل وأسباب نموها . يرى العامة من مسلمى الشرق أنفسهم ملتزمين أخلاقيا بحماية علاقات القرابة ، حتى إنه لا ينتابه أى شعور بالذنب تجاه من يظلمهم لحساب قرابته . لم يكن أحد ليجرؤ على أن يأتى مثل هذا السلوك فى الغرب وإلا وجد نفسه مهددا بدخول السجن إن لم يدخله فعلا .

أما بالنسبة للدفء الذى تتسم به العلاقات الإنسانية بين أفراد الأمة ، فهو حقيقة ولكنها حقيقة منقوصة وغير كاملة . فلا يمكن ، بناء على ما يحدث على أرض الواقع ، أن ندعى أن العمالة الأجنبية التى يبلغ تعدادها الملايين فى شبه الجزيرة العربية تعامل معاملة الأخوة فى الإسلام ، ويعضد هذا الرأى (الذى ينكر معاملتهم معاملة الأخوة) ، حرمانهم من حقهم فى اصطحاب عائلاتهم ، وحق الإقامة الدائم ، وعدم صرف معاشاتهم المستحقة بعد انقضاء مدة الخدمة . فهل يجوز ترحيل الباحثين عن العمل من فقراء المسلمين (من الپاكستانيين والمصريين والفلسطينيين والمغاربة) - حتى وإن دخلوا البلاد بطرق غير شرعية - دون إجراءات قانونية ، وفى ظل ظروف غير إنسانية؟!

أما بالنسبة للدول الفقيرة التى يبحث مواطنوها عن فرص عمل فى دول الخليج الغنية ، فستقع عيناك فيها على مظاهر رفاهية لن تجد لها مثيلا فى دول غنية كثيرة . فعلى سبيل المثال ، فى المغرب ، ترى بعض نساء المغرب وقد ارتدين الملابس الفاخرة والمجوهرات الثمينة التى لا تجد لها مثيلا بين سيدات السلك الديپلوماسى فى الغرب - وغيرهن - لدول أكثر غنى . لكن ربما كان هذا هو سبب غنى بلادهم .

قد يبدو هذا القول لاذعا وشديد السخرية ، ولكنه قريب جدا من الواقع . إن ملاحظة حياة من كانوا بدواً سابقا فى دول الخليج تعطيك الانطباع بأن أثمن ما فى حياتهم وأغلاه ، ليس الإنسان رجلا كان أو امرأة ، وإنما هو الحيوانات الأصيلة كالخيول وصقور الصيد والنوق الهجن . فالاهتمام بصقور الصيد مثلا ، الذى يصل إلى حد استقدام أخصائيين نفسيين لهذه الصقور التى يبلغ ثمن الواحد منها مئات الآلاف من الدولارات ، لا يثير استغراب مسلمى الغرب وحدهم .

أما محك الاختبار الحقيقى لشعور الإخاء الذى طالما تغنى به المسلمون، فهو القضاء على الفجوة الرهيبة بين فقراء الأمة وأغنيائها.

لا يمكننا بأى حال من الأحوال أن ننكر أن هناك الكثيرين من حكام بلاد البترول وغيرهم من أغنياء المسلمين يبذلون الكثير من الأموال - بشكل فردى وشخصى - لشئون الإسلام كبناء المساجد والمراكز الأكاديمية - كالمركز الأكاديمى للملك فهد بمدينة بون - على سبيل المثال، كما أن للشيخ زايد باعا طويلا ومحاولات مستمرة للتأكد من استحقاق من يطلب المساعدة، وأدائها إليه. وأود أن أؤكد أن توزيع المال والصدقة على مستحقيها أبعد ما يكون عن الأمر اليسير. وعلينا أن نأخذ كذلك فى الحسبان أن المطالب الأساسية للمعيشة كالماء والكهرباء يحصل عليها المواطن بلا مقابل، أى بالمجان.

ولكن بالتوازى مع كل هذا، يفاجأ المسلم الغربى بمظاهر ثراء ورفاهية يعجز عقله عن استيعابها، فلا تتماشى هذه المظاهر مع الأخوة المرجوة، مع التأكيد على أن الفائدة لن تعم على أحد إذا ما طالبنا المليونيرات بسكب أموالهم كسكبهم القهوة ليقسموها بين الناس. لكن مع الاحترام الشديد لرغبة المسلم فى بذل الأموال لوجه الله، فإننى أرى - لضمان الثواب فى الآخرة [٢٧] - ألا ينفقوا أموالهم فى بناء المزيد من الجوامع، بل فى إقامة دور الحضانة والمدارس الإسلامية وتكوين جمعيات تهدف إلى مساعدة المسلمين مثل Muslim Aid (المعونة الإسلامية).

وبما أننا تطرقنا إلى حديث المال، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل حقيقة أن الدول الإسلامية تودع أموالها بالغرب وغيره فى ظل نظام يتعامل مع الفائدة البنكية بالرغم من نهى القرآن عن هذا التعامل، وبغير تقديم حلول منقذة للاستثمارات الخارجية[٢٨]. لقد حدد الإسلام طريقة الربح الحلال لرأس المال، وفيها يحتمل الربح والخسارة معا. ولهذه الأسس فوائدها الاقتصادية وليست الأخلاقية فحسب؛ لأنها تشحذ من مخيلة صاحب العمل واستعداده للمغامرة، وهى إحدى

---

(٢٧) أن يكون هذا هو ثواب بناء المساجد بشرط صحة النية والمال الحلال، لا يعنى أن أعمال الخير الأخرى والصدقات لن تثاب بمثل هذا الثواب.

(٢٨) الآيتان ٢٧٥، ٢٧٦ من سورة البقرة، والآية ١٣٠ من سورة آل عمران، والآية ٣٩ من سورة الروم.

الدعامات الأساسية للبناء الرأسمالى (لكن المجازفة وحدها لا توفر الشرعية الإسلامية للتعامل الرأسمالى).

إن محاولة التعايش بمعزل عن الفائدة فى مجتمع مالى واقتصادى يعتمد فى أسس بنائه على الفائدة - ليس كصفة فحسب، بل لأداء وظائف بعينها - تُعَدّ ضربا من ضروب المستحيل. ولكن المحزن فى الأمر كله أننا فى عامنا ١٤٢٠ للهجرة، أى بعد مئات السنين من إقامة نظم حكم إسلامية مازال ينقصنا نظام إسلامى اقتصادى حتى فى بلدان كماليزيا وپاكستان(٢٩).

لا نستطيع أن ننفى عن الإسلام نزعته للمساواة ولإقرارها بين البشر على المستويات كافة، وذلك منذ بواكير التاريخ الإسلامى، حتى إننا نلحظ على مر العصور محاولات عدة لإقرار هذه المساواة اجتماعيا وسياسيا من خلال الخوارج فى القرن السابع مثلا والقرامطة فى القرن التاسع(٣٠).

ولكن هذا لم يمنع وجود آلاف من الأمراء فى شبه الجزيرة العربية يطالبون لأنفسهم بمميزات دون غيرهم من البشر، وذلك بصورة علنية كما خبرتها فى إحدى رحلات طيران الخطوط السعودية.

كما أن العالم العربى يزخر بمن يطالبون لأنفسهم بحقوق تفوق حقوق غيرهم، استنادا إلى ثروة أو جاه أو عائلة أو نسب أو محسوبية. ويتبع هذا ضرورة أن نعترف بعدم وجود دولة إسلامية تستطيع أن تدعى أن مواطنيها يشاركون فى عملية الحكم حتى فى ظل وجود انتخابات ومجالس نيابية. لكن على النقيض، إذا ما تناقشت مع مسلم متشدد عن الديمقراطية، بادرك بالقول إنه لا يمكن الجمع بين الإسلام ونظام الحكم هذا (ونظرا لأهمية هذا الموضوع سنفرد له فصلا خاصا به).

أما الاحترام الجدير بالإعجاب، والذى يحكم حياة المسلمين، فله محاذيره،

---

(٢٩) انظر خورشيد أحمد (ناشر) ١٩٩٤ يعرض باستفاضة لمشكلة الربا.

(٣٠) لقد كان هدف الخوارج - الذين قتلوا الإمام على بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين - أن يسود مبدأ: «أن يتولى أتقى المسلمين رئاستهم» ولو كان هذا عن طريق السلاح.

لقد ثار القرامطة ضد وجود طبقة متميزة، حتى إنهم سرقوا الحجر الأسود لإثارة الانتباه إلى مطالبهم.

حيث يمكن أن يؤدى إلى اعتقاد مطلق فى السلطة، وعدم التعرض بالمساءلة أو النقد. وهذا من شأنه أن يؤدى، ليس فقط إلى عدم أهلية المجتمع للممارسة السياسية الحرة والحوار السلمى كوسيلة تغيير، بل أيضا إلى عجز المجتمع عن تحقيق إنجازات علمية جديدة، لأن نقد الذات (أى افتراض الشك فيما هو قائم) هو السبيل للتقدم العلمى.

ولقد تعرضت الحضارة الإسلامية لهذا الخطر، بل دب الضعف فى أوصالها فى القرنين ١٤ و١٥ الميلاديين، حين تضاءل احترام العلوم، بل اختفى تماما الاهتمام بكل ما هو جديد، وتحول احترام الإنجازات العلمية للسابقين إلى مجرد تقليد، وأغلقت الأمة باب التجديد، حتى صارت ممارسة العلوم محصورة فى كتابة المتون والحواشى والفهارس لأعمال السابقين.

لقد أخطأ علماء هذه الحقبة حين اعتقدوا أن الأولين بحثوا فى كل نواحى العلوم الإسلامية، حتى لم يعد أمامهم مجالات بحث، وأن الأولين كانوا بحكم قربهم من المصادر الأولية للإسلام أكثر قدرة على البحث.

وهذا الاتجاه - الذى لم يعلنه خليفة أو مدرسة علمية أو مجلس فقهى - استطاع أن يفرض نفسه كمناخ فكرى سيطر على أنحاء العالم الإسلامى كافة، وكان هذا المناخ كفيلا بأن يقترب الإسلام وعلومه فى حالته البائسة هذه من الوضع الذى أوجدته الكنيسة المسيحية من حظر على حرية التفكير، وإرساء للفكر المتحجر.

وقد أدى هذا الانحطاط الفكرى إلى الانهيار الاقتصادى والعسكرى وسقوطه ما بين القرنين ١٧، ١٩.

يعتقد غالبية المسلمين أن تخلفهم المادى اليوم ما هو إلا نتيجة للاستعمار الأوروبى الذى تعرضت له بلادهم إبان فترة الإمبريالية الغربية، ولكننى أرى العكس: فلقد تعرض العالم الإسلامى للاستعمار بسبب حالة الانحطاط[٣١] التى كان قد وصل إليها من جراء اتجاه التقليد الذى استشرى فى العلوم والفكر.

ويقرر علم النفس أن تحميل الآخرين مسئولية فشل المرء يُعَدّ من الآليات التى من

(٣١) أسد (١٩٨٨).

شأنها إراحة النفس. لكن هذه الآلية قد تحولت فى العالم الإسلامى إلى حالة جنون مبالغ فيها، فكل الكوارث يتم إرجاعها إلى نوع من تآمر الغرب على العالم الإسلامى.

والتفسير التآمرى هذا دائما ما يحمل المخابرات الأمريكية، والموساد والمنظمات الصهيونية وعملاءهم، وكذلك الناتو، المسئولية الرئيسة لكل ما يحيق بالأمة الإسلامية من مصائب.

فالبعض يعتقد حقيقة بوجود خطة رئيسة محكمة master plan لتدمير الإسلام والعمل على فناء العالم الإسلامى.

ومما أعطى مصداقية لكل ادعاءات التآمر هذه: فشل حلف شمالى الأطلنطى فى وقف النزاع المسلح فى البوسنة فى سنواته الثلاثة الأول، وإخلاص الولايات المتحدة فى مساندتها المستمرة والدائمة لإسرائيل، وبروز يهود كمساعدين رئيسين للرئيس كلينتون، وموظفين يحتلون مناصب مهمة فى إدارته[٣٢].

هذا مع أن أيسر وأقرب التفسيرات هو أن الدول تمارس سياسة تخدم مصالحها الخاصة، وأن اختراعات شخص مثل بيل جيتس تغمر العالم على الرغم من الجميع، لأن التكنولوجيا فائقة التطور، كالماء تصب من أعلى إلى أسفل وليس العكس.

وتُعَدّ الحالة النفسية التى سبقت الإشارة إليها ذات ضرر بالغ للمسلمين، حيث تمنعهم من التفكير فى نقاط ضعفهم وتشخيص أسباب فشلهم الحقيقية وتحديدها، وبالتالى تشل قدرتهم على المبادرة بإيجاد حلول للخروج من أزمتهم.

هناك ظاهرة أخرى مرتبطة بالاتجاه إلى التقليد ولا تقل عنه ضررا، وهى الخوف من كل جديد وعدم السماح به. ويظهر هذا أوضح ما يظهر فى مناهج وأساليب التعليم فى العالم الإسلامى، حيث يسود فى المدارس - خاصة فى المرحلة الأساسية - أسلوب التلقين والحفظ والتسميع، بدلا من التساؤل عن أصول الأشياء وإعمال العقل، حتى صرنا نتحدث عن أمية المتعلمين.

---

(٣٢) مثل وزير الدفاع ووزيرة الخارجية ومستشار الأمن القومى وغيرهم، ولكن لا يمكن تسويغ المؤامرة الصهيونية على كلينتون لمجرد أن مونيكا لوينسكى يهودية.

ويميل علماء مسلمون - حتى الآن - إلى إثبات رأيهم عن طريق الاستشهاد بآراء من لهم مكانة وسلطة، بدلا من الإتيان ببراهين وحجج توصلوا هم إليها، فيأتى حديثهم غالبا على النحو الآتى: قال فلان: «.....» وقال فلان: «......»[٣٣].

أما السبب الرئيسى لهذه الظاهرة، فهو تضييق مفهوم التجديد وتوسيع مفهوم البدعة فى الإسلام، رغم أنه يحتمل المعنيين الإيجابى والسلبى، فقصره البعض على معناه الثانى وهو السلبى؛ فكل تجديد فى الفكر الإسلامى والممارسات والسلوك يُعَدّ بدعة (بالمعنى السلبى للتجديد) غير مسموح بها[٣٤]. وهكذا انتشرت عقدة «البدعة» التى مكنت البعض من استخدام تهمة «البدعة» كسلاح يشهرونه فى وجه كل من يعارضهم، ويستخدمونه حسب أغراضهم ومصالحهم، ولهذه التهمة عواقبها الوخيمة التى أوذى بسببها من المتصوفة الحلاج والسهروردى[٣٥] حتى الموت، وهذان الاسمان يذكران على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

ولقد أدى الخوف من التجديد، ووصم كل ما هو جديد بـ«البدعة» إلى ركود فكرى، وتقوقع على الذات، والانفصال عن التطور التكنولوجى الغربى. ولقد أدى هذا على سبيل المثال إلى أن يطبع القرآن الكريم لأول مرة فى هامبورج عام ١٦٤٩[٣٦]، وألا يكون المسلمون هم أصحاب الفضل فى هذا الإنجاز.

كان العلماء قبل ذلك عام ١٥٨٠ فى إستنبول، قد أمروا بتدمير المرصد الذى تم إنشاؤه فى العام الذى سبقه بصفته بدعة، ولقد توقفت أولى المطابع العثمانية عام ١٧٤٥ بضغط من هؤلاء العلماء.

---

(٣٣) إننى أسمى هذا الأسلوب غير العلمى جلا جلا.

(٣٤) لقد طالب الرسول المؤمنين بالتمسك بسنته كما ورد فى كثير من الأحاديث. وأسوأ ما يمكن أن يصيب الإسلام هو البدعة. انظر النووى الجزء الأول الحديث ١٧٠. أما ثواب التحديث والإضافة الإيجابية فتجدها عند مسلم حديث رقم ٦٤٦٦.

(٣٥) الحلاج، انظر Poèmes mystiques - Sindbad Paris 1985.

(٣٦) انظر إمام ص ٧٣ فهو يرى أن القرآن قد تم طبعه عام ١٥٣٠ فى ڤينسيا ولكن تم تدمير هذه الطبعة، ولكن هذا لا يمكن إثباته لعدم وجود نسخة، ولكننى رأيت فى بيت القرآن فى المنامة نسخة بحالة جيدة من طبعة هامبورج.

ويعانى العالم الإسلامى إلى يومنا هذا ـ من وجود رقابة شديدة، نستطيع أن نلحظها حتى فى نصوص خطبة الجمعة التى يلقيها موظفو وزارة الأوقاف التابعة للحكومة. فبعض الأئمة يقرءون الخطبة من ورقة مكتوبة مسبقا؛ ليثبتوا للمسئولين خضوعهم للرقابة.

كما أن العالم الإسلامى يعانى إلى الآن من تفضيل العلوم الإنسانية والأدبية على العلوم الطبيعية، وكأن الله لم يتجل فى كتابه وفى الطبيعة على حد سواء.

فمن ذا الذى إذن يتعجب من أن ينال أفراد من العالم الإسلامى جائزة نوبل فى الآداب، ولا ينالها أحد منه فى العلوم الطبيعية؟ أما بالنسبة للعلوم الحديثة، كعلوم الجينات والميكروفيزياء والكيمياء الحيوية وعلوم الوراثة وعلوم الفضاء، فحدث ولا حرج.

هذا مع أن النجاح الباهر الذى يحققه علماء ينتمون إلى دول إسلامية، مثل مصر، والهند، وباكستان، وفلسطين وسوريا فى مجالات الحاسب الآلى والطب فى أمريكا، يدل بما لا يدع مجالا للشك على أن الأمر ليس أمر الموهبة ولكنه أمر المناخ العلمى الملائم وحرية البحث والتفكير. فوادى السيليكون فى سانتا كلارا وما حولها وكذلك بالوالتو فى وسط كاليفورنيا ما هما إلا منطقتان إسلاميتان.

يحث الإسلام المؤمنين على الصبر، فالله مع الصابرين[٣٧]. ولكن هذا لا يسوِّغ ما يمارسه بعض الموظفين المسلمين فى أماكن عملهم. فهم يجعلون من له طلب عندهم ينتظر حتى يفرغ من إفطاره أو حتى يفرغ من حديثه التليفونى الخاص المطول.

وإن كان البعد عن الملذات فضيلة يحث عليها الإسلام، إلا أنك لا تجده منتشرا بالشكل المفترض فى العالم الإسلامى.

فإذا كان محرما على المسلمين تقديم الخمور، فإننى لا أعلم أى شركة طيران تمتنع عن تقديم هذه الخمور، ما عدا شركة الطيران السعودية. وهل من الممكن أن نقضى

---

(٣٧) كما جاء فى الآية [١٥٣] من سورة البقرة: «إن الله مع الصابرين» وكذا فى غيرها من الآيات الأخرى التى تحث المسلم على الصبر، وما ينتظره من خير الجزاء والثواب لحسن صبره.

على الخمور والمخدرات إذا كنا نسمح (كما هو الحال فى دبى) بأن يسكن دار الإسلام بدبى غير المسلمين بنسبة تبلغ حوالى ٩٢٪، وهؤلاء من غير المسلمين لهم الحق فى تناول الخمور وفق الشريعة الإسلامية؟ ولن نندهش إذا علمنا أنه فى ظل هذه الظروف، كانت دبى تموج بالساقطات الروسيات حتى وقت قريب.

أما بالنسبة للبحرين، فالكل يعلم أن السعوديين يعبرون جسر الظهران الذى يربطهم بالمنامة ليتمتعوا هناك بكل المحرمات، من خمر إلى دعارة.

ولقد أثبتت الإحصاءات أن أعداد من يتناولون الخمور فى تركيا - بتاريخها الطويل المرتبط بالإسلام - يفوق عددهم فى ألمانيا. وستندهش إذا علمت أن الخمور قد سمح بتداولها فى ظل الحكام العثمانيين. فالعالم الإسلامى الخالى - تماما - من الخمور والمخدرات غير موجود على أرض الواقع.

ويمكنك كذلك أن ترى الإحساس الإسلامى بالوقت من منظور مزدوج. فمن الممكن أن يكون تسويغا فقط لعدم الدقة فى المواعيد الذى يُتهم به المسلمون، وهو تعبير عن عدم الاهتمام بالآخرين واحترامهم، كما أنه تبديد للوقت.

ومن الجائز أن تضفى الملابس المحتشمة الوقار على المرأة المسلمة، ومن المؤكد أن المرأة المسلمة تؤدى دورا رئيسا فى الأسرة، ولكن هذا لا يعنى أنها تضطلع بالدور المنوط بها فى القرآن والسنة، ولا أنها تتمتع بكل الحقوق التى يمنحها إياها الإسلام. فعلى المرأة فى العالم الإسلامى أن تعمل على تحرير نفسها من منطلق إسلامى. فهذا العالم ظل إلى الآن عالما للرجال. (وهذا موضوع يعنى به فصل منفرد).

أما التعددية التى يتسم بها الإسلام على المستويات كافة، فهى الأخرى قابلة لأكثر من تفسير. فهذه التعددية ثراء وعلى الجانب الآخر ضعف. فالدول الإسلامية تعانى من فرقة شديدة، حتى إنها عرفت بها، فغدت إحدى العلامات المميزة لها. هذا بالرغم من نشأة الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ وقيام منظمة المؤتمر الإسلامى عام ١٩٦٩ بما تضمه من ٥٦ دولة.

وهذا الاختلاف والتشرذم أصبح علامة مسجلة للمسلمين، حتى فى أوروبا والولايات المتحدة، فأصبحت مهمة أعداء الإسلام يسيرة جداً.

أما ما يدعو إلى القلق حقيقة، فهو غياب التعددية فى الآراء والمذاهب، والتسامح مع الرأى المخالف، هذه التعددية الفكرية التى عرفت عن الفلاسفة المسلمين[٣٨] فى الأزمنة السابقة.

فالمشهد الإسلامى تحكمه اليوم أقلية من المنظمات الإسلامية السياسية، والتى تتناحر بعضها مع بعض؛ لأن كلا منها يعتقد أنها وحدها تسير على درب الهدى دون غيرها.

هذه النظرة الضيقة يمكن تسويغها بأن هذه الحركات غالبًا ما تجد نفسها فى صراع مع نظم الحكم القائمة التى تخشى على وجودها. وعلى الشخص الذى يجازف بحياته ويكون على استعداد لتحمل العذاب أو الموت فى سبيل الإسلام، أن يحدد أولاً ويعرف أى إسلام هذا الذى يضحى من أجل إعلاء شأنه. وعلى أى حال لا يشترط أن يكون المرء بالضرورة سلفيا إذا ما عاد إلى الأسس الرئيسية للإسلام.

وهناك تفسير آخر للنظرة الضيقة التى تمارس بها الجماعات الإسلامية نشاطها، هو أن قادة هذه الجماعات أكاديميون ولكن ليسوا علماء دين أو فلسفة، بل معظمهم من خريجى كليات العلوم الطبيعية الأمر الذى يستلفت جيل كيپيل Gilles Kepel النظر إليه.

ولقد رصدت ظاهرة أخرى شديدة الالتصاق بما سبق ذكره، وهو انبهار بعض الشباب المسلم بشئون هامشية جدًا غير ذات أهمية. فاهتمام الشباب ينصب على البحث فى أسئلة مثل: هل يفسد طلاء الأظافر الوضوء أم لا؟ هل يُعَدّ الشعر المستعار غطاء مناسبا للرأس أم لا؟ هل يجوز شرعًا تركيب أسنان ذهبية؟ هل يجوز استخدام مواد التجميل التى تحتوى على مواد كحولية؟ هل يجوز استخدام الشوكة والسكين فى تناول الطعام؟ هل الحلوى التى تدخل فى صناعتها عظام الخنزير محرمة أم لا؟ هل يجوز شرعًا أن يكون المرء أشول أم لا؟ هل يجوز إهداء قرآن لغير مسلم؟ هل يجوز مصافحة الجنس الآخر باليد المجردة أم لا؟

---

(٣٨) يمثل كتاب أبى حامد الغزالى «تهافت الفلاسفة» وكتاب ابن رشد «تهافت التهافت»، وهو رد على الأول، قمة النقاش الفلسفى بين الفلاسفة المسلمين فى القرن ١٢.

هذه أسئلة حقيقية يبعث بها القراء فى العالم العربى الإسلامى إلى علماء الدين للإجابة عنها، ويبذل هؤلاء العلماء جهداً ملحوظاً للإجابة عنها فعلا[٣٩].

إننى أحيى بطبيعة الحال اهتمام هؤلاء الناس وحرصهم على إتيان السلوك القويم والتأكد من صحة تصرفاتهم، ولكنى لا أستطيع أن أتجاهل المخاطر التى تهدد الإسلام من جراء هذه التفصيلات، فإننى أرى خطراً يلوح أمام عينى، وهو أن يتحول الإسلام إلى تعاليم تلمودية كما هو الحال فى التعاليم المتشددة للدين اليهودى.

ذلك لأن الإسلام فى جوهره ـ على النقيض من ذلك ـ يهدف إلى تسهيل حياة البشر والتخفيف عنهم وليس تعقيدها والإثقال على المسلمين[٤٠]. ولذلك نهى القرآن [سورة المائدة الآية ١٠١] والرسول عن طرح أسئلة غير ضرورية. حتى لا يثقل المرء على نفسه ويمنع نفسه من التمتع بما يسهل له الحياة[٤١].

ـ ٤ ـ

بعد سماع الرأيين المتعارضين، تنتابنا نفس الحيرة التى انتابتنا من قبل عندما استعرضنا رأى الطالبين المسلمين فى الغرب. ونقول نفس قولنا السابق: لا نستطيع أن نلوم واحداً منهما، أو أن نفضل رأيا على الرأى الآخر بشكل قاطع. فكل منهما له أسباب موضوعية لحكمه، ولكنه يستعرض دائماً مسائل قابلة لأكثر من تفسير، ثم يحكم على هذه المسائل من وجهة نظر معينة. فالعالم الإسلامى كذلك له وجهان.

---

(٣٩) هذه الأسئلة مصدرها الخطاب الدورى الذى تصدره لجنة المسلمين الألمان (محررها عبدالله بوريك). إن السنَّة تحذر من ضيق الأفق فى التفكير ومن المخاطر المترتبة على ذلك والمتمثلة فى الاضطهاد الفكرى. ففى صحيح مسلم (٧/ ٢٦٧٠) قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً.

(٤٠) الآية ١٨٥ سورة البقرة: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ وكذلك الآية ٢٨٦ سورة البقرة ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾.

(٤١) فى الآية ١٠١ من سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾.

إننى أوصى بعد هذا التبادل - المتخيل طبعا - للملاحظات ألا ننحاز إلى العالم الإسلامى أو أن نرفضه تمامًا ؛ لأننا فى آخر الأمر استطعنا أن نبلور عدة عناصر تثبت النظرية القديمة القائلة : إن النور ينبعث من الشرق . وسنصل إلى نفس النتيجة إذا ما قارنا الشرق بعالم الكيف ، والغرب بعالم الكم . هذه المقارنة التى قد يبدو فيها الكثير من السطحية ، إلا أنها تخفى وراءها الكثير من الحقيقة . فالعلاقات الإنسانية - حتى علاقات الحب - فى الغرب تحكمها قوانين السوق . فالكل سواء فى الدولة أو فى المجال الاقتصادى والثقافى والرياضى ، حتى فى العائلة والعلاقات الحميمة بين البشر ، الكل يبغى تحقيق أقصى درجات الربح الممكنة فى علاقاته ، وتحسين الإنتاج عن طريق الرفع من مستوى الفاعلية والكفاءة .

فكل ما لا نستطيع ترجمته إلى أرقام لا قيمة له فى الغرب ، بل يتحول إلى شىء مبهم ، غريب غير منطقى ، بل إلى رفاهية .

وفى ظل هذا ، يظل الشرق وبخاصة العالم الإسلامى (مأوى) وملاذا للروحانيات ، لمعرفة الله ولمعايشة المقدسات .

ويؤدى ذلك إلى إضفاء قيمة على أشياء ليس لها قيمة مادية فى حقيقة الأمر كالوقت ، والهدوء والسكينة ، أن تستغرق فى التأمل ، أن تجلس فى ظل شجرة ، أن تستطيع أن تتناول كوبا من الشاى أو فنجانا من القهوة دون استعجال وفى وقته المناسب (مثل قهوة الصباح أو المساء) ، أن تستمتع بقصيدة ما ، أن تستغرق فى حديث عن الله أو مع الله . وإذا كان الأمر هكذا - وأنا على يقين من هذا - فليس الغرب هو من يستطيع وحده أن يقدم للشرق شيئًا ، بل يمكن للشرق كذلك أن يقدم الكثير للغرب ، ولكن هناك المعوقات لتحقيق هذا الأمر ، وهذا ما سوف نتناوله فى الفصل القادم .

* * *

سنوات طويلة من الغضب

شعار(١) «الإمبريالية هى النتيجة الضرورية والمنطقية للعولمة».

(صموئيل هنتنجتون: الغرب: متفرد وليس عالميًا ـ
Foreign Affairs, 45/ Nr. 6. P.41)

شعار(٢): «هناك مؤشرات تدل على أن الإسلام سيشكل فى غضون السنوات القادمة خطرًا عظيمًا».

(رئيس جمعية حماية الدستور Peter Frisch بمجلة Der Spiegel
36/1997 p. 58.)

ـ ١ ـ

بعد أن كونا صورة محيرة ومضطربة عن الغرب والشرق، علينا أن نتجه بأنظارنا إلى المستقبل لنجيب عن التساؤلات الآتية: ما التغيرات التى يجب أن تتم فى كلا الجانبين؟ ماالذى يمكن أن يعلمه أحدهما للآخر؟ وكيف يمكن لكل من الغرب والشرق أن يستفيد من الآخر؟

لكن هذه النظرة الإيجابية إلى المستقبل يحجبها ماض سيئ يمتد إلى سنوات طويلة من العلاقات بين الشرق والغرب، فمازالت الذاكرة الجمعية للشرق والغرب تحمل ذكريات لسنوات طويلة من الصراع والأحداث السيئة. وكل هذا يعرقل طريقا يستهدف التوجه إلى مستقبل مشرق، يتسم بالتعاون والعلاقات الودية بين الشرق والغرب. ولن يحدث هذا إلا بعد إزاحة أنقاض علاقات الماضى ـ خصوصا العاطفية منها ـ عن الطريق، ولابد أن يتم هذا عن طريق دراسة تخلو من المحرمات كافة، أى دراسة تتطرق إلى جميع العناصر التى حكمت ـ ولا تزال تحكم ـ العلاقة بين الشرق والغرب، حتى يمهد الطريق ليصيرا شريكين فى صنع المستقبل.

سيحاول هذا الفصل أن يغوص فى تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب ومواجهاتهما.

-٢-

من الجائز أن يؤَمِّن تعدد الآلهة السلام والاستقرار فى هذا العالم أكثر مما يعززها الإيمان بإله واحد؛ لأنه فى ظل تعدد الآلهة تستطيع كل قبيلة أو جماعة أو قومية أن تعكف على آلهتها، بينما يتضمن الإيمان بإله واحد منحى العالمية، أى أن يعم هذا الإيمان العالم كله، وبذلك يشكل خطورةً بأن يكون ذا طبيعة توسعية أو عدوانية.

إن المسيحية والإسلام دينا توحيد، ويحيطان البحر المتوسط كديانتين عالميتين، وهما بحكم طبيعتيهما هاتين يشكلان خطراً على بعضهما البعض، فكل منهما يريد أن يتوسع على حساب الآخر.

ولقد عبر چيڤارا عن هذه الفكرة عندما تحدث عن الشيوعية، وهى بطبيعتها فكر عالمى يستهدف الانتشار فى العالم كله، وألا يكون مقصوراً على جماعة دون غيرها، فيقول شى چيڤارا: «لا نستطيع أن نَعدَ بألا نصدر نموذجنا إلى العالم؛ لأن نموذجنا هذا أخلاقى، والنماذج الأخلاقية لا تَعرف الحدود»[١].

ولقد عبر حسن الترابى عن نفس الفكرة فى حديثه عن الإسلام: «نحن نشكل - بهذا المعنى - خطراً إذا ما انتقل نموذجنا هذا وانتشر»[٢].

أما الكنيسة المسيحية، فقد عبرت عن هذه الفكرة منذ زمن بعيد فى منطوق (تصريح) البابا Cyperian أنه «لا خلاص خارج الكنيسة» ولقد دفعت أعداد لا حصر لها من العبيد والهنود والجرمان حياتهم ثمنًا لهذا المنهج، كما ساعد هذا المنهج محاكم التفتيش الكاثوليكية على العمل مرتاحة الضمير. وإذا كانت دعوات التبشير الموجهة للمسلمين فى شمالى إفريقيا، واجبًا دينيا وعملاً صالحًا، من قبل

---

(١) نقلاً عن Intervention & Revolution, Richard Barnet - New York 1972, ص ٦

(٢) الترابى (١٩٩٢) ص ٧٢.

القائمين على العمل بالكنيسة من الإخوة والأخوات البيض فى شمالى إفريقيا، فإن المسلمين يَعُدُّونها عملاً عدوانيًا، يتسم بالكثير من الصلف والتكبر. كذلك يعرف الإسلام منظمات للدعوة إلى الإسلام، وينظر إلى دعوته هذه على أنها عالمية لا يحدها زمان ولا مكان. فالإسلام، فى النهاية، كمعناه الحرفى، أن تسلم نفسك لله. والإسلام كذلك دعوة توحيد تصلح لجمع الإنسانية حولها.

ولذلك، فالمسلم هو كل إنسان يؤمن بالإله الواحد الأحد ويخضع له ويسلم به، سواء كان هذا الإنسان يدعو نفسه يهوديًا أو مسيحيًا أو مسلمًا. ولذلك فالقرآن يتحدث عن إبراهيم كمسلم فى معناه الحقيقى الأوسع. ويُعَدُّ الإسلام تاريخيًا أحدث وآخر الديانات السماوية الموحدة التى أنزلت للبشر، ولكن عقائديًا وفكريًا فالإسلام أقدم هذه الديانات. فالقرآن يقول: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية ٦٧ سورة آل عمران.

عندما تحدث القرآن عن الإسلام فى بعض آياته التى أنزلت فى أوائل سنوات الوحى، كان المسلمون الأوائل يفسرون الكلمة حرفيا، أى أن يسلم المرء نفسه لله (لم يفسروه بصفته هذا الدين الذى تطور على مر التاريخ، سأتناول هذا الرأى عن قرب فى الفصل الأخير من الكتاب).

وإذا ما تناولنا الإسلام بعيداً عن معناه الحقيقى ودون ترجمة معناه المبدئى والأصلى، فإننا نجازف بإقحام فكرة مخيفة عليه ألا وهى (لا نجاة للإنسان خارج شرائع الإسلام) وبذلك نهيئ المسلم لمواجهة دينية وعسكرية. لقد عَدَّ المسلمون منذ البدايات رسالتهم مهمة عالمية. ويتضح هذا فى عام ٦٢٨، أى قبل فتح مكة، وذلك عندما بعث محمد برسائله إلى حكام الممالك التى تحيط به، مثل قيصر بيزنطة هيراقليوس، والشاه الساسانى فى فارس، والمقوقس بطريرك الكنيسة القبطية بالإسكندرية (هذا الكتاب الذى كتب على جلد، محفوظ حتى الآن بأحد متاحف إستنبول). ولقد فسرت دعوة محمد بقبول الإسلام كطريق هداية بوصفها تطاولا واستفزازا لا يغتفر (لم يتغير الكثير فى هذا الشأن كما

يتضح لنا من رد الفعل القاسى الذى تتلقاه فكرة رفع الأذان على منارة أحد المساجد فى ألمانيا)[٣].

ومنذ اللحظة التى بعثت فيها هذه الرسائل، بدأ خروج الإسلام من المحلية إلى العالمية. قسم المسلمون العالم إلى قسمين: «دار الإسلام» وبقية العالم التى لا يسودها الإسلام بعد، ولم تؤمن به. ولم يقسموه إلى عالم شرقى أو غربى ولم يأخذوا بأى تقسيمات جغرافية أو سياسية. ولقد صاحب توسع الإسلام فى مناطق ذات ثقافات مختلفة - مثل شمالى إفريقيا وإسبانيا والأناضول - مشكلات عدة لعالميته، كما حدث للمسيحية من قبل.

لقد لاحت - من ناحية - خطورة أن يتحول الإسلام إلى دين قبلى للعرب فقط على نهج اليهودية. وساعد على هذا أن منصب الخليفة ظل إلى ما قبل السلطان سليم الأول حكرًا على عربى من أصول قرشية. كما أخذ بعض العرب فى معاملة من اعتنق الإسلام حديثًا من البلدان الأخرى، على أنهم مسلمون من الدرجة الثانية. ولقد أدت التفرقة فى السنوات الأولى للدولة الإسلامية (أيام الدولة الأموية) فى المعاملة وتفضيل العرب على غيرهم، إلى ظهور حركات معادية للعرب عرفت بالحركات الشعوبية (انظر لمزيد من التفاصيل الفصل: صور وألوان). وعلى الجانب الآخر، كان هناك خطر يهدد الإسلام يتمثل فى استيعابه لتأثيرات غريبة عنه - مثله مثل المسيحية من قبل - مثل الأفلاطونية الجديدة، والمانوية (نسبة إلى أحد دعاة الدين فى فارس عاش ٢١٦ - ٢٧٦)، والزرادشتية والغنوصية وغيرها من الاتجاهات الفلسفية والمعرفية العديدة. كان يمكن للإسلام أن يأخذ - فى محاولاته أن يكون عالميا ومن خلال توسعاته الكثيرة - بمبدإ التوفيق والتلفيق بين اتجاهات عدة، ويتحول بذلك إلى دين شرقى مُخلط.

أما عدم وجود مقابل إسلامى لپاولوسى (پاولوسى الإنجيلى) ويوحنا وماركيون وأوجوستينوس أو ديونيسيوس أروپاجيتا، بالرغم من وجود أمثال الفارابى (٨٧٠ -

---

(٣) انظر برنامج بتاريخ ٢٤/ ٢/ ١٩٩٦ يصور رد فعل سكان مدينة Dillenburg على رغبة المسلمين المقيمين فيها والذى يبلغ عددهم ٢١٠٠ نسمة فى أن يبلغ صوت الأذان ٦٠ ديسيبل. لقد صدرت الشكاوى من مواطنين لم يسمعوا صوت الأذان أبدًا!؟

٩٥٠) وابن عربى (١١٦٥ - ١٢٤٠) - فيرجع إلى ما يلى: النتيجة التى آل إليها الخلاف الفلسفى فى القرنين التاسع والعاشر ببغداد.

لقد استسلم المعتزلة - المتأثرون بالفلسفة الإغريقية - لنقد الأشاعرة المتطرف، والذى لا يقبل أى حلول وسط مع مدرسة أخرى. لقد انتصر ذلك الاتجاه - يسنده ويعضده الاتجاه الأدبى الشائع، وكذلك المحدثون وأهل السنة - الذى يعرف الآن حتى يومنا هذا بالاتجاه التقليدى، وهو اتجاه يعادى الفلسفة والتصوف بقسوة وصرامة. وامتد هذا الاتجاه إلى يومنا هذا يعضده المذهب الحنبلى ويزكيه الاتجاه الوهابى فى السعودية.

لقد كان مبدأ التسامح الدينى أساسًا يرتكز عليه الإسلام فى دعوته للعالمية، حيث إنه: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [سورة البقرة الآية ٢٥٦]. وهذا الأمر يستنكر، بل لا يجيز إجبار إنسان على اعتناق دين لا يرضاه بالقوة. كما ساعد على انتشار الإسلام عالميا قبول الإسلام بتعدد الديانات، والذى يتمثل فى أبلغ وأجل صورة فى سورة المائدة، الآيات: ٤٣ - ٤٧ ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

وبفضل هذا التسامح الدينى، تعايش وتقبل المسلمون الديانات الأخرى وأتباعها، وهم يفعلون ذلك إلى الآن، ولم يحتذوا بالمثال المسيحى - لنذكر بونيفاتيوس فى جرمانيا، ومحاكم التفتيش فى إسبانيا على سبيل المثال - الذى أجبر أتباع ديانات أخرى بالقوة على اعتناق المسيحية، وجازفوا بذلك باحتيال هؤلاء عليهم فى نهاية الأمر.

ويتجسد التسامح الدينى - هذا الأمر الذى ينص عليه القرآن - فى مظاهر متعددة، مثل بقاء اليونان على مسيحيتها بالرغم من حكم الأتراك العثمانيين المسلمين لها لما يزيد على ٥٠٠ عام، وكذلك مشاهدة المرء فى القاهرة وهو فى طريقه من المطار لكنائس تفوق أعدادها أعداد مثيلتها من المساجد. أما رؤيتك للكتاب المقدس وهو معروض فى واجهات المكتبات فى المغرب وإضاءة الصليب الذى يعلو الكنائس ليلاً بأضواء النيون فى دمشق، فليست آخر هذه المظاهر، ولكنها - أى كل هذه المظاهر - إنما تمثل الجانب الإنسانى من أمر التسامح الدينى.

أما الجانب الآخر لهذا الأمر، فهو قدرة الإسلام على الاحتفاظ ببقائه - دون ذوبانه فى الآخر - حتى فى ظل عالميته. وهذا هو السبب الذى دفع الغرب منذ العصور القديمة (Antike) المتأخرة - (أى ما قبل العصور الوسطى) - إلى النظر إلى الإسلام - برغم تعدده وتنوعه الداخلى - على أنه شكل وكيان ذو صبغة واحدة، ونظام صارم لا يعرف المرونة، يخشاه الغرب ويخافه.

هذا هو الوصف الدقيق للمشاعر التى حكمت علاقة الإسلام بالغرب، منذ القدم وإلى يومنا هذا، الرعب والخوف. لقد بدأ هذا منذ التوسع المذهل للإسلام فى القرنين السابع والثامن الميلاديين، هذا التوسع الذى ما زال يذهلنا حتى يومنا هذا، ولا نفهم أسبابه. ولكن ما كان للمحاربين العرب الذين لم يتعد تعدادهم عشرة آلاف أن يحققوا كل هذا النجاح - رغم حماستهم الدينية واستهانتهم بالموت، بل طلبهم إياه لنيل الشهادة - إلا لأن مواطنى بيزنطة وفارس لجئوا إلى المسلمين واعتنقوا الإسلام بأعداد هائلة لثلاثة أسباب هى:

- التسامح الدينى.

- نظام الضرائب وممارستهم لإدارة شئون البلاد، التى كانت أقل وحشية واستغلالاً ممن سبقوهم، ومحاولتهم لإقرار العدل فى شئون البلاد.

- كان التصور الإسلامى لصورة الإله - خاصة فيما يتعلق بالمسيحية (أى المسيح والله) أقرب إلى تصور الكثيرين من المسيحيين غير المؤمنين بالتصور الذى تعتنقه الكنيسة الرسمية وتجيزه، مثل الأريانيين (جماعة تنكر أن المسيح هو الله، ونسبوا إلى أريوس الذى اعتنق هذا الفكر).

لم يستطع العالم المسيحى سواء فى روما أو القسطنطينية - (فى العالم الغربى أو الشرقى المسيحى) - أن يتفهم هذا، ولم يفهموا الإسلام فى سياق التاريخ الدينى وما يمثله الإسلام فيه. فلقد كان الإسلام أولى محاولات الإصلاح للمسيحية، أى محاولة إعادة المسيحية إلى جذورها الحنيفية الأولى. وبدلاً من تفهم هذه الحقيقة، أخذ الغرب ينشر أسطورة وأكذوبة توسع الإسلام «بالنار والسيف» حتى إنهم نسبوا إلى أولئك المسلمين المتوحشين إحراق مكتبة الإسكندرية الشهيرة(٤). كل هذا

---

(٤) وهو الاتهام الذى ثبت علميا عدم صحته بالمرة، ولكنه لا يزال يتردد بأن المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية الشهيرة بأمر من الخليفة عمر انظر Hunke (١٩٩١) ص٦/ ٨٥.

ليدافعوا عن أنفسهم وعن شعورهم بالتميز، ذلك الشعور الذى يهاجمه الإسلام، بل يضربه فى مقتل.

هذه الاتهامات ما هى إلا تزوير للحقيقة، ومع هذا فهى تفسير دائم لهذا الخوف من الإسلام، والذى يظهر إلى يومنا هذا عندما ينسب العنف إلى الإسلام وتجده واضحًا فى معالجة وسائل الإعلام المختلفة فى الغرب للأحداث مثل التى تقع فى مصر والجزائر.

لقد تأثر الغرب بالازدهار الثقافى والعلمى للحضارة الإسلامية وإنجازاتها، فى مراكزها المختلفة، سواء فى بغداد فى العصر العباسى أو قرطبة تحت حكم الأمويين، خاصة عن طريق من عاش من علماء المسلمين فى الأندلس، مثل ابن رشد وابن حزم وابن عربى. ولقد امتد تأثير الحضارة الإسلامية عامة - وأولئك العلماء خاصة - على الغرب إلى مجالات عدة، مثل علم الكلام والفلسفة اللاهوتية، وشعر الغزل والغناء، وإلى العمارة القوطية، وإلى مجالات الصحة والطب والرياضيات وإلى التصوف المسيحى. ولم تمنع الحروب الصليبية تأثيرات هذه الحضارة. وبالرغم من ذلك، فالآن، لا يُعَدّ فى الغرب الجهل بهذا الازدهار لهذه الحضارة العظيمة ثغرة ثقافية أو نقص معلومات. فكل الذى انطبع من الإسلام فى أذهان الغربيين على مر العصور هو المعارك الحربية، مثل الحروب الصليبية وحروب الأتراك العثمانيين التى أوصلتهم إلى أبواب ڤيينا، وليس الازدهار الحضارى والثقافى للإسلام وفضله على حضارة الغرب وتقدمه، وإلا لما بدا الإسلام لماكس ڤيبر (Max Weber) كدين حرب[٥]. لم يصل الأتراك إلى ڤيينا فقط، بل هدد بعض فرسانهم الأجزاء الجنوبية من باڤاريا. لقد هدد الأتراك فى هذا الوقت كل أوروبا، وقد كان الإسلام دينهم، وذلك يفسر عنوان أولى ترجمات القرآن إلى اللغة الألمانية حيث أسماها المترجم Salomon Schweigger عام ١٦١٦ «قرآن الأتراك: دين وخرافات»[٦]. أما الترجمة الثانية لمترجمها Johann Lange (١٦٨٨) فقد حملت عنوان: «كتاب الأحكام التركى الكامل أو قرآن محمد».

---

(٥) نقلاً عن Salvatore ص ١٠٢.

(٦) لقد تمت هذه الترجمة بفضل مارتن لوثر مع إضافات مثل المقدمة التى كتبها Melanchthon، وطبعت فى بازل عام ١٥٤٣، وهناك نسخة منها فى بيت القرآن فى المنامة.

نجد هذا الارتباط بين الدين الإسلامى والخطر العثمانى كذلك فى ترجمة القرآن التى استعان بها الشاعر جوته فى أعماله الشعرية. فقد كانت هذه الترجمة بعنوان: «كتاب الأتراك المقدس» ١٧٧٢ للمترجم David Friedrich Megerlin.

أما فى زماننا هذا، فلم يأت الأتراك إلى ڤيينا فقط، بل إلى مدينة Kreuzberg كرويتسبرج، ولكنهم لا يحملون سيوفًا ولكن تأشيرات عمل مصدق عليها من قنصليات فى إستنبول وأنقرة وأزمير، حتى تقابلهم أنت وتلقاهم كبشر جيران لك، وزملاء عمل أو زملاء دراسة.

ولكن هذا لم يؤد إلى زوال الخوف من الأتراك، بل ظل هذا الخوف على حاله يعشش فى نفوس الغربيين، ويؤدى بالتالى إلى أن يفرض الأتراك العزلة على أنفسهم.

ولذلك لا تندهش إذا قرأت عن فشل محاولات دمج الأتراك فى بلاد أوروبا التى استوطنوها منذ أجيال، أو عندما تقرأ عن رفض المجلس الأوروبى لضم تركيا إليه ومنحها عضويته؛ لأن كل هذا يحدث بتأثير الذاكرة الجمعية للشعوب، فالأتراك يشكلون خطرًا، وبالإضافة إلى ذلك فهم مسلمون.

ما زالت العقلية التى نتجت عن الحروب الصليبية تشكل وتحدد العلاقات المشتركة بين الغرب والإسلام.

لقد أثبت كل من Norama Daniel فى كتابه الذى يبعث على الاكتئاب «Islam and the West - Making of Image» و Claude Cahen فى كتاباته عن تاريخ الحروب الصليبية، أن آباء ومؤسسى فكرة الحروب الصليبية استعانوا لإشعال الكره ضد كل ما هو إسلامى - خاصة ضد محمد - استعانوا لتحقيق هذا بحملة متقنة لنشر الجهل بكل ما هو إسلامى وحجب كل المعلومات الصحيحة، ونشر معلومات مغلوطة بين الناس.

فبالرغم من وجود ترجمة سليمة فى جوهرها للقرآن إلى اللغة اللاتينية منذ عام ١١٤٣ (قام بهذه الترجمة كل من Robertus Ketenesis, Hermanus Dalmata. بتكليف من رئيس دير Petrus Venerabilis Clyny المتوفى عام ١١٥٦)، فإن ما قيل للفرسان الصليبيين بخصوص إيمان المسلمين بإله واحد أحد أى «لا إله إلا الله» حُوِّر

إلى «لا إله إلا محمد» (Non est Deus nisi Mahometus) . لقد صُور محمد للفرسان على أنه ساحر ، أو صنم ، حتى قيل إنه كاردينال أصابه الفشل ومن ثم كان حقده على المسيحية عندما لم يتم اختياره لكرسى البابوية!

لم يتعامل الفرسان الصليبيون مع الإسلام على أنه دين آخر، بل على أنه خروج على المسيحية، وابتعاد عن تعاليمها الأصيلة يجب محاربته بكل الطرق ـ حتى أبشعها ـ والتى شملت كل الفظائع وحمامات الدم وَشَىّ أطفال المسلمين، بل وأكل لحومهم (وفق مراجع تاريخية غربية) عندما اقتحموا كلا من القدس (١٠٩٩) ودمياط (١٢١٩).

لقد مرت ٢٠٠ عام من الحروب دون أن ينتصر العالم الغربى على العالم الإسلامى ، وكذلك دون إبداء أى محاولة لفهمه إلا بعض الاستثناءات القليلة ، مثل القديس فرانسيسكوس والقيصر فريدريك الثانى ، اللذين تأثرا بثقافة وتقوى وتسامح سلطان القدس الملك الكامل (أحدهما ١٢١٦ والآخر ١٢٢٩) . ولم يغير رأى هذين الشخصين من موقف الغالبية فى الغرب تجاه الإسلام ، كما لم ينجح فى ذلك من بعدهما ليون الإفريقى أو الحسن بن محمد الوزان (١٤٩٠ ـ ١٥٥٠) الرحالة بين عالمين وديانتين .

لقد نسبت ـ منذ ذلك الوقت ـ صفات إلى الرسول ونُعت بمفردات يستخدمها سلمان رشدى اليوم. كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما زال إلى يومنا هذا عرضة لكل اتهام يلصق به دون أن يتعرض من يتفوه بكل بذاءة ضده لأدنى عقاب، ولا تعد إهانة مشاعر ١,٢ مليار مسلم وجرحها بسبب نبيهم وتشويهه من الأخطاء السياسية.

ولقد أقرت آن مارى شمل Anne Marie Schimmel ـ وذلك عن حق ـ ما يلى: «أثار محمد ـ أكثر من غيره من الشخصيات التاريخية ـ الذعر والكره بل والاحتقار لشخصه فى العالم المسيحى. وما زَعْمُ دانتى من أن محمداً فى الجحيم ـ ولعنه إياه ـ أى لمحمد ـ إلا تعبيراً عن شعور عدد لا يحصى من مسيحيى العصور الوسطى»(٧).

---

(٧) Schimmel: Und Mohamadad ist sein Prophet.
ومحمد رسوله
Eugen Diederichs: . ميونخ ١٩٨١ ، ص ٧

وإلى يومنا هذا، تخجل الكنيسة الكاثوليكية وتخشى أن تعترف بمحمد قائدا للإسلام ـ الذى اعترفت به ـ كإحدى طرق النجاة. وهذا يثير العجب، إذ أنَّ العالم الأمريكى مايكل هارت وضع محمدا على رأس قائمة الـ ١٠٠ شخصية التى أثرت فى تاريخ البشرية.

كانت تجربة الحروب الصليبية مع الشرق المسلم صدمة تبعتها نتائج عديدة.

فلقد بدءوا مسيرتهم الخطرة إلى المدينة المقدسة بحملة اضطهاد لليهود فى منطقة الراين. وعندما وصلوا إلى المدينة المقدسة واستولوا على القدس عام ١٠٩٩، سالت حمامات دماء أهلها بشكل وحشى لا يمكن تخيله حتى يومنا هذا. أما فى عامى ١٤٠٣/ ١٤٠٤ فنهبوا مدينة القسطنطينية المسيحية الشرقية وعاثوا فيها فساداً، لاعتقادهم أنها مدينة خارجة عن الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها.

(لم تشهد مدينة إستنبول المسيحية قبل هذا التاريخ أو بعده أضراراً وأهوالاً كالتى لاقتها على أيدى الفرسان الصليبيين).

ولم يستطع الكثيرون منهم إغفال حقيقةً وهى أن هؤلاء البرابرة المتوحشين الذين أتوا لمحاربتهم يفوقونهم تحضراً ورقيا فى نواح عديدة، على رأسها الجانب الأخلاقى. ولهذه الأسباب ظلت ذكرى صلاح الدين البطل المسلم الكردى سلطان العرب حية كأسطورة فى ذاكرة الغرب.

لقد تركت الحروب الصليبية فى الغرب ذكرى مؤلمة تجوب فى مخيلة أهله.

كما خلفت هذه الحروب فى خيال الغرب ذكريات تشمل حياة الشرق، وبخاصة الجانب الجنسى منها. إننى شخصيا ألمح الارتباط بهذا الماضى وذكراه فى صورة الشرق الحسية من منظور غربى والتى نجد أبرز انعكاس لها فى أفلام هولى وود عن الشرق.

ولا يستطيع المرء أن ينكر صحة تحليل إدوارد سعيد القائل بأن الصورة الغربية للشرق هى فى جزء منها نتيجة لانعكاس رغبات وإسقاطات لا يعترف الغرب بأنه يكنها فى نفسه ويشعر بها.

أما بالنسبة للشرق، فقد كانت نتائج الحروب الصليبية فى مجملها أقل قسوة، حيث كان النصر فى آخر الأمر حليف الشرق. استمر هذا الاعتقاد حتى أيقنت شعوب الشرق مع كابوس الاحتلال فى العصور الحديثة بأن الحروب الصليبية لا تزال مستمرة بشكل دنيوى إلى يومنا هذا.

فما أن انتهت الحروب الصليبية بشكلها التقليدى، حتى تعرض المسلمون واليهود لعملية تطهير عرقى فى إسبانيا الشديدة التعصب للكاثوليكية، استهدفت طردهم من إسبانيا التى ظلت لمدة ٨٠٠ عام تحت حكم المسلمين.

وبعدها حاول ملك البرتغال الشاب Sebastiao أن يفرض المسيحية على المغرب قبل أن يفقد حياته فى معركة الملوك الثلاثة عام ١٥٧٨ فى قصره الكبير، ووقعت بلاده نتيجة لذلك فى أيدى إسبانيا.

وبعد ذلك دفعت فكرة حملة فرنسية تحت زعم «تحضير» مصر بناپليون إلى أن يأتى إلى مصر ويدعى أنه حامى الإسلام. وبعدها بوقت قصير، احتل الفرنسيون الجزائر عام ١٨٣٠. وتطل آثارهم المتمثلة فى كنائس متفاخرة أمثال كاتدرائية (Nôtre Dâme d'Afrique) فى كل ربوع المغرب العربى مثل تونس، عنابة، والجزائر العاصمة ووهران والرباط والدار البيضاء.

ويذهل المرء عندما يقرأ أن ملك اليونان عندما حاول فرض المسيحية على المناطق خارج ميناء أزمير عام ١٩٢٢، حرص على أن تطأ قدماه الأرض التى وطأها الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد فى الحرب الصليبية الثالثة عام ١١٩٠.

ولقد كانت حرب البوسنة ومعارك إبادة مسلمى وألبان كوسوفا حروبًا دينية من وجهة نظر الصرب واليونان، كانت حروبا صليبية متأخرة للقضاء على آخر الآثار الإسلامية فى البلقان (بالمناسبة يحظر فى البلدين بناء مساجد).

هى حقيقة وواقع لا ينكر: لم تنته الحروب الصليبية حتى يومنا هذا من وجهة نظر المسلمين، حتى وإن لم يظهر الفرسان الصليبيون اليوم بدروعهم الحربية، بل فى بدلة رجل الأعمال. (لا يعانى العالم الإسلامى وحده من ذلك. فلقد ذكر منذ فترة وجيزة أن أحد السفراء الأمريكيين قال لزميله اليابانى الذى أصابه الذهول: «إن

لغتكم الصعبة تمثل عقبة تجارية غير متفق عليها»، أى يجب إزالتها طبقًا للوائح منظمة التجارة العالمية (WTO)[٨] .

ولقد استمر الغرب يستبيح انتقاد الإسلام حتى فى سياق غير دينى . فعلى العالم الإسلامى أن يختار بين المسيحية أو الأسلوب الأمريكى للحياة . ولقد عبر Karl May عن هذا الموقف فى كتبه التى صاغت عقلية الألمان عن الشرق والإسلام .

لقد أثبت شاكر الرفاعى فى رسالته لنيل درجة الدكتوراه فى بون، أن كارل ماى كان يكتب بتكليف من الكنيسة، وأنه قال على لسان إحدى شخصياته ـ برغم علمه بصحة موقف الإسلام وتعارضه لما قال ـ إن المسلم يعتقد «أن المرأة لا تملك روحًا» . لقد توصل الرفاعى إلى أن كارل ماى ـ على عكس رواياته عن الهنود الحمر ـ يصور فى رواياته عن الشرق الأخيار على أنهم فقط المسيحيون . «والقلة القليلة من الأخيار من المسلمين تتحول فى النهاية إلى اعتناق المسيحية»[٩] .

ومن لا يكتفى بكل المؤشرات التى سبق ذكرها، فليتعمق فى نسق الفكر الحتمى لفرانسيس فوكوياما وإستراتيجيات استبعاد الإسلام التى يتبناها صاموئيل هنتنجتون فى عصرنا الراهن .

يَعُدّ المسلمون مثل هذا التفكير إمبريالية ثقافية، لأنه ـ كما كان الوضع بالنسبة للصليبيين ـ ينطلق من فكرتين : أولاهما، تفوق العالم الغربى بنموذجه الحتمى المتقدم، وثانيتهما : حق العالم الغربى، بل واجبه، أن يرتبط باقى العالم به ويتبعه . يمكننا أن نلخص هذا الفكر فى المقولة الساخرة : The West... and the Rest هذا التفكير يبعث الخوف فى نفوس المسلمين، حيث يمثل لهم خطر تهميشهم أو حتى استبعادهم من منظومة العالم .

وهذا التفكير ليس بالتفكير الجديد أو الحديث، بل إنه يعكس تفكير المستشرقين فى أسوإ صورة كما اعتنقه ومارسه مستشرقون بريطانيون وفرنسيون وهولنديون فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

---

(٨) انظر FAZ ٢١ / ١١ / ١٩٩٧ تحت عنوان : «آلام وهمية للفن ـ حوار ثقافى فى زمن العولمة» .

(٩) نقلا عن نور رقم ١٩ ـ ٢٠ كولونيا يوليو ١٩٧٩ ص ٣٦ .

ولقد خدموا مصالح القوى الاستعمارية، مثلهم مثل شخصية لورانس العرب(١٠) الشهيرة. ولقد عمل هؤلاء المستشرقون - المتفعون بلا شك - على زيادة المعرفة بالإسلام - للجهات التي خدموها - ولكنهم عرقلوا المعرفة الحقيقية ومنعوا العلم بها عند عامة الناس بسبب الأحكام المسبقة ضد الإسلام.

لم يقتنع أحد فى هذا الوقت بالحكمة القائلة: «إن النور يشع من الشرق»، بل اعتقد الكثيرون أنهم يشهدون المرحلة الأخيرة فى حياة الإسلام، الذى يوشك على الانقراض. حتى إن Max Henning كتب فى مقدمة ترجمته للقرآن عام ١٩٠١: «يبدو أن الإسلام قد استنفد دوره السياسى». ولم يكن أحد ليستطيع أن يعارضه مستنداً إلى حجج منطقية وواقعية.

لقد قام عدد من المستشرقين الألمان من بينهم Carl Becker و Gustave von Grunebaum بوصف الإسلام من منطلق إبراز ما يفتقده الإسلام حتى يصبح أوروبيا. فلقد توصل Grunebaum إلى النتيجة التى لا يصدقها عقل، وهى أن الحضارة الإسلامية لا تشارك الحضارة الغربية فى رؤياها الجوهرية، وأن هذه الحضارة لا تهتم بتحليل ذاتها ولا تهتم بدراسة الحضارات الأخرى(١١).

وأبلغ مثال على أن المغالطات التاريخية المستقرة فى الأذهان والوجدان يمكن أن تستمر إلى يومنا هذا، هو ما اتضح أخيرا عندما ادعى الأستاذ Peter Steinacke رئيس الكنيسة الإنجيلية بمقاطعة Hessen und Nassau عام ١٩٩٦ فى حديث أذيع بالتليفزيون الألمانى أن الإله الذى يعبده المسلمون غير الإله الذى يعبده المسيحيون. ولك أن تتخيل معنى هذا الكلام، خاصة إذا تفوه به إنسان موحد غير مشرك: فإذا كان هناك إله واحد فقط، وهو ليس الإله الذى يعبده المسلمون، فإن إلههم - أى إله المسلمين - ليس بإله بل هو وثن. كانت معلومات Goethe و Lessing وفريدريك الأكبر صحيحة فى هذا الشأن. وهل يندهش المرء إذن حين يقرأ فى مجلة Bunte

---

(١٠) لقد خلق لورانس العرب T.E Lawrence (١٨٨٨ - ١٩٣٥) بكتابه «أعمدة الحكمة السبعة» Dou- bleday: Garden City, NY. 1935. أسطورة عن نفسه. فلم يكن قدره أو مكانته كمتخصص فى علوم الإسلام وخبير باللغة العربية وآدابها، أو كمكتشف ومستشار سياسى يبلغ قدر أو مكانة Har- ry St. John Philby (١٨٨٥ - ١٩٦٠) ولا Leopold Weiss (محمد أسد).

(١١) نقلاً عن Salvatore ص ١٢١.

موضوعا عام ١٩٩٨ يتساءل فيه كاتبه بلاغيا: «هل انتقل الخطر الآن من موسكو إلى مكة؟». وما زالت هناك فصول جديدة تكتب فى تاريخ العلاقة بين الغرب والإسلام. لقد كان الإسلام منذ بدايته يضع صوب عينيه الانتشار فى العالم أجمع هدفًا له. ولقد تحقق له هذا على الأخص فى وقتنا هذا بفضل الثورة التكنولوچية فى وسائل الانتقال والاتصال والمعلومات والعولمة الاقتصادية التى نتجت عن هذا. فلقد أدى هذا ضمن ما أدى إلى أن يكون للإسلام مواقع عديدة على الإنترنت، بحيث يستطيع أى إنسان أن يطلع على سنَّة الرسول كاملة، وعلى القرآن فى أى لغة يرغبها بمجرد لمسه مفتاحا.

يبدو أن الإسلام قد وجد لنفسه موضعًا رصينًا وعميقًا فى أمريكا وغربى أوروبا، خاصة منذ سبعينيات القرن. وهذا الوجود الذى ترسخ بمرور الوقت يُعَدُّ نقلة وقفزة نوعية فى العلاقات الثنائية، أى علاقات الإسلام بالغرب. فلقد أصبح الإسلام، حتى فى ألمانيا - سواء باعتراف حكومى أم لا - ظاهرة دائمة[١٢]، متمثلة كذلك فى الـ ٢٥٧٨ مسجدا حسب إحصائيات مجلة Der Spiegel.

يتضح أن المسلمين الذين يستوطنون ألمانيا يتأقلمون، ولكنهم لا يذوبون ولا تضيع هويتهم الأصلية. ولقد تكونت على مر الوقت صورة تشمل ثلاثة أجيال تشترك فى خصائص واحدة إن لم تكن تتطابق فى كل من فرنسا وإنجلترا وألمانيا.

يكون الجيل الأول عادة أقل تمسكًا بدينه عندما يصل بلد المهجر، ثم يعود إلى التمسك بعقيدته لأنها تمثل له فى الغربة جزءا من الوطن وترابطا اجتماعيا. ويمكن أن يكون ذلك رد فعل يتسم بالعناد تجاه التفرقة التى يتعرض لها فى بلد المهجر، وتؤدى الحرية التى يعيشها المسلم للتعرف على دينه وممارسته دون وصاية ورقابة حكومية واضطهاد فى أول الأمر دورًا إيجابيا.

ولا يعود الجيل الأول - كما خطط - لموطنه؛ لأن الجيل الثانى لا يرغب فى هذا. هذا الجيل، أى الجيل الثانى، يعيش بين عالمين ويدفع غالبًا ضريبة (ثمن) تجربة الهجرة لأن هذا الجيل غير مرغوب فيه ولا يتمتع بفرص إيجابية، سواء فى وطنه أو

---

(١٢) Der Spiegel عدد خاص ١/ ١٩٩٨ ص ١١٠.

بلد المهجر، خاصة أنه لا يتقن أيا من اللغتين. وهذا الجيل هو الجيل الذى يتهدده الخطر، حيث يحاول جاهدًا أن ينال القبول والاعتراف به، ويبدو له الإسلام فى هذا الصدد عائقًا خاصة فيما يتعلق بعلاقة الجنسين.

وتبدو الصورة مختلفة تمامًا بالنسبة للجيل الثالث، خاصة فيما ينتظره فى المستقبل. وهذا الجيل يمثل أهمية بالغة لمستقبل الإسلام.

هذا الجيل يسكن الغرب ويتحدث اللغتين، اللغة الأم ولغة المهجر بطلاقة، ولذلك فجميع فرص التأقلم مهيأة له. ولكن هذا الجيل يتضح له أن الأمر ليس كما تصور؛ لأنه «مختلف» بسبب لون البشرة والعيون والشعر وبسبب الاسم أو لأنهم مسلمون. وانطلاقًا من هذا الوضع يقول هذا الجيل بعناد بالغ: «إذا كنتم تعتقدون أننا مختلفون، إذًا فنحن مختلفون ولسنا مثلكم». ويمارسون اختلافهم هذا ويشكلون تنظيمات ولا يقبلون التفريط فى حقوقهم، ولا أن يسلبهم أحد لقمة العيش وأسباب الحياة. وتجد بين هؤلاء الشباب مسلمين فى غاية النشاط وعلى استعداد تام للعمل على نشر الدعوة والتضحية من أجل هذا الهدف أكثر مما تجد بين الجيلين السابقين. وهؤلاء يتولون مسئولية مراكز إسلامية وإدارتها كما هو الوضع فى مدينة Achen آخن.

أما الأتراك فيمثلون استثناءً ملحوظًا فى هذا الشأن. فالجيل الثالث من الأتراك يظل فى معظم الأحوال معلق الأنظار بتركيا، وبالتالى يعيش فى ألمانيا كما لو كان فى محطة، ولا يمارس دعوته إلا بين الأتراك، وبالتالى لا يؤثرون فى بيئتهم بمفهومها الأوسع.

أما بين المهاجرين العرب، فلا تجد أثرًا لهذا السلوك، خاصة أن أعدادًا هائلة منهم - على الأقل فى ألمانيا - من الأكاديميين. ولقد أدى هذا التوسع للإسلام بانتشار المسلمين فى أنحاء العالم كافة إلى وجود تجمعات إسلامية فى كوريا واليابان وبوليڤيا والأرجنتين والبرازيل وجزر المالديف وكرواتيا وإيطاليا وإسپانيا، وأوكرانيا وفنلندا وتايلاند وسنغافورة.

ومن يرغب فى معايشة هذا الجو، فله أن يحضر المؤتمر الدولى السنوى الذى

يقيمه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر فى القاهرة، حيث يمثل أكثر من ثمانين دولة.

-٢-

هذا هو تاريخ علاقة الإسلام بالغرب التى تعود إلى ألف وثلاثمائة عام، منها كثير من سنوات الغضب، بل والحروب. ولقد بدأت العلاقات والغرب ينظر إلى الإسلام على أنه خطر، وتحول بعد ذلك لما يزيد على ٢٥٠ عامًا إلى مجرد مشكلة، ثم عاد فى منتصف القرن العشرين ليطل - من وجهة نظر الغرب - كخطر مرة أخرى. ويمتد تأثير المشاعر المضطربة والمظالم والمعلومات المغلوطة إلى يومنا هذا. وكل هذا مازال يموج تحت السطح. وتمثل الذاكرة الجمعية حقيقة سياسية ذات تأثير بالغ حتى بكل ما تحمله من أخطاء ومغالطات.

لقد وصف Wilfred Cantwell Smith هذا التلازم كما يلى: «لقد خَبر الغرب عداءً تجاه الإسلام لألف سنة ماضية. هذا العداء يسىء الكثيرون تقدير عمقه وطول دوامه. لم يتبين الوعى الغربى كلا من الهند والصين ومخاطرهما إلا بعد زوال كل ما يمكن أن يخيف الغرب. أما الإسلام فقد كان يمثل دائمًا وأبدًا خطرًا يهدد الغرب. وإذا ما قارنا أفكار ومشاعر الغرب المعادية للإسلام، نجد أن مشاعر الغرب المعادية للشيوعية كانت أقل حدة وأقصر عمرًا»[١٣]. وتؤدى الذاكرة الجمعية وهذا التزامل دورًا أساسيا عندما يحذر أتباع اتجاه الوسط المسيحى فى منشوراتهم من خطر أسلمة ألمانيا. وعندما يتم إشعال الحرائق فى مراكز إسلامية، وعندما تتلقى شخصيات ألمانية أسلمة نشطة بلاغات تهديد من مجهولين، فقد كان يمكننا أن نَعُدَّ كل هذا من قبيل ضيق الأفق والتصرفات الرعناء التى لا أمل لها فى المستقبل، لولا أن وسائل الإعلام تعمل جاهدة على إشعال المزيد من نار الحقد وتثبيت الأحكام المسبقة ضد الإسلام، وترسيخها فى عقول الناس، وهذا هو الموضوع الحزين للفصل القادم.

---

(١٣) Smith نقلا عن Muslim World: Parvez Mansor ص ٦ و Book Review 14/4/1994.

وسائل الإعلام تحت المراقبة

شعار : لا يسعنى إلا أن أتذكر هؤلاء المعارضين الذين إذا ما أرادوا شرا بأحد، فإنهم يشوهونه أولاً، ثم يحولونه إلى وحش تجب محاربته .

(جوته : الشعر والحقيقة . جزء ١٦ صفحة ١).

(J. W. von Goethe, Dichtung und Wahrheit B 16. S.1).

-١-

لقد ذكرت سابقًا أن الذاكرة الجمعية للبشر حقيقة ثابتة، لكن هناك حقيقة أخرى أحب أن أشير إليها، وهى القدرة على نسيان الذكريات غير السعيدة، أو تناسيها. وهذه القدرة من الأسباب التى تبعث على سعادة البشر؛ ولذلك فإننى أعتقد أنه من المنطقى أن يضع المسلمون ثقتهم فى هذه الآلية، أى النسيان، وأن يعتقدوا أن الأوروبيين سيتعاملون يومًا ما مع الإسلام بلا تحفظ، ويمنحونه فرصة ثانية. ويبدو من الوهلة الأولى الآن، أن الجو العام مهيأ لمثل هذا الموقف بفضل هذا التنوع المقبول ونزعة ما بعد الحداثة وقبولها لكل ما هو هامشى ومختلف، حتى غدا العالم وكأنه سوبر ماركت لمختلف الديانات والاتجاهات مع نزعة تسامح بلا حدود. وهناك أمثلة واضحة لذلك. فالدوائر المسيحية تقبل على سبيل المثال أتباع مذاهب تؤمن بالمبادئ خارج المسيحية مثل إعادة الميلاد، ومثل قبولها لأتباع مبدأ Anposophen(*).

كما أصبحت مذاهب مثل مذاهب التكهنية - أى الاعتماد على وجود كاهن

(*) عقيدة تعود فى نشأتها إلى Rudolf Steuier وهى إحدى طرق المعرفة، عن طريق رغبتها فى توصيل العقلانى والروحانى فى كيان الإنسان إلى العقلانى والروحانى فى الكون [المترجم].

يؤدى الطقوس ويقود الجماعة ـ المرتبطة بتعاطى المخدرات ووجود رجال طب على نمط رجال الطب فى أواسط آسيا ، موضة يجرى وراءها الكثيرون فى الغرب ، خاصة منذ Carlos Castaneda . ولا يثير إعلان نجم سينمائى مثل ريتشارد جير اعتناقه البوذية أدنى تساؤل أو اندهاش . أما إذا ما أعلنت مجموعة من الكاهنات الألمانيات أنها فى طريقها إلى الأناضول لخدمة المجتمع ، فلا ينالهن سوى الضحكات المستهزئة .

ويمكن للمرء اليوم أن يعلن بلا خوف أو استحياء ، أنه من أتباع الماركسية الجديدة ، أو أنه ملحد أو متصوف بلا دين ، دون أن يخشى أى نقد أو أن ينبذه المجتمع .

أما ما يحوز على الرضا والإعجاب بحق، فهى العادات والطقوس اليهودية، حتى وإن تماثلت، بل وتطابقت تمامًا مع شعائر المسلمين، لكنها عندما تصدر عن المسلمين، توصف بأنها غريبة وشاذة، مبهمة وأقرب ما تكون إلى جهل العصور الوسطى، بل إنها مخالفة للدستور.

ولنذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ملابس المتشددين اليهود، والفصل بين الجنسين، ومبادئ وقواعد الطعام الصارمة، والذبائح وفق شريعتهم، والتشدد فى جميع التكليفات الدينية الأخرى، حتى يظن المرء أن الغرب أصبح يطبق فعلاً مبدأ التسامح الذى دعا إليه الملك فريدريك الثانى، ملك بروسيا: «ليمارس كل امرئ دينه وفق طريقته». ولكن تتغير الصورة تمامًا عندما يكون الأمر مرتبطًا بالإسلام، وفى الحال يتضاءل هامش التسامح إن لم يختف تمامًا. فاللحية التى تدل على التقدمية عند چيفارا، تكون دليل رجعية عند المسلم. أما غطاء الرأس الذى تتحلى به العذراء فى الأيقونات وفى صورها ويثير مشاعر إيجابية، فإنه يتحول إلى شىء سلبى تمامًا، إذا ما ارتدته مسلمة. أما نحر الذبائح وفق الشريعة الإسلامية، فهو مخالف تمامًا لما تنص عليه قوانين حماية الحيوان.

ولذلك فقد توصل البريطانى Runnymede Trust فى دراسته التى نشرت عام ١٩٩٧ إلى النتيجة التالية : «فوبيا الإسلام هى الرعب والخوف منه وكرهه ، ولقد عاشت هذه الفوبيا لمدة قرون عديدة فى البلاد الغربية ، ولكنها أخذت فى السنوات

العشرين الماضية شكلاً أكثر علانية وأكثر تشدداً وتطرفًا وخطورة، حتى أصبحت فوبيا الإسلام مكونا أساسيا فى كل وسائل الإعلام، كما تسود فى جميع مجالات وأجزاء المجتمع المختلفة»[1].

وتتحمل وسائل الإعلام القدر الأكبر من المسئولية، ليس فقط فى أن يكون الإسلام أكثر الديانات المرفوضة والمستنكرة، بل أيضا أن يظل كذلك.

ومما لا يدع مجالاً للشك، أن عدم التسامح المستمر إزاء كل ما هو إسلامى وبالتالى الإبقاء على كل ما هو سلبى فى الذاكرة الجمعية تجاه الإسلام، ما هو إلا عمل من أعمال وسائل الإعلام[2]. ولقد أعلنها أكبر أحمد دون مواربة: «لم يتلق المسلمون تهديداً على مر تاريخهم مثل وسائل الإعلام الغربية، ولا يستطع المسلمون تحقيق الفوز فى لعبة الإعلام هذه»[3].

-٢-

ينال كل شعب - حقيقة - وسائل الإعلام التى يستحقها. وهناك دائمًا صحفيون سيئون بالإضافة طبعًا إلى الممتازين منهم. ولا نستطيع فى الوقت نفسه أن ننكر أن العمل فى مجال الإعلام يجذب الكثيرين ممن يمثلون اتجاهات لا دينية، ويعبرون كذلك عن رؤى غير دينية، كما أن وسائل الإعلام تمارس - حتى فى مجال الدين - عملاً سياسيا. ولقد أثبت Peter Kreeft إحصائيا وجود هوة سحيقة وتباعد شديد بين المعتقدات الدينية للشعب ومثيلتها عند ممثلى وسائل الإعلام والعاملين بها. وإذا كان هذا الإحصاء قد أجرى فى الولايات المتحدة، فإننى أعتقد بوجود تشابه بينه وبين الوضع فى أوروبا، ووفقًا لهذه الإحصائية، فإن ٩٠٪ من الأمريكيين يعتقدون

---

(١) Runnymede . . . ص٢.

(٢) أعتقد أننى بحكم وظيفتى السابقة كمدير لإدارة المعلومات التابعة لحلف الناتو، والتى شغلتها فى الفترة ما بين (١٩٨٣ - ١٩٨٧)، فإننى أملك نظرة واقعية للإمكانات المختلفة فى العمل الإعلامى وما تستطيع أن تقوم به وسائل الإعلام.

(٣) أكبر أحمد (١٩٩٢) ص ٢٢٣.

أن الخيانة الزوجية أمر سيئ، بينما يشاركهم ٥٠٪ فقط من ممثلى الإعلام هذا الرأى. وبينما يذهب ٥٠٪ من الأمريكيين بشكل منتظم إلى الكنيسة، لا يفعل ذلك سوى ٩٪ من الصحفيين. يتحفظ حوالى ٧٢٪ من المواطنين الأمريكيين على الإجهاض، بينما ٣٪ فقط من ممثلى وسائل الإعلام لهم تحفظات على هذا الأمر(٤).

إنها حقًا لدائرة مغلقة. فممثلو وسائل الإعلام والعاملون بها، مثلهم مثل كل الناس في الغرب، ضحية للصورة المشوهة للإسلام التى توارثوها عبر أجيال وقرون عدة. هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى، فإنهم هم أنفسهم، أى العاملين فى مجال الإعلام، يرسخون هذه الصورة المشوهة فى وجدان وأذهان الناس، بل يزيدونها سوءاً.

هناك انطباع قوى بأن وسائل الإعلام تصور الإسلام وتتعامل معه على أنه أيديولوچية أكثر من كونه دينًا وعقيدة. وهناك مثال واضح على ذلك وهو الملحق الخاص الذى أصدرته مجلة Der Spiegel فى عددها الصادر فى يناير عام ١٩٩٨ بعنوان «الإسلام اللغز». ولقد حمل غلافه صورة امرأة مسلمة حواجبها على هيئة سيوف تتوسط شعار علم السعودية. أما فى الموسوعة المرفقة عن «الإسلام من الألف إلى الياء»، فلم تظهر كلمة «الله»، ولم يظهر اسم «محمد»، أما «مكة» فقد صورها شخص يبدو أنه لم يزرها مطلقًا.

أما الانطباع الثانى من خلال وسائل الإعلام عن الإسلام، فهو أنه دين عدوانى وتوسعى، أى «دين حرب» (Max Weber) يجنح إلى التعصب والعنف والإرهاب. أما الأصوات العاقلة التى تعارض مثل هذا الاتجاه، فهى قليلة جداً مثل: Wolfgang Guinter Lerch (Islam und Terrorismus) (٥). ولذلك أسوق هنا مقولة لـ Peter Frisch رئيس المجلس الاتحادى لحماية الدستور، من حوار أجرته معه Der Spiegel ونشرته عام ١٩٩٧ تحت عنوان «تسويغ للقتل»: «سيغدو الإسلام فى القرن المقبل خطراً داهمًا». فالمتطوعون الأفغان فى آخر الأمر «مدربون

(٤) Kreeft ص ٦٢ ص ٦٧.

(٥) FAZ ١٩/١١/١٩٩٧.

على القتل». ولم يبد Frisch أى تحفظ عند رده على مطالبة المسلمين له فى مقاطعة Hessen «بحذف كل ما يسىء إلى الإسلام وكل المواقف المعادية له من المقررات المدرسية». فقال لا يمكن أن نقبل بكل ما تطالب به أى أقلية تحت مسمى التسامح[٦].

وسارت على نفس الدرب قناة التليفزيون الخاص RTL يوم ١٨ من سبتمبر عام ١٩٩٤ عندما أذاعت برنامجًا بعنوان «الإرهاب باسم الله»، حذرت فيه من مد أصولى إسلامى عالمى. (وبذلك أمكن للإعلان أن ينقل الخوف من خطر شيوعى قائم حقيقة تحت ظل علم أحمر، إلى خطر وهمى يظلله علم أخضر). ولكن إذا كان هذا هو الحال مع قناة خاصة، فإن القنوات العامة لا تقل عنفًا عنها فى تعاملها مع الإسلام. فلقد ادعى تليفزيون ARD يوم ١٥ من سبتمبر عام ١٩٩٤ أن المسلمين فى جنوبى السودان يشنون ضد الانفصاليين فى الجنوب «حربا مقدسة فى سبيل الله»، كما أصابت إذاعة باقاريا مستمعيها بالذهول عندما ادعت - بلا أدنى إثبات - فى نوفمبر عام ١٩٩٧ أن حمل السلاح جزء ومكون أساسى من هوية المسلم.

تدعم وسائل الإعلام الانطباع السائد بأن الإسلام دين عفى عليه الزمن بلا أدنى بادرة أمل فى إصلاحه أو تنويره، وبذلك لا يزال قابعًا فى ظلمات العصور الوسطى[٧]، والنمط السائد لتحقيق هذا الانطباع وتقويته هو إبراز ثغرات الإسلام، خاصة إذا ما قورنت بالنموذج الغربى فيما يخص الجانب الشخصى للإنسان (الوعى الفردى، المواطنة، المجتمع المدنى والعقلانية)[٨]. ولقد عبر هذا الموقف الفكرى عن نفسه عندما ادعى بسام طيبى عام ١٩٩٧ (كذلك فى مجلة Der Spiegel) أن العلاقة بين الإسلام وحقوق الإنسان مثلها مثل العلاقة بين «النار والماء»، وأن الإسلام بمفهومه التقليدى لا يفرد مكانًا لحقوق الإنسان، كما أنه من المحال أن يتفق الإسلام وحرية إبداء الرأى[٩]. فهل يندهش المرء إذًا أن تطالعه

---

(٦) Der Spiegel. Frisch عدد ٣٦ من سبتمبر عام ١٩٩٧ ص ٥٨ - ٦٠.

(٧) Salvatore ص ٧٣ Woods (تحتوى على ٢٨ رسما كاريكاتيريا يسىء إلى الإسلام نقلاً عن وسائل الإعلام الأمريكية)

(٨) Kreeft ص ٦٧، Said (١٩٦٨، ١٩٨١، ١٩٩٣).

(٩) طيبى Der Spiegel رقم ٣ من يناير عام ١٩٩٤ ص ١٧٠ - ١٧٢.

مجلة Die Zeit في عددها الصادر بتاريخ ٢٦ من مايو عام ١٩٩٥ بحكاية ساخرة ومهينة للدين. يقول الكاتب على لسان أحد الساخرين معرفًا الإسلام: «لم يكن عند محمد ثلاجة، كان يقضى حاجته أمام النسوة، وكان يسكر بعد تناول كوبين من البيرة. هذا هو الإسلام كله». نشر هذا في ركن «Pooh`s Corner» ليبعث على الضحك، ولكن شر البلية ما يضحك.

وتبلغ الادعاءات ذروتها بإلحاح وسائل الإعلام على ذكر الإسلام مصحوبًا دائمًا بصفات، مثل «الاستبداد الشرقي»، وذكر الوحشية في قطع الأيدي، قمع النساء المخالف لحقوق الإنسان، وتمسكه بأخلاقيات بالية عفى عليها الزمن مثل العفة قبل الزواج، وموقفه من العلاقات خارج الزواج، والخيانة الزوجية، والإجهاض والشذوذ الجنسي. وموقف الإسلام من كل ما سبق ذكره يخالف موقف الغرب تمامًا، وبشكل جوهري وعملي، وهو موقف غريب تمامًا لا يستسيغه الغرب.

ولم تستطع دراسة أجراها المعهد الشرقي في ألمانيا عام ١٩٩٧ بتكليف من وزارة الداخلية الألمانية أن تنجو من هذه الفكرة الأساسية عن الإسلام. فبناءً على تحليل مقدم من Irmgard Pinn استطاع كاتب الدراسة Nils Feindt - Riggers أن يقترب من المسلمين في ألمانيا مثلما كان علماء الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر يقتربون من السكان الأصليين في إفريقيا الذين يتسمون بالكثير من الغرابة والخطورة(١٠).

ولقد ظهرت وجهة النظر هذه في خطاب بعثه قارئ باسم Dr. Paul Esser إلى جريدة Frankfurter Allgemeine بتاريخ ٢٨ من مايو عام ١٩٩٧. لقد ذكر هذا القارئ عدم تسامح الإسلاميين و«موقفهم البدائي من الفن والعلم، وكذلك نظامهم الاجتماعي المستبد الأبوي وغير الديمقراطي بالمرة». وأرجع السبب في كل ذلك إلى القرآن. فالقرآن نص تقليدي مرتبط بالإقطاع، بل هو نص من العصور الحجرية، نص يحتوي على تفسيرات «أثرية وطفولية» للعالم. وباختصار، الإسلام «عودة إلى البربرية والوحشية». وليس هذا آخر الأدلة.

---

(١٠) Irmgard Pinn: المنظمة الإسلامية في ألمانيا (محادثات) جمعية علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية المسلمون كولونيا ١٩٩٧ Newesletter Ur. 2 ص ١٢-١١.

- ٢ -

ومن المؤسف أن تحـريض النـاس وتأليبـهم على الإسـلام بهـذا الشكل ينسف الفرص كافة لإعادة ميلاد علاقة طبيعية بين الغرب والشرق، حيث إن الآراء التى أشرنا إليها تقرأ فى العالم الإسلامى، أى أنها تقاوم فيه بناء جسور من الثقة المطلوبة لإقامة علاقة إيجابية بين الغرب والإسلام.

ويزيد الأمر سوءاً البطالة المنتشرة فى أجزاء متعددة فى أوروبا الغربية؛ لأنه فى ظل هذه الظروف، يمكن أن يتحـول القلق الاجتمـاعى المرتبط بالبطالة إلى عنف. فالأجانب الذين ينازعون أبناء البلد فى أماكن العمل القليلة ليسوا أجانب فحسب بل ومسلمين، مثل الأتراك فى Kreuzberg، والباكستانيين والهنود فى برادفورد Bradford والمغاربة فى ضواحى باريس. يعتقد الكثير من المسلمين أن الصراع فى البوسنة كان سيأخذ بالتأكيد مساراً آخر لو لم تكن قوى غربية مؤثرة واقعة تحت تأثير فوبيا الإسلام والخوف منه. **لقد أدلى ٩٩٪ من البوسنيين بأصـواتهم فى استفتاء - قطعته حرب البوسنة - لصالح استقلالهم عن بقية يوغوسلافيا أو ما تبقى من يوغوسلافيا سابقًا. لقد اعترف أعضاء الاتحاد الأوروبى فى ٢٩ من فبراير عام ١٩٩٢ بالبوسنة دولة مستقلة. وبالرغم من اعترافهم هذا، فلم يتدخل الاتحاد الأوروبى حتى ٣٠ من أغسطس عام ١٩٩٥، أى تاريخ بدء هجمات حلف شمالى الأطلنطى فى الصراع الدائر فى البوسنة، هذا الصراع الذى استمر لمدة ٣ سنوات بكل ما عرف عنه من فظائع وجرائم الصرب من قتل واغتصاب وأعمال سلب ونهب. استغرق الأمر من العالم ٣ سنوات ليضعوا نهاية لعملية التطهير العرقى التى قام بها الصرب فى البوسنة.**

هناك أسباب كثيرة لهذا السلوك الذى يَعُدّه الكثيرون فى الغرب فشلاً، منها: مصالح الدول، عدم الاستعداد للتضحية بالبشر، الرغبة فى الإبقاء على بقايا يوغوسلافيا متماسكة، الخوف من التورط طويل المدى فى المعترك البلقانى.

فالنموذج الحضارى الغربى يجب - وفق مفاهيم حقوق الإنسان الغربية - أن يحترم عالميًا وأن يسود كذلك حتى وإن كلف هذا الغرب أموالاً طائلة ولكن ليس

على حساب «دماء وعرق ودموع» بمفهوم تشرشل الذى صاغه فى نداء للمقاومة الذى وجهه عام ١٩٤٠[١١].

لكن ارتبط فشل الغرب فى البوسنة فى أذهان المسلمين بأن الضحايا فى هذا الصراع من المسلمين، بالرغم من أن الغرب كان ينكر على الدوام أن طبيعة هذا الصراع طبيعة دينية، ولم ير الحرب الدائرة حربا دينية وأراد أن لا يتطرق إليه أدنى شك فى كونها كذلك.

تتناول وسائل الإعلام الصربية واليونانية ـ فقط دون غيرها ـ مذابح الصرب فى البوسنة بوصفها حربًا صليبية ضد آخر مواقع الأتراك وجزرهم فى وسط أوروبا.

وإننى أتساءل، هل قرأ أحد من هؤلاء كتاب على عزت بيجوفيتش «الإسلام بين الشرق والغرب ـ Islam between East and West» ، هذا الكتاب الذى برز من خلاله بيجوفيتش كأحد مفكرى الإسلام المعاصرين، وواحد من أكثرهم تسامحًا وانفتاحًا وإبداعًا.

إننى لا أبغى أدلة ملموسة وقاطعة، بل إجابات صادقة عن الأسئلة الافتراضية التالية: هل يمكن أن يتخيل المرء أن الغرب ما كان ليتدخل منذ عام ١٩٩٢ فى البوسنة ـ ويتدخل بقبضة حديدية ـ لو كان الصرب هم المسلمون وأذاقوا البوسنيين الكاثوليك ما أصاب البوسنيين المسلمين فعلاً؟ هل كان من الممكن أن يسمح الغرب بمجازر كالتى وقعت فى سربرينيتشا وزيبا؟ هل كان الغرب سينتظر فى هذه الحالة حتى يتم قتل ٢٠٠ ألف بوسنى وطرد ٣ ملايين منهم؟ هل كان الغرب سيسكت على اغتصاب عشرات الآلاف وهدم ١٠٠ ألف مبنى بينهما معظم الإرث المعمارى الإسلامى للبلد؟[١٢]

---

(١١) لقد أثار Prof. Dr. Klaus Harnung الانتباه إلى هذا الأمر فى خطابه الذى بعث به إلى FAZ بتاريخ ٢٤/٤/١٩٩٩. وسيبقى هذا التساؤل سؤالاً مفتوحًا: هل كان سلاح الجو سيستمر فى هجماته على الصرب فى حرب كوسوفا لو كان هذا قد أدى إلى سقوط طيار ألمانى واحد؟

(١٢) لقد قام أمير باسيك الحاصل على جائزة أغاخان للعمارة والذى يعمل بمعهد الأبحاث للثقافة والتاريخ الإسلامى بإستنبول فى كتابه الفنى المدعم بالصور «العمارة الإسلامية فى البوسنة والهرسك» الصادر فى (IRCICA: ISTANBUL ـ ١٩٩٤) بإثبات ـ مستعينًا بالوثائق ـ أن الصرب والكروات قاموا فى أثناء حرب البوسنة بهدم أو إتلاف حوالى ٣٤٩ أثرًا إسلاميا من مجمل ٥٩١ أثرا إسلاميا حضاريا فى البوسنة والهرسك.

يذكرنا السلوك الغربى هذا بالفشل الذريع لكل من ڤينسيا وفرنسا والبابا عندما استنجد بهم قيصر بيزنطة فى أثناء محاصرة السلطان العثمانى محمد الفاتح للقسطنطينية عام ١٤٥٣ . لقد تباطأت القوى الغربية وراهنت على «الحل السياسى»، وأخذت تواسى نفسها وتطمئن نفسها أن الأمر لن يكون بهذا السوء. وبعد ذلك عدُّوا القيام بأى إجراء عسكرى متأخر عن وقته المناسب. لقد امتلأت عقول القوى الغربية فى ذلك الوقت بخرافات مفادها أن من يطلبون المساعدة إنما هم من زنادقة المسيحيين الخارجين عن التعاليم المسيحية السليمة التى تقرها الكنيسة الغربية[١٣].

ونحن نعلم اليوم أن المستقبل سيشهد أكثر من «بوسنة» أخرى، مثلما نرى فى الشيشان[١٤] وكوسوڤا. وكيف يكون الأمر مختلفًا فى ظل تأثير وسائل الإعلام على عقول الناس ووجدانهم وصياغتها وتأليبها على الإسلام؟!

- ٤ -

وفى ظل هذه الظروف يكون من المستحيل أن نأمل فى حدوث معجزة تدفع وسائل الإعلام إلى تحول فى تناولها للإسلام. ولكن لحسن الحظ، هناك بارقة أمل تلوح فى الأفق تتمثل فى هذا العدد من علماء المسلمين الغربيين بمعلوماتهم الوفيرة عن هذا الدين وموقفهم الموضوعى (من الإسلام) الخالى من الأحكام المسبقة.

وتتضمن هذه المجموعة - بالإضافة إلى Anna Marie Schimmel - أسماء لشباب العلماء أمثال:

- Francois Burgat Bruno Etienne (Aix - en - Provence)
- John Eposito (واشنطن)

---

(١٣) انظر Steven Runciman: «احتلال القسطنطينية ١٤٥٣»، الطبعة ٤ . ١٩٩٠ : CH. Beck.

(١٤) انظر: محمد إقبال خان «مسلمو الشيشان»
The Islamic Foundation: Markfield. LE. (UR), 1990.

- Daniel Gimaret (Paris)
- Angelika Hartmann (Giessen),
- Gudrun Krümer, (Berlin)
- Jòrg Nielsen, (Birmingham)
- Angelika Neuwirth. (Beirut).
- Neil Robinson, (Leeds)
- Reinhard Schulze (Bern)
- James Piscatori (Oxford Center for Islamic Studies)
- Armando Salvatore, (Berlin).

ولن يوافق أى من علماء المسلمين الغربيين المحدثين على مقولة Gustav von Grunebaum أن الحضارة الإسلامية لا تشترك فى أهم طموحات وتطلعات الحضارة الغربية. ويسبح Reinhard Hesse كذلك ضد التيار السائد فى وسائل الإعلام الغربية، خاصة بمقاله الذى نشر فى Die Woche بتاريخ ٢٣ من أبريل عام ١٩٩٧ والذى يُعَدُّ فى قراءته ملخصًا لهذا الفصل. يصل Hesse إلى النتيجة التالية: لم تكن صورة الإسلام ـ منذ الحروب الصليبية ـ أسوأ مما هى عليه فى يومنا هذا بالرغم من أن غالبية المسلمين تمارس دينها على أنه عقيدة سلام وتسامح. فالإسلام دين مُحَارَب أكثر منه دين مُحَارِب وحضارة مُحَارَبَة أكثر منه حضارة مُحَارِبة.

فحقوق الإنسان ليست تحت تصرف أحد فى الإسلام، وهذا الدين يسمح بالديمقراطية وحكومات من غير رجال الدين.

يستطيع المسلمون أن يأملوا فى تحسن لصورة الإسلام بشرط أن يكونوا على استعداد تام للاعتراف علانية ودون موارية بأن العالم الإسلامى يساهم بنصيب وافر فى تشويه صورة الإسلام؛ لأن هذا العالم نفسه لا يسير على نهج الإسلام.

وإننى أتفق مع مطالبة عميد المسلمين الألمان محمد أمان هوبوم فى بون، تلك المطالبة التى يوجهها دومًا إلى المسلمين، وهى ألا يقعوا فى الخطإ الشائع، وهو

الولاء الأعمى للجماعة التي ينتمي إليها المرء - في حالتنا هذه أي إلى المسلمين - فإذا ما اختلف د. محاضر محمد مع أنور إبراهيم في ماليزيا وظلم الأول الآخر فلن يكون محمد أمان في ألمانيا مطالبًا بتسويغ أو تجميل أو إنكار هذا الفعل. **لا ينبغي للمسلمين أن يحلموا بتغيير وينتظروا وقوعه، بل عليهم أن يقوموا هم بصناعة هذا التغيير عن طريق المنح الدراسية للطلبة المسلمين في مجالات كالصحافة والحقوق، مثل ما تقوم به منظمة CAIR (Council on Islamic - American Relations) (مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية).**

تخضع وسائل الإعلام لقوانين وقواعد يمكن تعلمها، إذا كان الأمر متعلقًا بكتابة خطابات قراء مقبولة أو تصميم ملصق جذاب أو الإقبال على مواقع في الإنترنت[١٥] أو إنتاج برامج إذاعية وتليفزيونية جاهزة للبث.

ومن قواعد العمل المتبعة والمتعارف عليها في الحقل الإعلامي: «الخبر السار ليس خبرًا» أي أن فرصة الإسلام في الإعلام مرتبطة بكل ما هو غريب ومثير. أما في التليفزيون فمن المعروف أن البرامج الرديئة تطرد البرامج الجيدة، كما كان الحال في العصور الوسطى حيث كانت العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة، ولذلك فلا جدوى من وجود قناة تليفزيونية إسلامية في الغرب موجهة لجمهور من غير المسلمين تبث الصلاة ومواعظ وتقارير عن الحج. فلا سبيل للنجاح في مجال البث التليفزيوني دون عري وعنف وإثارة.

إنني أرى أن إقامة «يوم للجامع المفتوح»، مثل الذي يقيمه المجلس المركزي للمسلمين في ألمانيا يوم الثالث من أكتوبر من كل عام، لهي احتفالية مبشرة وواعدة.

فهذه الاحتفالية تبشر بإمكانية إزالة الكثير من التحفظات والمخاوف وسد ثغرات معرفية كثيرة بالإسلام، أكثر مما يمكن أن يقوم به إرسال تليفزيوني إسلامي.

---

(١٥) الإسلام على الإنترنت انظر: Blunt وكذلك عمران على مسقطية: The Internet, IQRA, iv, Nr.2, 2, San Jose, مارس ١٩٩٧ ص ٣٢.

فمن الأولى أن نتواجد داخل الصحافة والتليفزيون والإذاعة قبل أن ننشئ صحافة وتليفزيون وإذاعة إسلامية تمثلنا ؛ فالتمثيل من داخلها أقوى .

ويتطلب هذا أن يتعلم عدد أكبر من المسلمين أن يكتبوا مقالات بدقة ومهارة أكثر ، وأن يوثقوها بشكل جيد ، وأن تجد هذه المقالات طريقها إلى الصحافة ، وهى جاهزة للطباعة ، مع الأخذ فى الحسبان أن الصحفيين مثلهم مثل كل الناس يفضلون أن يعملوا أقل على أن يعملوا كثيراً .

* * *

عن الحقوق الشقراء وغيرها

شعار: لماذا يجب علينا قبول تفسير لحقوق الإنسان تضعها وتتبناها تلك القوى التى استعمرت ونهبت بلادنا وسلبتها خيراتها؟

(شيرين سينار)

لا يوجد دخان بلا نار. هذا مثل دارج يعتقد الكثيرون صحته، وبناءً عليه فمن الواجب على المسلمين أن ينفوا عن أنفسهم اتهامات ينسبها الغرب إليهم خاصة بالنظر إلى ثلاثة هموم يشغل الغرب نفسه بها ولا يخلو منها أى حوار مسيحى - إسلامى، حتى وإن لم تكن هذه الأسئلة والهموم أسئلة دينية بل أخلاقية. والأسئلة الثلاثة هى:

- موقف الإسلام من حقوق الإنسان.
- موقف الإسلام من حقوق المرأة.
- موقف الإسلام من الديمقراطية، خاصة أن المسلمين حتى الآن لم يثبتوا قدرتهم على ممارسة الديمقراطية.

ومن الواضح أن التعامل الإيجابى مع الموضوعات الثلاثة المذكورة شرط أساسى يضعه الغرب لتطبيع العلاقات مع الإسلام، أى شرط يجب الوفاء به، أو على أقل تقدير، التأكيد على العمل على تحقيقه. أما أنا فأعتقد أن التطور فى هذه المجالات الثلاثة يترتب عليه ما هو أهم وأعظم وأكثر من تحسين علاقات الغرب بالإسلام، وهو تطور الإسلام وموقفه فى العالم كله مستقبلاً.

ولكن من الأمور الواضحة - بالتأكيد - أن هناك بعض القوى فى الغرب لها مصالحها الخاصة فى استمرار أسطورة عدم توافق الإسلام مع حقوق الإنسان والديمقراطية، كما يراها Neil Hicks(١) . وهذا الفصل مَعْنِىٌّ بإثبات أنه لا صحة لما يقال عن عدم قدرة المسلمين على الوفاء بحقوق الإنسان(٢) .

عندما يدور أى حوار حول حقوق الإنسان، يذهل المسلم عندما يثبت له أن شركاءه فى الحوار من الغربيين لا يظنون فقط أنهم الذين اكتشفوا حقوق الإنسان ووضعوها، بل إنهم أيضا يستأثرون بها دون غيرهم. وحقيقة، فإن الناس فى الغرب يعتقدون أن حقوق الإنسان تراعى فقط فى الغرب، وأما فى الشرق فإنها تهدر تمامًا.

الاعتقاد الأول مفهوم وله مبرراته؛ لأن البلد الذى سن قوانين حقوق الإنسان لحماية مواطنيه من بطش الدولة، حقوق تحفظ الحرية، كحقوق حماية النفس (Freedom From)، هو إنجلترا. لم يفكر أى إنسان فى ذلك الوقت فى مطالبة الدولة بأداء أى حقوق لمواطنيها (Freedom to)، هذه الحقوق التى تؤدى دورًا أساسيا فى يومنا هذا.

هناك عدة محطات مهمة فى تاريخ رحلة حقوق الإنسان الغربية وتطورها، مثل: الماجنا كارتا البريطانية عام ١٢١٥، لائحة تتضمن الحقوق الأساسية للإنسان، وHabeas Corpus Act عام ١٦٧٩، ووثيقة الحقوق Bill of Rights عام ١٦٨٩، ووثيقة إعلان الاستقلال الأمريكى عام ١٧٧٦ (التى استندت إلى الله وجعلته مرجعها)، والإعلان الفرنسى لحقوق الإنسان والمواطن عام ١٧٨٩ (الذى لم يُشر إلى الله). ولقد كانت هذه الأسس الغربية هى ما قام عليه واستند إليها إعلان حقوق الإنسان الشهير للأمم المتحدة عام ١٩٤٨. وكذلك الاتفاقيات الدولية الملزمة للحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية الصادرة بتاريخ

---

(١) Hicks ص ١.

(٢) Reflections On the 50th Anniversary of the Universal Decleration of Human Rights.

انطباعات بمناسبة الاحتفال بمرور ٥٠ عاما على الإعلان العالمى لحقوق الإنسان.

ص ١ - In Commentary No. 19, Petaling Jaya, Selangor, Malaysia Des 1985.

١٩ من ديسمبر عام ١٩٦٦، وكذلك آليات الحفاظ على حقوق الإنسان التى أصدرها المجلس الأوروبى[٣].

ولكن هذا التطور لم يتم بفضل المسيحية، فلقد كانت الكنيسة المسيحية حتى عهد البابا يوحنا ٢٣ فى القرن الماضى تدين فكرة حقوق الإنسان وتصفها بالعلمانية، وتلصق بها الكثير من الصفات السلبية. ولم تجد حقوق الإنسان طريقًا إلى الفاتيكان إلا فى ١١ من إبريل عام ١٩٦٣ عندما أصدر الفاتيكان المنشور البابوى باسم «السلام فى الأرض».

أما أكثر ما يثير الاستياء من كبرياء الغربيين وغرورهم، على أساس أنهم واضعو قانون حقوق الإنسان، فهو اعتقادهم الراسخ بعدم قدرة البلاد الإسلامية على ممارسة حقوق الإنسان.

يتجاهل هذا الادعاء حقيقة تاريخية، هى أن علّية القوم والمتحكمين فى مقاليد الحكم، كانوا دائمًا على مر التاريخ يتجاهلون حقوق بسطاء الناس، حتى فى الغرب المسيحى، وتستطيع منظمة العفو الدولية أن تثبت أن حقوق الإنسان لا تراعى كما ينبغى فى ا لعالم أجمع، وليس فقط فى البلاد التى يقطنها المسلمون.

ويتطلب تحرى العدل والصدق منا أن ننوه بأن انتهاك حقوق الإنسان الذى تمارسه الدول الإسلامية، بما فيه من تعذيب بدنى، وعنف من الشرطة، وتزوير الانتخابات، ورقابة وانتهاك حرية الدين والعبادة، كل هذه الانتهاكات لا يقرها الإسلام، ودوافعها غير إسلامية بالمرة. وأكبر دليل على أن هذه الانتهاكات غير إسلامية، هو وجود مئات الشخصيات المسلمة المسالمة فى سجون الحكومات الإسلامية!

وإننى أواجه شركاء الحوار من الغربيين بتساؤل: هل كان هناك انتهاك لحقوق الإنسان أكثر وأفظع مما حدث فى الحربين العالميتين بما شهدتا من استخدام للأسلحة

---

(٣) المعاهدة الدولية الخاصة بالحقوق المدنية والسياسية الصادرة فى ١٩/ ١٢/ ١٩٦٦، تجدها فى منشور القانون الاتحادى (BGBI) ١٥٣٤ - ١١ - ١٩٧٣. وتجد كذلك المعاهدة الدولية الخاصة بالحقوق الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية الصادرة فى نفس التاريخ فى المنشور ١٥٧٠ - ١١ - ١٩٧٣.
صندوق التبرعات للجنة الأوروبية لحقوق الإنسان موجودة فى ٦٨٥ - ١١ - ١٩٥٢. BGBI.

الكيميائية والنووية، أو انتهاك أبلغ مما شهدته فترة الحكم الستالينى، ومن التفرقة العنصرية وحروب التطهير العرقى فى البوسنة وكوسوڤا؟

لم تقع أى من هذه الفظائع فى المناطق التى يسودها الإسلام. وإننى أستشهد هنا بما قاله Ali Masrui العالم الكينى فى علوم الأنثروپولوچيا الاجتماعية والأستاذ فى State University - New York

«يوجه دائمًا النقد للمسلمين؛ لأنهم لم يقوموا بأفضل الإنجازات، لكن نادرًا ما يسجل لهم أحد أنهم منعوا حدوث الأفظع فى بلادهم. فلن تجد عندهم أبدًا القتل المنظم للشعوب كما حدث فى أمريكا الشمالية والجنوبية وأستراليا، ولن تجد ما يشبه الرعب والإرهاب الستالينى، واقتلاع ملايين البشر من جذورهم تحت مسمى الخطة الخمسية. كما أن المسلمين لا يتحملون مسئولية وجود نماذج للتفرقة العنصرية كالتى شهدتها جنوب إفريقيا من قبل الهولنديين بمباركة وموافقة كنيستهم الإصلاحية. ولا تجد شبيهًا أبدًا للعنصرية اليابانية العنيفة التى شهدتها آسيا قبل عام ١٩٤٥، ولا الثقافة العنصرية التى مارسها البيض ضد الزنوج فى الجنوب الأمريكى بما تضمنه من قتل وإبادة وعنف، وشنق دون محاكمة[٤]».

وبالرغم من تاريخ الغرب المتصل فى انتهاك حقوق الإنسان، إلا أنه يلوح دائمًا بعقوبة حجب المعونات الاقتصادية للتنمية فى البلاد التى لا تمارس نظام حقوق الإنسان الأوروبى - الأمريكى الذى يكفل حماية الحقوق الفردية للإنسان.

والكيل بمكيالين يدفع الكثيرين من شباب المسلمين إلى القول متهكمين وساخرين بحرارة شديدة: «يبدو أن لحقوق الإنسان شعرًا أشقرًا وعيونًا زرقاء»، إشارة منهم إلى انحياز الغرب ضد المسلمين.

والحديث عن حقوق الإنسان، يمكن أن يتحول إلى مطرقة يلوح بها لتهديد المعارضين. وفى هذا السياق يبدو أن الحق كل الحق مع Parvez Manzoor عندما قال

---

(٤) Islam and the End of History: Masrui الإسلام ونهاية التاريخ.

The American Journal of Islamic and Social Sciences 10/Nr 4, Herndon. VA, 1993, P.534.

ونفسه. Islamic and Western Values القيم الإسلامية والغربية.

Iqra, San José, CA, January 1998. P 13-18.

عام ١٩٩٤ : «حديث حقوق الإنسان هو حديث القوة» أى أن القوة تؤدى أيضًا دورًا أساسيا فى الحديث عن حقوق الإنسان[٥]. ولذلك تجد بعض الأصوات الخاصة، التى تتحدث عن الإسلام وحقوق الإنسان، ترى أن حقوق الإنسان أصبحت «البقرة المقدسة للحداثة» ،وأنها يجب أن تخضع للتساؤل لا أن تعبد بشكل أعمى، خاصة أن الشريعة تتضمن حلولا لمشكلات الإنسان بغض النظر عن الزمان والمكان[٦].

ولكن لا جدوى من الشكوى، فعلى المسلم أن يتخذ موقفا محددًا. قامت دول العالم الثالث والتى ينتمى إليها معظم البلدان الإسلامية، حتى بلدان البترول، بوضع خط دفاع متقدم عندما ربطت بين الحقوق المدنية من جانب والحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من جانب آخر. لقد كان حكام هذه البلاد على ثقة من انتخاب الجمهور لرؤساء القبائل، طالما أن هؤلاء الناخبين من الأميين! وأعتقد أنها حقيقة ثابتة - وإن لم يرض بعض مفكرى العالم الثالث عن هذا - ما يقوله Panajotis Kondylis عن حقوق الإنسان «التى تعطى الأفراد كافة نفس الاستقلالية والكرامة، لا تنمو إلا فى المجتمعات التى يسود فيها نظام تقسيم العمل بشكل دقيق جدا ويطغى فيه الإنتاج الواسع والاستهلاك الواسع»[٧].

ومما لا شك فيه أن الديمقراطية تتطلب مقدما وجود مجتمع مدنى. واستطاعت دول العالم الثالث من هذا المنطلق أن تُكَوِّن لنفسها فكرة خاصة عن حقوق الإنسان. واعتقدت هذه الدول أن باستطاعتها دفع الاتهام بخرقها لحقوق الإنسان عن طريق التساؤل حول عالمية حقوق الإنسان. فهى ترى حقوق الإنسان وكأنها فكرة غربية وبالتالى غريبة عن دول إفريقية وآسيوية على سبيل المثال. ويختفى وراء عالمية حقوق الإنسان تصور خاطئ عن نهاية التاريخ[٨] وفق نموذج غربى.

من الجائز أن يكون هذا الرأى مُصيبا فيما يخص بعض حقوق الإنسان الحديثة مثل

---

(٥) The Muslim World Book Review 15 Nr 1 Manzoor Markfield, LE (UK) 1994 p.g.

(٦) إسلام أو حقوق الإنسان بوضوح. Wien, Dez. 1998 P.12- 15.

(٧) FAz بتاريخ ٢٨/ ١٢/ ١٩٩٥.

(٨) Mansoor انظر ٥ ص ٨، ٩.

«الحق فى الخوف» (من عناصر نووية)، «الحق فى المخدرات»، أو الحق فى عقد قران للشواذ جنسيا. ولكن هذا الرأى مخالف للصواب تماما إذا ما نظرنا إلى الجوهر الكلاسيكى، التقليدى لحقوق الإنسان، مثل حقه فى الحياة، حقه فى الحرية، حرية التعبير عن الرأى والعقيدة؛ ولذلك فالمسلمون يلحقون الضرر بأنفسهم عندما ينكرون عالمية جوهر حقوق الإنسان (يعتقد صامويل هنتنجتون أن هناك اتفاقا على نطاق العالم فى نقطة واحدة وهى الرفض غير المشروط للتعذيب)[٩].

أعتقد أن أفضل إستراتيچية يتبعها المسلمون هى التعامل مع ظاهرة حقوق الإنسان من وجهة نظر فقهية، أى على أساس القرآن والسنة.

ومن الجدير بالذكر أن نتبين أن مصطلح «حقوق الإنسان» لم يظهر فى اليهودية أو المسيحية أو الإسلام. فغياب هذا المصطلح يعود إلى أن المؤمنين يعارضون تماما فكرة الإنسان كمشرع للحق، فالله وحده هو خالق وواهب الحقوق. فالحقوق الإلهية للبشر مقبولة على الدوام، وأما الحقوق التى يضعها البشر فهى قابلة للنقد.

وترتبط فكرة حقوق الإنسان بالتنويريين من القرن الثامن عشر، هؤلاء المفكرين الذين يرون فى الإنسان المقياس الأوحد، وهذا التصور غير مقبول بالنسبة للمؤمنين بالديانات السماوية والغيبيات.

ومن البديهى أن يرفض فقهاء المسلمين تصنيف أوامر الله وشريعته وفق نظام هيراركى؛ لأنهم يرون مبادئ الشريعة كافة متساوية المكانة، ولا يقل واحد عن غيره، بدءًا من الوضوء حتى منع الربا. وأرى أن ما كان لهذين السببين أن يقفا حائلا دون وجود نظرية إسلامية لحقوق الإنسان. ولقد أدى غياب هذه الرؤية الإسلامية لحقوق الإنسان لأن يتعرض الإسلام للاتهام بعدم حمايته للفرد من تسلط الدولة، أى أنه لا يبالى ولا يراعى حقوق الإنسان.

لقد حدث هذا مع أنه كان من اليسير إثبات أن الإسلام لم يكتف بمعرفة الحقوق التقليدية للإنسان منذ أكثر من ١٤٠٠ عام ولكنه مارسها ورسخها أكثر مما فعلت مواثيق الغرب، والمنهج اللازم لذلك سهل جدا: فحق الإنسان فى الحياة يتضح من

---

(٩) Berliner Zeitung, Magazin بتاريخ ٢٨، ٢٩/٦/١٩٩٧.

الآية ٩٢ من سورة النساء والتى تنهى عن القتل، والآية ٣٢ من سورة المائدة والتى تساوى قاتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق بمن يقتل الناس جميعا، والآية ١٥١ من سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾(*).

وإذا كان الله قد أمر المسلمين فى سورة الشورى فى الآية ٣٨ بأن يتشاوروا فى أمورهم(**)، فيمكن للمرء إذن أن يستنتج حق البشر جميعا فى المشاركة السياسية. وإذا كان الخلفاء الثلاثة الأوائل الذين تم اختيارهم لا يمتون لمحمد - صلى الله عليه وسلم - بصلة قرابة، يمكننا أن نقول إن الدولة الإسلامية يمكن أن تكون جمهورية.

لذلك فليس على المسلمين أن يتعثروا فى إثبات وجود حماية إسلامية لحقوق الإنسان بتوقفهم عند مصطلح «حقوق الإنسان». وأكبر ضمانة لهذه الحقوق ومراعاتها هى أنها من عند الله، أى أن على المرء أن يتبعها مرضاة لله، وهذا يوفر لها مصداقية ورسوخا أكبر بكثير من كونها حقوقا أقرها البشر وأجمعوا عليها (لأنهم يمكنهم تعديلها فى هذه الحالة وبإجماع أيضا). ولقد أثبت الغرب سواء فى الاتحاد السوفييتى سابقا أو الولايات المتحدة أن حقوق الإنسان ما هى إلا الورقة التى تضمنت هذه الحقوق، وليس المرء فى حاجة إلى أن يسأل أفراد جماعة الكوكلوكس كلان المتطرفة عن ذلك، بل يكفيه النظر إلى أحوال السود والهنود الحمر فى أمريكا.

من الثابت أن الإنسانية لم تنجح أبدا فى وضع نظام قانونى يُجْمِعُ عليه البشر ويلزمهم من خلال أخذهم بالعقل فقط(١٠).

ولذلك تجتهد بعض الشخصيات المرموقة - مثل المستشار الألمانى السابق هيلموت شميدت وعالم اللاهوت بجامعة Tübingen سابقا هانس كنج - فى التوصل إلى إعلان تتبناه الأمم المتحدة عن واجبات الإنسان. ورق يضاف إلى ورق! وأعتقد أنه لا مفر هنا من الأخذ بعين التقدير مسألة الديانات السماوية.

(*) كالاقتصاص من القاتل.

(**) قال الله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾.

(١٠) ما عدا قانون الوفاء بالعقد، Pacta sunt servanda

انظر: Friedrich Berber: كتاب حقوق الشعوب الجزء ١. C.H. Beck: München 1960 P. 165.

تحت الضغوط التى يمارسها الغرب واتهاماته المستمرة بإساءة الإسلام لحقوق الإنسان، أعلنت منظمة المؤتمر الإسلامى فى ٥ من أغسطس عام ١٩٩٠ فى مؤتمرها بالقاهرة، عن إعلان حقوق الإنسان فى الإسلام، وهذه الوثيقة وثيقة سياسية أكثر منها وثيقة ملزمة قانونيا[١١]، وينطبق هذا الوصف أيضا على الوثيقة التى أصدرها المجلس الإسلامى لأوروبا فى ١٩ من سبتمبر عام ١٩٨١.

ولقد شاركت شخصيات إسلامية فى الحديث عن حقوق الإنسان، مثل محمد حميد الله وأبى الأعلى المودودى والأمير الحسن من الأردن. ولقد دعا الأخير إلى مؤتمر على شكل مائدة مستديرة عقد فى عمان فى الفترة ما بين ١٠-١٣ من ديسمبر عام ١٩٩٤ تحت شعار «مساندة عالمية لحقوق الإنسان». ولقد قال الأمير الحسن: «فيما يخص حقوق الإنسان، فنحن بحاجة ماسة إلى إجماع واتفاق عالمى، فالإعلان الدولى لحقوق الإنسان، يمس الحد الأدنى للحياة الإنسانية. وأعتقد أن دينى يهدف إلى نفس الشىء، وهو حفظ الحق للحياة الإنسانية. وهناك فى القرآن والحديث الشريف ما يتماثل ويتطابق فى معناه مع المبادئ الـ٣٠ لإعلان حقوق الإنسان».

ونصت النتيجة الأولى للمؤتمر على: «كل البشر دعاة لحقوق الإنسان»[١٢]. بفضل ما سبق ذكره، يسهل عرض الاختلافات بين مفهوم حقوق الإنسان الغربى والإسلامى، وهى فروق ظاهرية فقط. يدور الحديث فى هذا الصدد حول موضوعات: الردة، العبودية، وضع أهل الذمة (من يحق له الحماية)، حقوق المرأة والعقوبات الجسدية.

وإذا ما وجدت اجتهاداتى صدى ولاقت نجاحا، لفهم دقيق للمصادر الإسلامية فسيقترب الموقفان الإسلامى والغربى فى المستقبل أكثر مما هما الآن. إننى أستند على تفسيرات معاصرة للمصادر الإسلامية لعلماء أمثال محمد أسد، رشاد الغنوشى، حسن وماهر حتحوت، على عزت بيجوفتش، چيفرى لانج، فتحى عثمان، يوسف القرضاوى، فارلور رحمان (١٩١٩-١٩٨٨) محمد طلبى وحسن الترابى.

---

(١١) طبعت فى مجلة الآباء البيض فرانكفورت ١٩٩١ ص ١٧٨-١٨٠.

(١٢) انظر جريدة Maåb للسنة ٦ رقم ١٨ عمان ١٩٩٥ ص ٦.

أما بخصوص الردة، فسينتهي الخلاف حول هذا الموضوع إذا ما تبين للمسلم أنه لا عقاب للخروج عن الإسلام في هذه الدنيا، وأنه لم يرد في القرآن أو السنة(*) ما يفيد ذلك(١٣). فالقرآن يذكر ١٣ حالة للخروج عن الإيمان، وفي كل هذه الحالات يشار إلى عقاب في الآخرة. فقول الله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (سورة البقرة آية: ٢٥٦) يجب أن يحكم علاقة المسلم بالمسلم في يومنا هذا، ولا يقتصر وفق المفهوم القديم على علاقة المسلم بغير المسلم. ومن ينكر هذا يتجاهل أن «لا إكراه في الدين» تعني أن ممارسة ضغوط وفرض أمور بعينها في أمور تتعلق بالعقيدة، ما هي إلا محاولة فاشلة من الأصل.

فالقوة يمكن أن تجبر المسلمين في بلد إسلامي على المحافظة على القوانين كافة، إلا في الأمور التي تتعلق حقا بالنية. فلابد من التوقف تماما عن إجبار المسلمين على أداء الصلاة والصيام عن طريق الضرب. لقد تمت ملاحقة من خرج عن الإسلام فيما عرف بحروب الردة؛ لأن هؤلاء اقترفوا الخيانة العظمى ضد الدولة الإسلامية برفضهم أداء الضريبة للدولة وبمحاربتهم إياها ومقاومتهم الإسلام (سورة المائدة آية ٣٣) فحق قتالهم.

وعقوبة الخيانة العظمى، خاصة في أثناء الحروب، بالإعدام أو القتل أمر متعارف عليه دوليا، ولا يتعارض مع حقوق الإنسان.

ويبقى في هذا السياق الاتهام بأن من يخرج عن الإسلام يلحقه الضرر فيما يتعلق بالميراث؛ لأنه وفقا للسنّة: «لا يرث المسلمُ الكافرَ، ولا الكافرُ المسلمَ»(١٤). ولكننا يجب أن ننظر إلى الانتماء للإسلام كأنه انتماء إلى جنسية دولة بعينها. والقانون الدولي يربط تداول الميراث بثبات الجنسية.

ولا يختلف الأمر كثيراً فيما يتعلق بمسألة العبودية. فلا يجب - بطبيعة - الحال

(*) هناك خلاف في هذه المسألة، فهناك من يقول بقتل المرتد؛ استناداً لحديث نبوي، وهناك من ينفي ذلك تمامًا، وهناك فريق ثالث يرى في المسألة تفاصيل، يختلف الحكم باختلافها. (الناشر).

(١٣) عثمان (الأطفال ١٩٩٦/ The children) ص ٣٠، (١٩٩٥) Lang ص ١٩٥-١٩٩، الترابي ١٩٩٢ ص ٤١.

(١٤) البخاري رقم ٦٧٦٤.

حذف الآيات التى تدور حول هذه المسألة من القرآن، وبالذات فيما يتعلق بالحث على حسن معاملة العبيد، خاصة أن هذه الآيات تحمى - إلى الآن - أناسا لم يتحرروا بعد، كما هو الحال فى موريتانيا، وبعض الأنحاء النائية من باكستان. وتدل هذه الآيات على أن الله أراد من خلال القرآن القضاء تماما على العبودية خطوة خطوة. ويعضد هذا إمكانية أن يشترى العبد حريته ويدفع ثمن ذلك مقسطا، وعلى المجتمع أن يساعده. وحث القرآن المسلمين على عتق العبيد تقربًا إلى الله وتكفيراً عن ذنوب كثيرة[١٥]، ولذلك لا جناح على أى دولة إسلامية فى الموافقة على قوانين تحرم العبودية.

أما حماية الإسلام للجماعات العرقية والأقليات ذات الديانات المختلفة، وكذلك حقوق المرأة، فسيتم عرضها بشكل مفصل فى فصول تالية. أما فيما يتعلق بالسطور الحالية، فمن المهم جدا أن نذكر أن غير المسلمين كانوا سيشعرون بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، لو لم يتمتعوا بالمواطنة الكاملة، ولو أنهم ظلوا على وضعهم سابقا كذميين، وهو ما لم يحدث، فهم مواطنون كاملون. وهناك الرأى القائل (فتحى عثمان وغيره) بعدم وجود موانع قانونية تحول دون تمتع غير المسلمين بجميع حقوق المواطنة فى دولة ومجتمع يحكمه دستور قومى[١٦]. ومن الجدير بالذكر أن الشريعة تضع الحد الأدنى لما يجب أن يتمتع به غير المسلم، وأن تؤديه له الدولة الإسلامية، ولكنها لم تضع حدا أقصى لما يمكن أن يتمتع به. ولذلك لا يناقش الإخوان المسلمون المصريون حقوق المواطنة الكاملة للأقباط[١٧].

ونتعرض فى هذا الصدد لسؤال: هل يحق إذن لغير المسلم أن يتولى رئاسة دولة إسلامية؟ خاصة فى ظل تمتعه بجميع حقوق المواطنة؟ وأرى أن هذا السؤال رغم صحة منطقه غير عملى، فلا يعقل أن ينتخب غير المسلم فى بلد إسلامى ليتولى رئاسة الدولة. وإذا حدث هذا، فهل يمكننا الحديث عن «بلد إسلامى»؟

(١٥) ففى الآية[٣٦] من سورة النساء: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ... وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. وفى الآية [٨٩] من سورة المائدة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ... أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وفى الآية ٦٠ من سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ... وَفِي الرِّقَابِ﴾.

(١٦) عثمان (الأطفال/ The children / ١٩٩٦) ص ٢٠، ص ٤٣ وكذلك (حقوق الإنسان / Human Rights ١٩٩٦) ص ١٩ - ٢١.

(١٧) انظر «الحقوق المدنية للأقباط أيضًا» FAZ ١٩ / ٤ / ١٩٩٧.

أما الحدود التى تقرها الشريعة، كالعقوبات الجسدية، فهى وفق المفهوم الغربى لحقوق الإنسان، قاسية وغير إنسانية ومهينة وغير دستورية، وبخاصة جلد الزانى[18] وقطع يد السارق[19].

ويقع المسلمون فى الغرب دائما فى حيرة عند مواجهتهم بهذا الأمر، بدلا من ذكر حقيقة وهى أن الولايات المتحدة الأمريكية ـ وهى المثال الأخلاقى للغرب ـ تبيح عقوبة الإعدام، بل وتمارسها سنويا بأشكال شتى مثل الشنق والكرسى الكهربائى، والحقن بالسم. وعقوبة القتل هذه هى أقسى أنواع ودرجات العقوبات الجسدية.

ولهذا لا يستوجب الأمر توجيه اتهام إلى الشريعة الإسلامية، خاصة أنها تختلف عن القانون الوضعى فى الممارسة بشكل ملحوظ وحاد.

فليس كل ما تبيحه الشريعة الإسلامية نظريا، يتم تطبيقه بشكل واقعى وعملى، وينطبق هذا على عقوبة الموت والتى يمكن إنزالها حسب الشريعة فى حالات جرائم القتل، والنهب والخيانة العظمى ولكن لا يجب بالضرورة إنزالها[20].

ومن الجدير بالذكر أن وظيفة الردع بالعقاب التى يجب أن يؤديها قانون العقوبات، وحق تنفيذ العقوبة، تلقى قبولا فى الغرب.

ولكن للأسف قانون العقوبات يتم تناوله باستهانة كبيرة فى بعض مناطق الغرب حيث تصل عقوبة جريمة القتل إلى سنوات قليلة يمضيها القاتل فى سجون أشبه بالفندق. ويمكن لجاسوس أن يأمل فى حكم البراءة إذا ما توافر له محام نابه يدافع عنه. وتحول الإفراج المبكر إلى حق مكتسب، ولم يَعُدْ فعلا يتم بناء على إصدار عفو، كما يتم تجميل أفعال «العنف ضد أشياء مادية».

وعلى النقيض من ذلك، تقوم الحدود فى الشريعة الإسلامية، والخوف من التعرض لعقوبتها بوظيفتها، ويظهر ذلك فى شكل توافر حالة أمان عامة، خصوصا للمرأة، واحترام للملكية الخاصة، وممتلكات الغير. وهذه الحال تجدها حتى فى أماكن لا يتم فيها تطبيق هذه الحدود الإسلامية منذ زمن بعيد.

---

(١٨) الآية ٢ من سورة النور.

(١٩) الآية ٣٨ من سورة المائدة.

(٢٠) شهرور ص ٧.

أنا لست الوحيد الذى يقول بعدم وجود تسويغ إسلامى للرجم. فوجوب رجم الزانى من المتزوجين تجدها فى توراة موسى وليس فى القرآن. وهذا الحكم التوراتى غير ملزم للمسلمين؛ لأن الآية الثانية من سورة النور تجب هذا الحكم وتلغيه(*). ولقد أثبت طه جابر العلوانى بحق أن السنَّة لا يحق لها معارضة القرآن ولا تغييره، بل هى مفسرة له[٢١]. (لقد وردت هذه العقوبة فى السنَّة ويعارضها القرآن). كما أن عقوبة الرجم الواردة فى الحديث والسنَّة لا تستند إلى مصادر صحيحة أو عديدة[٢٢]. كما أنها لا تذكر إذا كانت حادثة الرجم التى أجازها الرسول قد وقعت قبل نزول سورة النور أم بعدها[٢٣].

وإذا كانت قد وقعت قبل نزول السورة القرآنية التى تَفُصِّل عقاب الزنا والخيانة الزوجية، فمن المنطقى أن هذه الأحكام القرآنية تجب وتلغى هذه العقوبة.

وهناك دليل آخر على أن القرآن لا يقر عقوبة الرجم حتى الموت بالرغم من حديث الخليفة الثانى عمر عن نص للرجم، وهذا الدليل هو ما جاء فى الآية ٢٥ من سورة النساء، ﴿ **فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** ﴾[٢٤].

فما هو - دام فضلكم - نصف عقوبة الموت؟

كما أن ثبوت جريمة الزنا والبرهان على وقوعها يصعب تحقيقه - إن لم يكن مستحيلا - وفق الشرع الإسلامى إلا إذا اعترف الزانى. (كان الأمر سيكون أهون بالنسبة للرئيس الأمريكى كلينتون إذا ما طبق قانون الشريعة الإسلامية بالنسبة للخيانة الزوجية)[٢٥].

ويتعلق فهم التهديد بقطع اليد عقابا للسرقة ودوره فى الترهيب من اقتراف مثل

(*) قال الله تعالى: ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾.

(٢١) العلوانى: مقدمة لكتاب أحمد على الأمان.

Variant Readings of the Quràan P 14 _ قراءات مختلفة للقرآن ص ١٤.

(٢٢) سنن أبى داود حديث رقم ٤٤٠٥، البخارى ج٨ رقم ٨٠٥و٨١٠، مسلم رقم ٤١٩١-٤٢٢٥، النووى رقم ٢٢٠.

(٢٣) البخارى جزء ٨ رقم ٨٠٤ و٨٣٠، والجزء ٩ رقم ٢٨١.

(٢٤) الآية ٢٥ من سورة النساء. عثمان (١٩٩٧) ص ٩١٤ يرفض رجم الزانى لهذه الأسباب ولغيرها.

(٢٥) الآيات ٦-٨ من سورة النور.

هذه الجريمة، كما ورد في سورة المائدة الآية ٣٨(*) بالتمعن في وظيفته السياسية والاجتماعية.

وقبل التطرق إلى هذه النقطة، يجب أن نفهم أن المرأة تتمتع بحماية اجتماعية قوية خاصة في السن المتقدمة، بناءً على أن ما تتلقاه من مهر ومجوهرات عند عقد قرانها لا يتبدد.

ويستطيع المرء أن يتجول لعدة عقود في العالم الإسلامي دون أن يلتقي بإنسان قطعت يده، مما يدل على أن الشريعة الإسلامية والقائمين على تنفيذها يخففون من عقوبة هذه الجريمة بشكل ملحوظ، ولا يلجئون إليها كثيراً. ولا نستطيع إرجاع هذا الأمر إلى ندرة اللصوص، بل بالأحرى إلى التعريف الدقيق للسرقة التي يتوجب فيها إنزال مثل هذا العقاب بالسارق. فتكون سرقة لأشياء ثمينة ذات قيمة عالية مؤمنة ولا تخضع للمال أو الملكية العامة. أما في الأزمات الطاحنة فلا يلجأ القضاء إلى هذا العقاب، بل تعلق إقامة هذا الحد كما حدث في زمن خلافة عمر بن الخطاب.

إذا ما وجد منتقدو الإسلام وأعداؤه أحكاما إيجابية في القرآن، مثل مبادئ التسامح والحث على تقبل الآخر باختلافاته، كما ورد في سورة البقرة الآية ٢٥٦(**) والمائدة الآية ٤٨(***)، فسرعان ما يقومون بتجاهل هذه المبادئ العظيمة، بقولهم إن ما يتم في الحقيقة إنما هو أمر آخر مخالف لذلك.

أما إذا وقعوا على حكم لا يلقى قبولا في أنفسهم مثل حد السرقة، فإنهم يركزون بشدة على الحكم، متغاضين تماما عما يحدث في الواقع. ويُعَدّ اتهام العالم الإسلامي بالقسوة بسبب ما يقال عن حد السرقة، مع التغاضي عن عدم إقامته في التطبيق العملي، أمرا من أمور ازدواج المعايير الأخلاقية.

هذه النظرة الخاطفة وما يتبعها من تناول تفصيلي لدور المرأة في فصل «متساوو

(*) قال الله تعالى: ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾.

(**) قال الله تعالى: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾.

(***) قال الله تعالى: ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾.

الحقوق أم سواسية؟» تؤدى بنا إلى نتيجة نهائية، مفادها أن حقوق الإنسان فى الإسلام لا تتطابق بشكل كلى مع ما يتضمنه إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة، ولذلك يقبلها الكثير من البلدان الإسلامية بشرط عدم تعارضها مع الشريعة الإسلامية. ولكن كما رأينا، فإن مجال الاختلاف ضئيل جدا حتى إننا يمكننا عَدُّ قوانين الإسلام تكميلية لإعلان حقوق الإنسان، إذا لم يكن المرء سيئ النية.

أما بالنسبة لنقاط الاختلاف، فقد استطعت أن أوضح أن بإمكاننا فى بعض النقاط المحددة والتفصيلية، بالرجوع إلى مصادر الإسلام، وإذا ما أخذنا بالاجتهاد بشكل إصلاحى وبالتمسك التام بالقوانين الإسلامية والحدود، أن يتم التخفيف من حدة هذه الاختلافات.

ولكن تبقى هذه العملية فى حدودها الضيقة؛ لأن الشريعة بصفتها قانونا إلهيا غير معرضة للتحريف أو التغيير، حتى وإن بدت هذه التغييرات فى صالح المصلحة العامة، أى أن يتفهم الغرب الإسلام ويتقبله بشكل أفضل.

فماذا يفيد الإسلام الغرب (والمسلمين) إذا لم يختلف عنه؟

* * *

ديمقراطية ـ شورى قراطية

شعار: القائل بأن الديمقراطية هى من قبيل عدم الإيمان، لا يفهم شيئًا عن الإسلام أو الديمقراطية.

(الشيخ يوسف القرضاوى فى ٥ من فبراير عام ١٩٩٠ لجريدة الشرق الأوسط اللندنية).

ـ ١ ـ

إن ما ذكرته عن حقوق الإنسان أردده ثانية، فيما يتعلق بالجدال الدائر حول الديمقراطية مع المسلمين فى العالم الإسلامى. إن نتيجة هذا الجدال المحموم سواء بمفهومه الإيجابى أو السلبى، سيكون له أعظم الأثر على مستقبل الإسلام عامة وفرص انتشاره ووجوده فى الغرب.

إذا لم يتمكن العالم الإسلامى من تأكيد العنصر الديمقراطى الأصيل الكامن فى تكوينه، وإذا لم يوضح أن هدفه النهائى ـ المهدر حتى الآن ـ هو الديمقراطية، فإن الغرب لن يقبله كنموذج يحتذى به، وسيترتب على ذلك أن المسلمين لن يتمكنوا من تحقيق وتطوير إمكاناتهم فى شتى المجالات: الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، وسيعقب ذلك تخلفه وعجزه السياسى.

إننى أقول هذا دون أن أنسب لنفسى مقولة محمد سعيد العشماوى الاستهزائية: «أراد الله أن يصير الإسلام دينًا، ولكن حوله الناس إلى سياسة»[1].

---

(١) عشماوى ص ١٣.

لا يمثل الدين والسياسة أدنى تناقض بالنسبة للمسلم، فالأمر لا يدور حول تقديس ما، ولكن أسلمة السياسة.

-٢-

إذا ما تطرقنا إلى موضوع الديمقراطية، فإن من المفيد جدا التأكيد على أن الإسلام - فيما عدا شكله الصوفى[٢] - دين دنيا وآخرة على حد سواء، وبالتالى دين سياسى إلى درجة كبيرة. فالله بالنسبة للمسلم حاضر فى الدنيا والآخرة، ولذلك يتوجه المسلم بعد أدائه لصلواته بهذا الدعاء إلى الله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]. ويحذره القرآن فى سور القصص ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [الآية ٧٧]. كما يأمر الإسلام المسلم بأن يؤدى مسئوليته فى نطاقه، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته[٣]. كما أن على المسلم أن يستنكر الخطأ، وأن يغير الأمر المنكر وفق الحديث الشهير: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[٤].

وهذا لا يدع مجالاً للشك فى تطبيق الإسلام فى مجالات الدولة والاقتصاد. فلا يستطيع مسلم حقيقى أن يكتفى بمجرد الاعتراف باعتناقه الإسلام[٥].

---

(٢) يرى سيد قطب أن الصوفية كان لها تأثير المخدر على الإسلام، الإسلام هذا الدين الحى، الديناميكى بطبيعته. وقد كان لهذا التأثير المخدر أن سُلب الإسلام الرغبة فى تشكيل العالم، كما خدر المجتمع الإسلامى كله (قطب ص ٨٧).

لقد اتهم ابن تيمية من قبل فى القرن ١٤ الصوفية بإفسادها للإسلام، فقد قامت الكثير من الطرق الصوفية بالانسحاب من الحياة السياسية فعلاً.

وتواجه - حتى يومنا هذا - الطرق الصوفية المغاربية فى منطقة وزان الاتهام بعدم ولائها للوطن وبتعاونها مع المحتل الفرنسى السابق، بينما كان أسلافهم من المرابطين محاربين أشداء يدافعون ببسالة عن دينهم وأوطانهم ضد الدخلاء من البرتغال والإسبان. بالنسبة لموضوع نقد المتصوفة، انظر كذلك عثمان (١٩٩٧) ص ٤٤٠ - ٤٤٢.

(٣) البخارى [٢٤٠٩ و٢٥٥٤]، وأبو داود [٢٩٢٨]، والترمذى [١٧٠٥].

(٤) مسلم [٧٨/ ٤٩]، والترمذى [٢١٧٢]، والنسائى ٨/ ١١١ - ١١٢.

(٥) قطب ص ٨٧٠.

لقد استطاع الإسلام بدمجه الدين بالدولة، أن يقدم نموذجًا يختلف تمامًا عن مفهوم الغرب للدين. **ولقد أشار ولى عهد بريطانيا الأمير شارلز فى الخطبة التى ألقاها يوم ٢٧/ ١٠/ ١٩٩٣ فى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية إلى الحقيقة التالية: «إننا نقع فى شرك يتسم بالغرور الشديد إذا ما اختلط علينا الأمر، وقدّرنا أن الحداثة فى بلدان أخرى هى فى أن يصيروا مثلنا. جوهر الإسلام هو رؤيته الاندماجية للكون. لقد خسر الغرب هذه الرؤية الاندماجية رويداً رويداً، حتى أضاعها».**

من حقائق الأمور أن موقف المسيحية الأولى - على أقل تقدير - من السياسة يختلف عن موقف الإسلام. فالمسيح لا ينتمى إلى عائلة ذات زعامة فى قومها، كما أنه لم يشب ويكبر فى عاصمة المملكة اليهودية، بينما ولد محمد - صلى الله عليه وسلم - فى مكة المركز الاقتصادى والدينى لشبه الجزيرة العربية، سليلاً لعائلة من كبريات العائلات، تتوارث المهام السياسية والزعامة. ويزداد هذا الفارق حدة لأن المسيح رأى الآخرة تقف مباشرة أمامه، ولذلك رأى المسيحيون الأوائل أنفسهم كآخر المسيحيين. ومن هذا المنطلق كان التفكير فى تأسيس دولة مسيحية أمرًا لا معنى له، خاصة أن المسيح لم يحسُب نفسه صاحب دين جديد يبشر له، إنما هو مصلح للدين اليهودى، مثله مثل جماعة قمران. أما محمد - صلى الله عليه وسلم -، فكان يتوقع الاحتمالين، فناء سريعًا للدنيا، أو استمرارية مديدة للتاريخ(*). كما وجّه محمد صلى الله عليه وسلم - مسار الدعوة الإسلامية إلى تأسيس دولة إسلامية، خاصة بعد مطاردة أهل مكة للمسلمين الأوائل، وهجرة هؤلاء إلى الحبشة، كما شجعته دعوة أهل يثرب إلى بلدهم والإقامة فيها عام ٦٢٢، لتأسيس دولة تكفل للمسلمين ممارسة دينهم[٦].

فى ضوء ما سبق ذكره، نستطيع أن نفهم - بطبيعة الحال - أن يخلو العهد الجديد من نصوص ذات طبيعة قانونية وتنظيمية، - اللهم إلا عددا محدودا جدا - بينما يزخر القرآن والسنة بالمئات من القوانين التى تنظم الحياة اليومية، بما فى ذلك المعاملات الاقتصادية والحياة السياسية.

(*) ويتجلى ذلك فى القول المشهور: اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبد الدهر (الناشر).

(٦) حميدالله (١٩٧٥).

لقد ظهرت الأمة الإسلامية ككيان جديد فى تاريخ البشرية، لا يعتمد الانتماء إليه على لغة أو لون أو أصل أو جنس، ولكن يعتمد فقط على الدين والإيمان المشترك(٧).

كما لم يختلف الإسلام عن المسيحية - على أقل تقدير لما يقرب من ١٢٠٠ عام - فيما يخص وجودهما وأثرهما العلنى العام.

فلقد استطاع القيصر قسطنطين باستيلائه على الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الرابع أن يعلى من شأن المسيحية ويضعها فى مصاف دين الدولة العظمى.

أما ما نتج عن هذا الأمر، فهو معروف، فلقد ظهرت مصطلحات مثل: مملكة الرب، تقسيم السلطة الدنيوية بين القيصر والبابا، الخلاف حول تنصيب القيصر عن طريق البابا، ومسيرة إعلان التوبة التى قام بها الملك هنرى الرابع، والتى عرفت بمسيرة كانوسا(*) متذللاً طالبًا العفو من البابا جريجور السابع عام ١٠٧٧. وكذلك إقامة دولة الڤاتيكان، وسطوتها والحروب الصليبية ومحاكم التفتيش، ومحاكمة الساحرات وحرقهن، وتحالف الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيل.

وإننى أفسر عصر النهضة وحركات الإصلاح والتنوير فى أوروبا، على أنها رد فعل لسيطرة واستبداد الكنيسة فى مجال السياسة.

يمكن للمرء أن يُبقِى على التاريخ تاريخًا، أى ماضيًا إذا كان التاريخ فعلاً ماضيًا.

إن التحليل لعلمانية الغرب، وفك الرباط الدينى بين الكنيسة والدولة يوضح - بالرغم من كل ما يقال - أن الدولة والمجتمع، أى السياسة فى أوسع معانيها، إنما هى ذات صبغة مسيحية - بالرغم من كل ما يساق لنفى هذه الحقيقة - سواء كان هذا من الدين المسيحى أو الحضارة المسيحية، لذلك يرى چيفرى لانج - Jeffrey Lang أن تعبير علمانية الغرب، تعبير خاطئ ويجانبه الصواب تمامًا(٨).

إن الدولة والدين فى جمهورية ألمانيا الاتحادية على سبيل المثال يبدوان منفصلين،

---

(٧) قطب ص ٣٧-٣٩.

(*) نسبة إلى مدينة كانوسا فى إيطاليا - (المترجم)

(٨) Lang (١٩٩٥) ص ١٩١.

ولكن هناك أعياد وإجازات دينية تقرها الدولة وتحميها . وهناك كذلك جمعيات دينية تحظى باعتراف وحماية الدولة . وتحصل الجهات المالية الحكومية ضريبة الكنيسة من أجل مساندتها .* يقوم مدرسون حكوميون بتدريس مادة الدين فى المدارس الحكومية . كذلك يتم الأخذ بالقسم بالله أمام المحاكم ، وفى القوات المسلحة ، كما يتم توظيف رجال دين بهذه القوات ، وتجد على حوائط الفصول الدراسية بالمدارس المسيح مصلوبًا .

أما فى قانون العقوبات ، فتجد نصا فيما يخص الجرائم التى تستدعى توقيع عقوبة فيما يخص الدين والرأى (الرؤية الدنيوية) . وفى الفقرة ١٦٦ هناك ما ينص على حماية المشاعر الدينية (ليس المسيحية فقط) ، كما يتوجه الرئيس والمستشار الألمانى بالحديث إلى الشعب الألمانى فى مناسبة أعياد الميلاد ، وهى مناسبة دينية . لا يستشعر الألمان هذا على أنه فعل من أفعال جاهلية القرون الوسطى . إذن فلماذا تشويه الإسلام وإلصاق كل الصفات والنعوت الشيطانية به ، بصفته يدعو لتأييد دور الدين فى الدولة؟ فالإسلام لا يهدف إلا إلى دولة فى هذا النطاق ، دولة يتآلف فيها الدين والسياسة ، والدين والاقتصاد ، والدين والمجتمع . ولا يهدف بأى حال من الأحوال إلى چرمنستان معربة ذات حكم ثيوقراطى يقوده رجال دين من قبيل مُلاً على ضفاف الراين .

هناك ليبراليون متطرفون ، ويساريون ، وكذلك ملحدون متشددون من جميع المعسكرات والاتجاهات ، يرون فى الارتباط الدائم والمستمر بين الدين والكنيسة مأساة عظمى . فهم لا يكتفون بالدرجة التى وصل إليها تهميش الله ونزع المسيحية فى أوروپا . ومثالهم الذى يجب أن يحتذى به الجميع هو المكسيك وفرنسا ، كدول تفصل الدين عن الدولة تمامًا . وهذا الاعتقاد خاطئ تمامًا ؛ لأنهم يتناسون أن الدين يمكن أن يظهر فى صور شتى ، مثل الأشكال البديلة للدين كالكمالية وغيرها . وأحد أعراض هذا الموقف هو المفهوم الأمريكى «Political Correctness» الذى أخذ ينتشر عندنا . وإننى لا أرى تفسيراً مقنعًا لمحاولة طمس بعض الموضوعات فى السياسة والإعلام وتحويلها إلى محرمات . كما لا أجد تفسيرا مرضيا لعدم التسامح الذى يعبر عن نفسه بأشكال عنيفة أمام مظاهر دينية ـ كارتداء غطاء الرأس للمسلمة ـ

إلا فى سيادة بدائل للدين تبدو فى ظاهرها فقط علمانية (كما كان الحال من قبل مع الشيوعية).

لا يخلع المسلم دينه عن نفسه فى الحياة العامة ومجال العمل، كما يخلع المرء ملابسه، شأنه فى ذلك شأن أتباع بعض الجماعات الإنجليكانية وجماعة Opus Dei (هى إحدى الجماعات المسيحية من غير رجال الدين، ويعرف عنها التطرف والعنف)، فهو نشيط سياسيًا بطبعه. ويبدو هذا مناقضًا للمفهوم الغربى الذى يحصر الدين فى المجال الشخصى الفردى فقط. ولكن على مؤيدى هذا الاتجاه القائل بحصر الدين فى المجال الشخصى، أن يتذكروا جيدًا أنه - بناءً على الخبرة - ما أمكن لكيان دولة أن يعيش طويلاً إلا بوجود ثوابت غير دنيوية تسانده.

ولقد أيقن كل من نوڤاليس Novalis وكانط Kant، وهما من أنصار العقلانية، أن القوى الدنيوية لا تستطيع أن تحافظ على توازنها، ولكن النتيجة تكون دائمًا غابة من المصالح ما لم يتماسك المجتمع بفعل الدين. وإلا لماذا ترهق اللجنة الأوروبية نفسها بمشروعها «Giving a Soul to Europe» «منح أوروبا روحًا»، إلا لكى تسرى بعض الروحانيات فى القارة القديمة من جديد؟

لقد توصل Daniel Bell منذ ما يقرب من ربع قرن فى عمله « التناقضات الثقافية للرأسمالية «The Cultural Contradictions of Capitalism» إلى ما يلى: إن الرأسمالية التى تقوم على أسس وقيم كالڤينية - كما وضعها ماكس ڤيبر Max Weber (القيم البروتستانتية وروح الرأسمالية) - تؤدى إلى التدمير الذاتى إذا ما تحولت الرأسمالية إلى هوس تقدم اقتصادى وعلمى؛ لأنه فى هذه الحالة، تتحول فضائل حقيقية مثل الاجتهاد والوفاء وعدم الإسراف والالتزام ودوافع الإنجاز، إلى نقيضها، وتتسمَّم المنظومة كلها بتحولها إلى نزعة استهلاكية، وتسيب جنسى، وعدم مبالاة وتقليد أعمى.

إن عالم ما بعد الصناعة يوفر كل شيء ما عدا إجابات عن الأسئلة الكبرى التى تدور حول معنى ومغزى الحياة والوجود: من أين؟ إلى أين؟ لماذا؟

ومن هذا المنطلق صرح الأمير شارلز بتاريخ ١٠ من يوليو عام ١٩٩٦ فى لندن

فى أثناء إلقائه كلمة فى حفل عشاء: «لقد حاول العلم جاهداً أن يتحول إلى ديكتاتورية، وأن يحتكر رؤيتنا وفهمنا للدنيا، بفصل الدين عن العلم. إننى أومن بأن الإبقاء على القيم الحضارية مرتبط بالإبقاء على إحساس دفين بالمقدس فى قلوبنا». واستطرد أمير ويلز قائلاً: «إننى على اقتناع تام بأن عالمًا يمثل فيه العلم والدين مكونات أساسية لرؤيتنا، لهو عالم أكثر تحضراً وحكمة وتوازنًا. ولقد استطاع العالم الإسلامى أن يحافظ بشكل أفضل على رؤية العالم المتسقة والروحانية هذه، وهذا ما لم يتحقق لنا فى الغرب».

ولا ينقص المسلمين فهم طبيعة السياسة ولا الرغبة فى تقدم الدولة، والاقتصاد المزدهر، بل على العكس، لقد التزم المسلمون تاريخيًا بإقامة كيان دولة (غالبًا كيان واحد فقط)[٩] يضم كل المؤمنين، ويكفل للجميع المساواة، والعدالة، والرفاهية، والحرية والكرامة، أى نقيض الدولة القومية فى عالم الدول القومية.

لقد صور القرآن هذا الكيان الجماعى المثالى الذى يضم إخوة وأخوات: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

ولكل هذه الأسباب، أصاب سقوط الخلافة عام ١٩٢٤ العالم الإسلامى فى مقتل، بالرغم من أن هذه الخلافة كانت قد أصبحت منذ زمن مجرد رمز للوحدة السياسية للإسلام.

ويُعَدّ الحنين إلى الخلافة - إلى يومنا هذا - حقيقة ثابتة وقائمة لا تحتمل الإنكار، ولذلك استغرق الأمر الكثير من الوقت حتى يتقبل غالبية فقهاء المسلمين حقيقة نشأة كيانات قومية مسلمة (فى المناطق التى رسم حدودها الاستعمار) فى القرن العشرين.

فلقد كانت الدولة القومية بصفتها منتجا أوروبيا للقرنين ١٨، ١٩ - بعلمانيته الشديدة - دائمًا موضع رفض، وما كان لفقهاء الإسلام أن يتصوروا أن تقوم شعوبهم بالانخراط فى هذا الشكل السياسى، ولكن سرعان ما وجد الفقهاء الحل فى العودة إلى ابن تيمية، الذى قال منذ ٥٠٠ عام، إن الأهم بالنسبة لمستقبل

---

(٩) عرض رائع لهذه المناقشة، انظر تميمى (١٩٩٧، ١٩٩٨).

الإسلام هو وحدة الأمة والشريعة، وليس وحدة الدولة والخلافة. ولقد صاغ سيد قطب هذه الفكرة عام ١٩٦٤ بصفته المنظِّر الرائد لجماعة الإخوان المسلمين المصرية في المقولة: إن قومية الأمة هي إيمانها، ووطنها هو العالم الإسلامي دار الإسلام، وحاكمها هو الله، ودستورها القرآن، وبهذا احتلت الشريعة مكانة الخليفة كرمز للهوية والوحدة الإسلامية[١٠].

إن القانون الإسلامي - أي الشريعة - لا يتطلب شكلاً محدداً للدولة المثالية. فعلى كل جيل من المسلمين أن يجتهد للتوصل إلى تنظيم الدولة الذي يتماشى على أفضل سبيل مع موروثاته ودرجة تطوره، ويحقق أفضل مصالحه، من الممكن أن يكون هذا الكيان مملكة خاصة. إن القرآن يتحدث عن الملوك مثل الملك سليمان في سورة النمل، الآيات (٢٨ - ٤٤) وملكة عادلة ذات عقل راجح هي ملكة سبأ (غالبًا بلقيس).

ولكن من الجائز أن تكون هذه الدولة جمهورية مثل الدولة الإسلامية الأولى التي قامت في المدينة. فشريعة أهل السنة (غالبية المسلمين) لا تستلزم بأي حال دولة ثيوقراطية، أي دولة تحكمها سلطة رجال الدين على غرار ما يحدث في إيران.

أما أهم الشروط التي يجب توافرها في كيان حكم إسلامي صحيح، هو أن يسود فيه الإجماع على من يحكم وما يحكم، أي أن يتم الحكم بموافقة الغالبية، حتى يكون هناك عقد (بمفهوم روسو) يحكم العلاقة بين الشعب والحكومة، ويسمى العقد الاجتماعي، وهو في الإسلام البيعة.

-٣-

هنا نكون قد وصلنا إلى ذروة مناقشة «الإسلام السياسي»، وهي تتلخص في السؤال الآتي: ما موقف الإسلام من الديمقراطية؟[١١] ويمكننا أن نستمع إلى إجابات عديدة ومتنافرة. ولكن يمكننا القول بأن هناك بعض الأصوات آخذة في

---

(١٠) Krämer ص ٥٠ وبالنسبة لقطب ص ١١٠.

(١١) عن نزاع السيادة والسلطة انظر Khir (١٩٩٥).

الخفوت، وهى تلك الأصوات التى تعادل الديمقراطية بنظام الكفر وتعادل احترام سلطة الحاكم بالشرك.

وكما هو الحال بالنسبة لفكرة حقوق الإنسان، فهناك بعض الأفكار الخاصة بالديمقراطية مرتبطة عند المسلمين بمشاعر وخواطر محددة، تأتى مرتبطة بالقوى الاستعمارية التى هيمنت عليهم.

وهناك كذلك سبب آخر لنفور بعض المسلمين من الديمقراطية، وهو المعنى اللغوى حيث تتم ترجمة هذه الكلمة بأنها حكم الشعب وسلطة الناس. وبالنسبة للمسلم، فالحكم لله وحده. ولذلك يجب توضيح بعض مفاهيم، كالحاكمية. وكما هو متوقع، فإن سيد قطب يرى أن التشريع ووضع الأحكام بجميع صوره شأن من شئون الله وحده يختص به دون البشر.

أما المعارضون لفكرة سيد قطب هذه من أمثال محمد أسد، ومحمد سعيد العشماوى، وفتحى عثمان، وراشد غنوشى، وحسن الترابى وچيفرى لانج، فإنهم يقرون أن «حكم الله» لا يعنى بأى حال من الأحوال أن الله قد سلب البشر الحكم فى الدنيا. ولكن حكم الله يعنى بالضرورة أن تحكم كلمته أى القرآن وتحكم شريعته البشر؛ ولذلك يجد الإنسان نفسه أمام السؤال المهم: كيف يحول البشر كلمة الله وشريعته إلى قوانين ونظم تحكم حياتهم وتعاملاتهم[١٢]؟

ويرى حسن الترابى أن المثال الإسلامى ونظام الحكم الإسلامى الأمثل هو إسلام ديمقراطى؛ لأنه جاء على لسانه: «إن الإسلام يرفض الحكومات المطلقة والسلطة المطلقة والسلطة المورثة وسلطة الفرد»[١٣].

ولذلك، فإن من يتهم الديمقراطية بأنها غير إسلامية، فإنه ـ وفقًا لكلام فتحى عثمان ـ لا يفهم شيئًا عن الإسلام أو عن الديمقراطية أو عن كليهما. ولذلك فإنه من الظلم محاربة الإسلام بالديمقراطية، أو الهجوم على الديمقراطية، من منبر الإسلام[١٤].

---

(١٢) عثمان (١٩٩٤) ص ٧٠، Lang (١٩٩٥) ص ١٩١، تميمى (١٩٩٨) ص ٣٥.

(١٣) الترابى (١٩٩٢) ص ١٩.

(١٤) عثمان (١٩٩٦) ص ٥٨.

وليس من قبيل الظلم، بل من الخطإ الفادح، إلصاق العلمانية بالديمقراطية، فهما - أى الديمقراطية والعلمانية - ليستا مترادفتين، بل العكس، من الممكن وجود ثيوديمقراطية إسلامية كما يرى المودودى(١٥).

من المفهوم أن يرفض المسلم حكم الشعب إذا كان هذا يعنى أن تحكم مجموعة من الناس - لمجرد أنها تحظى بغالبية مقاعد البرلمان - كما يحلو لها وكما تصور لها أهواؤها: وأن تحكم بما تشاء وكيفما تشاء. ولكن هذا ليس الوضع الحقيقى حتى فى الديمقراطيات الغربية. فحكم الشعب ليس تسلط الشعب وقهر الشعب أو سلطته المطلقة. ولذلك فإن الدساتير الغربية لا تحمى مواطنيها من الدولة فقط بل تحمى كذلك الدولة من مواطنيها كما تحمى الأقلية من الأغلبية.

والوضع فى الإسلام ليس مخالفًا لذلك(١٦).

وهناك فكر سائد فى الديمقراطيات الغربية: أن هناك معايير وقيما لا تمس من القوانين بأى شكل من الأشكال.

وأعتقد أن على المسلمين بدلاً من الوقوف عند مفردات منفرة، وإضاعة الجهد فى مجادلات كلامية، أن يتبينوا أن أهم أهداف الديمقراطية ووظائفها، إنما هى تأمين وجود رقابة منظمة على الحكومات لمنع أى ظلم وتسلط وسوء استخدام للسلطة، وما هذا إلا جوهر الأهداف الإسلامية.

ويتم تحقيق هذا فى ديمقراطية إسلامية، بجعل القرآن الكريم المصدر الأعلى للدستور (سيكون هذا اللبنة الأولى لديمقراطية إسلامية). يجب أن توضع جميع القوانين المستمدة من القرآن الكريم موضع اعتبار وقياس من قبل قانونيين مسلمين. (هذه الخطوة هى اللبنة الثانية فى الديمقراطية الإسلامية). أما اللبنة الثالثة، فهى قيام حياة نيابية إسلامية بناءً على التوجيه القرآنى بوجوب الشورى، والذى ورد فى سورتين: سورة آل عمران الآية ١٥٩(*) وسورة الشورى الآية

---

(١٥) الترابى (١٩٩٢) ص ٢٤.

(١٦) الترابى (١٩٩٢) ص ٢١.

(*) قال الله تعالى: «وشاورهم فى الأمر».

٣٨[*]. وقد حملت هذه السورة هذا الاسم لأهميته، مما دفع بالشيخ محفوظ نحناح زعيم الحركة الإسلامية الجزائرية لأن يقترح تسمية الشكل الإسلامى للديمقراطية، شورى قراطية.

لقد أمرت الآية ١٥٩ من سورة آل عمران الرسول أن يشاور المؤمنين فى الأمر، والآية ٣٨ من سورة الشورى جعلت واجب الشورى يمتد إلى المؤمنين كافة وليس الرسول وحده، وسويت بفرض الصلاة. وهذه الصيغة ذات أهمية قصوى حتى وإن كان فرض الأخذ بالشورى - كما هو الحال فى الغرب - قد عطل وانتهى الأخذ به فى التاريخ الإسلامى الذى يتسم بالتسلط، ولم يعد الأخذ بالشورى موضع تنفيذ منذ حكم الأسرة الأموية فى دمشق عام ٧٥٠.

لا ينكر أى مسلم فى يومنا هذا وجوب الأخذ بالشورى، ولا نفكر حقيقة أن الشورى لا يمكن أن تتم فى المجتمعات الحديثة ذات الكثافة العالية من خلال كل الأفراد، بل من خلال مجلس منتخب يمثل ناخبيه كما فعل موسى من قبل[١٧]. (اللبنة الرابعة فى البناء الديمقراطى). أما السؤال الذى يمكن أن يطرح من وجهة نظر إسلامية ويكون موضع خلاف، ليس وجود مجلس للشورى، ولكن كيفية انتخاب أعضاء هذا المجلس.

فإذا قام الحاكم - كما هو متبع فى كثير من البلدان الإسلامية - بتعيين أعضاء هذا المجلس، فكأنما يقوم الحاكم الذى يجب مراقبته بمراقبة نفسه بنفسه. ولذلك هناك تأيد متزايد للانتخابات العامة الحرة لممثلى الشعب، ويحظى هذا الاقتراح بموافقة غالبية المسلمين[١٨]. (اللبنة الخامسة فى البناء الديمقراطى).

هناك عقبة من المحتمل أن تعوق الممارسة الديمقراطية، وهى أنه يجب على المسلم السنى أن يمتنع عن أن يطلب لنفسه منصبًا سياسيا. ولقد كان هذا الأمر - أى

(*) قال الله تعالى: «وأمرهم شورى بينهم».
(١٧) الآية ١٥٥ من سورة الأعراف.
(١٨) عثمان (١٩٩٦) ص ٤/ ٤٣.

أن يطلب المرء لنفسه منصبًا سياسيا - موضع رفض بل ازدراء، حتى إن الرسول محمدا لم يعين أحدا فى منصب قيادى قد يكون طلبه لنفسه[١٩].

أما إذا طبقنا هذا على معركة انتخابية، فلا يعنى هذا - من وجهة نظرى - ألا يسمح للمرشح بالدعاية لما يمثله (بالضرورة لنفسه)، ولكن لا يجوز أن يقوم هو باقتراح ترشيح نفسه.

أما إلزام الحاكم بالأخذ برأى ممثلى الشعب، فهو أمر لم يحسم بعد[٢٠]، ولكن هناك ما يؤيد وجوب هذا. وأول ما يؤيد هذا أن القرآن لا يرى الأمير أو السلطان وحده خليفة لله على أرضه، بل كل إنسان[٢١]. كل إنسان فرد خليفة (من هذا المنطلق فإن الإسلام يعرف سلطة الشعب).

وهناك من السنَّة ما يؤيد هذا، فلقد أخذ محمد - صلى الله عليه وسلم - بمبدإ الشورى فى الأمور غير الدينية، وكان يستجيب لرأى الغالبية، حتى وإن خالفت رأيه. فقد اتبع رأى الحباب بن المنذر قبل موقعة بدر (٦٢٤) بجعل مواقع المسلمين قبل آبار المياه وليس بعدها.

ولقد استجاب لرأى سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة فى المعركة التى حملت هذا الاسم (معركة الخندق) عام ٦٢٧، وهو عمل غير مسبوق فى وقتها[*].

أما فى موقعة أحد عام ٦٢٥ فقد نزل الرسول على رأى الغالبية ونفذه مخالفًا بذلك رأيه الخاص. ولقد خسر المسلمون هذه الموقعة؛ لأنهم خالفوا رأى الرسول وقاتلوا أعداءهم المكيين فى ساحة قتال مكشوفة[٢٢]. (اللبنة السادسة فى البناء الديمقراطى).

---

(١٩) ففى الحديث: «إنا لا نولى على هذا العمل أحدًا سأله، ولا أحدًا حرص عليه» البخارى [٧١٤٩]، ومسلم [١٤/ ١٧٣٣].

(٢٠) عثمان (١٩٩٦) ص ٨٣.

(٢١) يتضح أن كل إنسان ممثل ونائب عن الله من الآية ٣٠ من سورة البقرة، والآية ١٦٥ من سورة الأنعام، والآية ٥٥ من سورة النور، والآية ٦٢ من سورة النمل، والآية ٣٩ من سورة فاطر.

(*) بل إنه توقف عن مفاوضة بعض الأحزاب لينصرفوا عن قتاله، عندما تجمعوا على المسلمين فى المدينة لاستئصالهم، وذلك بناء على رأى كل من سعد بن معاذ وسعد بن عبادة.

(٢٢) قارن هيكل ص ٢١٩، ٢٢١، ٢٣٢، ٢٤٢، ٢٥٢، ٢٥٤.

يذكر القرآن إمكانية اختلاف آراء ووجهات نظر المسلمين (الآية ٥٩ من سورة النساء)(*) إلا أنه بالرغم من ذلك، يحث المسلمين على تفادى الخلافات الداخلية ويحضهم على التآلف فيما بينهم. وهذا الاحتياج للتآلف والوحدة قد يكون قويا حتى إنه يتسم ببعض السمات السلطوية التى تأخذ شكلاً متسلطاً(٢٣). ويعبر هذا الاحتياج إلى التآلف والوحدة عن نفسه فى صور شتى، مثل الخوف من وجود تناحر وخلافات بين الأحزاب المسلمة فى البرلمان (فى ماليزيا). يزيد الخوف من الخلافات والرغبة فى البعد عنها إيمان بعض المسلمين بأن القرآن يتضمن إجابات واضحة لا تقبل التأويل لجميع الأسئلة، وبالتالى فإن اختلاف وجهات النظر ما هو إلا دليل لسوء النوايا (أو ما هو أسوأ من ذلك). ألم يذكر القرآن أن هذا الكتاب لم يغفل عن أى صغيرة أو كبيرة كما ورد فى سورة الأنعام [الآية ٣٨] ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾؟ وكذلك قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

هؤلاء يتجاهلون بتفسيرهم هذا أن الإسلام إنما أتمه القرآن فيما يتعلق بأصول المسائل الدينية، كالعقيدة والعبادة والأخلاق؛ ولذلك فاختلاف وجهات النظر مقبول وجائز عند تطبيق المقاصد القرآنية العريضة فى مجالات الحياة المختلفة الأخرى، ومن بينها السياسة. ولكن الإسلام يستنكر أن تصل هذه الاختلافات إلى قتال أو أى أشكال للعنف(٢٤) (حديث من صحيح مسلم)(٢٥) ومن المعروف أن

(*) قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول».

(٢٣) عثمان (١٩٩٦) ص ٥٥.

(٢٤) عثمان (حقوق الإنسان ١٩٩٦) ص ١١. يستند البعض فى رفض الاختلافات إلى الروايات التالية: البخارى: ٤/ ٤٦٨، ٥/ ٤٣٤، ٥/ ٧١٧، ٦/ ٥١٠، ٩/ ٦٧، ٩/ ٣٩٠. مسلم: ٦٤٤٧ لابد وأن الخوف من تجديدات غير مسموح بها كان له دور مهم فى هذا. انظر مسلم رقم ٦٤٥٠ حيث يروى مسلم فى هذا الحديث عن تحذير الرسول من الخلافات التى تؤدى إلى صراعات وتفرقة.

(٢٥) يتم التحذير من الفرقة والنهى عنها فى حديث مسلم رقم (٥٣/ ١٨٤٨): «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات؛ مات ميتة جاهلية» وفى صحيح مسلم أيضا رقم (١٥/ ٢٨٨٨): «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول فى النار» قيل: يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه قد أراد قتل صاحبه». دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبى.

الصحابة - كانوا كثيراً ما يختلفون ويتجادلون بشدة حول المسائل ذات الطبيعة السياسية والعسكرية. كما قامت نزاعات حول مسألة الخلافة، حتى إن كلا من الخليفة الثالث والرابع عثمان وعليّ لقيا حتفهما فى ذلك.

إن شرعية محاولة التمسك بالسلام السياسى لا يؤدى إلى الإجابة عن السؤال التالى: ما العمل إذا لم يتوصل الإخوة إلى الإجماع؟ يخشى بعض المسلمين فى هذا الوضع من ضرورة الأخذ برأى الغالبية، ويعود خوفهم هذا إلى عدم تقديرهم السليم للمساحات المتاحة لأخذ القرارات فى المجلس النيابى الإسلامى من ناحيتين، أولاً: يعطونها أكثر من قدرها بناءً على الآية ١١٦ من سورة الأنعام والتى تحذر من اتباع الغالبية حتى لا تضل عن طريق الله وهداه ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾.

هذا الخوف لا مجال له؛ لأنه لا يحق لممثلى الشعب فى حكومة ديمقراطية إسلامية أن تصدر أحكاما أو مخالفة لما أقره القرآن والسنّة فى المسائل الشرعية والدينية، سواء بقرار يحظى بغالبية الآراء أو بغيره (أقصى الصور المتشددة لتنفيذ هذا المبدأ هو ما يجرى فى المملكة العربية السعودية، حيث القرآن والسنّة هما مصدرا الأحكام مباشرة).

من ناحية أخرى، فإنهم يقللون من قدر المساحات المتاحة فى المجالس النيابية لاتخاذ القرارات؛ لأنهم يغفلون عن وظيفة أساسية للبرلمان الإسلامى. فالبرلمان الإسلامى لا تنحصر وظيفته فى البت فى الأحكام الموجودة فعلاً فى القرآن والسنة، ولكن هناك مجالات أخرى تتعدى ما هو موجود فعلاً، مجالات يجب إصدار أحكام فيها بما لا يخالف المبادئ الأساسية والأخلاقية للإسلام، بحيث تتطابق مع القرآن والشريعة ولا تخالفهما[٢٦]. (اللبنة السابعة فى البناء الديمقراطى).

فهناك فى آخر الأمر ضرورة لإصدار تشريعات لا تنظم الجوانب الفنية لبناء الشوارع والتعريفة الجمركية والمسائل الصحية وضمانات العمل وغيرها فقط، بل أيضا هناك ضرورة لإصدار أحكام تكميلية فى مجال التعزير مثلاً. حدث هذا فى

---

(٢٦) انظر مسلم: ٥٨٣٠ - ٥٨٣١.

عهد الخلافة العباسية، حيث وجد نظامان للأحكام، تزامنا معًا: أحكام الشريعة من ناحية، ومن ناحية أخرى نظام إدارة وأحكام متحرر نسبيا تم من خلاله استحداث عقوبات لم يذكرها القرآن، مثل دفع الغرامة نقدًا، والسجن(٢٧).

وجود المنفذين والمشرعين جنبًا إلى جنب يكفل تقسيم السلطات للديمقراطية الإسلامية (اللبنة الثامنة). ويعبر عن هذا أوضح تعبير انتخاب رأس الدولة عن طريق انتخابات نيابية. يجب وفق الموروث الإسلامي، وبالنظر إلى دور الرسول من خلال القرآن، أن يرأس الدولة شخص فرد (ذكر) فلا وجود لمجلس ثورى، ولا مكتب سياسى.

يجب أن يكون هذا الشخص أكثر الشخصيات ورعًا وتقوى بين من يصلح لتولى الحكم بشكل موضوعى؛ لأنه من المتوقع من مسلم ورع - يؤمن بالطبيعة الإلهية لأحكام القرآن - أن يتبع هذه الأحكام ويدافع عنها. كان هناك فى الحكم العثمانى منصب الوزير الأكبر، ولم يشترط لهذا المنصب أن يكون من يشغله مسلما أو رجلا.

يعتقد الكثيرون من المسلمين - برغم النموذج الإيجابى الذى تمثله ملكة سبأ ويذكره القرآن - أن الدولة التى ترأسها امرأة لا يتاح لها الكثير من فرص النجاح والازدهار. يستندون فى ذلك إلى تعبير محمد - صلى الله عليه وسلم - عن شكه فى نجاح ابنة ملك فارس فى حكم بلادها (لقد حكمت فعلاً لفترة قصيرة). ولكن هذا الرأى يستند إلى الرواية الشائعة لأبى بكرة، وهذه الرواية إعلامية أكثر منها تشريعية(٢٨)، (موقعة الجمل عام ٦٥٦ عند البصرة، والتى قادت فيها عائشة زوج

---

(٢٧) تعزير (الجمع: تعازير): قانون عقوبات وعلاقاته بالحدود القرآنية، انظر Doi ص ٢٢٨، ٢٢٢ والترابى (١٩٩٢) ص ١٤ و ص٣٨.

(٢٨) الحديث: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» البخارى جزء ٩ كتاب ٨٨ رقم ٢١٩ ص ١٧١، رسول ص ٧٤٣ حديث: ٧٠٩٩ لتقسيمه وتفسيره انظر عثمان (١٩٩٦) ص ٥١. Lang (١٩٩٥) ص٧٠، ١٩٦ يعتقد أنه صعب أن نحدد إذا ما كان هذا الحديث تعليقا سياسيا أو يتضمن مبدأ. ويمكن أن نذكر هنا حديث أنس: أن النبى - صلى الله عليه وسلم - مرّ بقوم يلقحون النخل فقال: «لو لم تفعلوا لصلح» قال أنس: فخرج شيصًا (البسر الردىء). فمر بهم فقال: «ما لنخلكم» قالوا: قلت كذا وكذا؛ قال صلى الله عليه وسلم: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» مسلم [١٤١/ ٣٦٣]. وقد ينظر للحديث على أنه واقعة حال لا تعمم؛ لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم ينه المسلمين صراحة عن ذلك، والله أعلم.

الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحد المعسكرين المتحاربين فى وجه الخليفة على بن أبى طالب) . لقد استطاع العالم الإسلامى أن ينجب رؤساء حكومات من النساء أكثر مما تحقق لألمانيا وفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية مجتمعين، من أمثال بى نظير بوتو (١٩٨٨) والبيجوم خالدة ضياء (١٩٩١) .

واستقراءً لتاريخ خلفاء الرسول الأوائل، نستطيع أن نتبين عدم وجود نظام ثابت لاختيار الخليفة (اللبنة التاسعة) . لقد تم اختيار أبى بكر بعد جدال عنيف دار بين المهاجرين والأنصار . أما الخليفة الثانى عمر، فتم انتخابه عن طريق التسمية ثم البيعة، والخليفة الثالث عثمان تم اختياره من مجلس ضم ستة أشخاص اختارهم عمر قبل وفاته، ثم بايعه الناس . ونستنتج من هذا أن الإسلام لا يعترف حتى فى الممالك إلا بملك يتم تسميته وبقبول الناس ورضاهم، ويتم هذا بأفضل شكل فى صورة أخذ البيعة له .

ـ ٤ ـ

ينتج عن هذا العرض فى رأيى حقيقة ثابتة، هى أن الإسلام فى حد ذاته لا يعادى الديمقراطية، بل على النقيض يتضمن تسع لبنات أساسية لتوطيد أركان ديمقراطية إسلامية، ما على المسلمين إلا العمل على تحقيقها .

ولذلك يبدو اتهام المسلمين والإسلام بالعداء للديمقراطية ضربا من ضروب العنصرية . ويمكن بالتالى بالمثل اتهام الفرنسيين بعدم أهليتهم للديمقراطية؛ لأنهم انتخبوا فى خلال ٢٠٠ عام خمس جمهوريات، وإمبراطوريتين، ومملكتين، وحكم وطنى .

لن تتشابه الديمقراطية الإسلامية بالضرورة مع تلك التى فى ويستمنستر (الديمقراطية التى تحكم إنجلترا) لأن العالم العربى الإسلامى يملك أشكالا من التعددية والكونفدرالية والحضارة، وتوزيع السلطة ذات طبيعة خاصة به فقط . ولكن حتى فى الغرب فويستمنستر لا يشبه سوى ويستمنستر . ولا يصح أبدًا تعريف الديمقراطية بالشكل الذى يؤدى إلى وصف جماعة من الناس تؤمن بالله

وتستمد من إيمانها هذا أحكاما وقيما تحدد تعاملاتها، كمواطنين بأنها غير مؤهلة لممارسة الديمقراطية. ففى هذا الحال يصبح الأمريكيون ديمقراطيين سيئين جدا؛ لأن القضاء على المسيحية ظاهرة أوروبية وليست أمريكية. ويبقى تساؤل يستحق **التأمل، وهو: كيف يتم الترحيب بأحزاب مسيحية فى كل من ألمانيا وإيطاليا، وفى الوقت نفسه توصف أحزاب إسلامية كالتى فى تونس والجزائر بأنها غير ديمقراطية؟**

ومن الخطإ الفادح أن يتوصل المحللون للتاريخ السياسى للإسلام، وليس للإسلام وقواعده، إلى نتيجة مفادها: أن المسلم فيما يخص ممارسة الديمقراطية موصوم بعدم ممارستها بحكم ميلاده. فلقد عانت أنحاء العالم كلها فى آخر الأمر من مسألة الديمقراطية سواء دانت هذه الأنحاء بالمسيحية، أو الكونفوشيوسية، أو البوذية أو الهندوسية، أو اليهودية، أو الإسلامية. أما إفريقيا السوداء والصين ومعظم أنحاء آسيا وكذلك أمريكا الجنوبية فلم تنضم كلها بعد إلى معسكر الديمقراطية.

أما تطور الديمقراطية فى أوروبا، فقد استغرق قرونا كثيرة، وشهد انتكاسات مريرة. وفى هذا السياق، يكون إلصاق تهمة خروج العالم الإسلامى من التاريخ «Out of step with history» على حد وصف Mark Heller من قبيل الأحكام المسبقة وانعدام المعرفة بالعلاقات والخلفيات.

يأمل الكثير من مجموعات المعارضة - وبخاصة تلك التى تتخذ من الغرب مقراً لها - فى قبول آليات المراقبة الديمقراطية للحكومات. أما أن يتوقع المرء أن تهتم السلطات فى العالم الإسلامى بإقرار الديمقراطية وتطورها، فهو جهل تام بالطبيعة الإنسانية. ولكن لم يعد فى وسع هذه الحكومات إلا تبنى واجهة ديمقراطية (ديمقراطية شكلية).

ولكن يتفق معظم الكتاب الغربيين المشاركين فى الكتاب الذى يحمل عنوان:

Democracy without Democrats?

The Renewal of Politics in the Muslim World.

أديمقراطية بلا ديمقراطيين؟ تجديد السياسة فى العالم الإسلامى .

وصدر تحت رعاية غسان سلامة - بالرغم من عنوانه المثير للشك - أن العالم الإسلامى يشهد بعض التحركات فى اتجاه الديمقراطية ، وهذا الوضع وصل إليه العالم الإسلامى بفضل شخصيات مهمة عملت كل منها بطريقتها خطوة خطوة على التمهيد لإرساء قواعد التعامل الديمقراطى ، مثل جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ - ١٨٩٧) ، ومحمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) ، وعبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٩ - ١٩٠٣) ، ورشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) ، ومالك بن نبى (١٩٠٥ - ١٩٧٣) ، ومحمد أسد (١٩٠٠ - ١٩٩٢)[٢٩] ، وفتحى عثمان ، وحسن الترابى ، وراشد غنوشى المقيم منذ عام ١٩٨٩ فى منفاه بلندن[٣٠] وجيفرى لانج أستاذ الرياضيات الأمريكى المسلم فى ولاية كنساس .

ولذلك فإنه ، من المأمول أن يغلق ملف الديمقراطية - الشورى أخيراً ، كما يعبر عثمان عن أمنيته هذه[٣١] . فبدلاً من إبداء الدهشة ، من الأفضل الاعتراف بأن العالم الإسلامى ليس ساكناً - وللمراقب عن كثب - وأنه لم يكن كذلك أبداً[٣٢] .

فى ظل ما سبق ذكره ، أعتقد أنه على الغرب أن يراجع موقفه المتشكك والمنتقد من قبَل جماعة المعارضة الإسلامية التى ترغب فى تغيير الأوضاع فى أوطانها من خلالَ المناقشات الديمقراطية . إن هناك عوامل مشتركة بين هذه الحركات والحركات

---

(٢٩) لم يساهم أحد فى انطلاق النقاش حول الديمقراطية مثلما فعل محمد أسد (سابقًا Leopold Weiss) من خلال كتابه الأول الذى ظهر لأول مرة عام ١٩٦١ فى كاليفورنيا ، هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته ١٠٧ «The Principles of State and Government in Islam» «مبادئ الدولة والحكومة فى الإسلام» .

ولقد توصل إلى نتيجة تؤكد إمكانية قيام دولة إسلامية تماثل النظام الأمريكى الرئاسى .

(٣٠) أهم كتب الغنوشى فى هذا الموضوع هو «الحرية العامة فى الدولة الإسلامية» . انظر تميمى (١٩٩٨) حيث يشتمل على ملخص رائع لفكره .

(٣١) عثمان (حقوق الإنسان ١٩٩٦) ص ٢٤ .

(٣٢) لقد أثبت Schulze هذا للقرن الـ ١٨ .

التى تنادى بحقوق الإنسان وحق المواطنة، وحركات حماية البيئة، والحركات التى تهدف إلى حماية المرأة والمجموعات الإثنية(٣٣).

إن أعضاء هذه الحركات يعرفون كما يعرف الكثيرون من الناس فى الغرب ممن يعملون عقولهم فيما وصل إليه العالم اليوم، أن المجتمع الحديث ليس أمامه سوى ثلاثة خيارات: أن يستمر متمسكًا بمشروع الحداثة بمفهوم تنويرى عقلانى، أو الاستسلام للنسبية الحضارية غير القادرة على إنتاج معنى أو مغزى للحياة، أو إحياء روابطهم بدياناتهم. يرى الكثير من الأكاديميين من شباب المسلمين فى «مشروع الحداثة» نموذجًا مفلسًا، وما بعد الحداثة ما هو إلا طريق فكرى مسدود لا أمل فيه، لذلك فهم يراهنون ويختارون دين آبائهم؛ فما الضرر من ذلك؟

إن محاولتهم لتسييس الإسلام بصفة أيديولوچية تحرر وتقدم، هى إجابتهم الفكرية وردهم على سيطرة الغرب على مجريات الأمور. فالإسلام بالنسبة لهم دافع وشرعية وتسويغ لأفعالهم، مثله مثل كل الأديان. إنهم يهدفون إلى أن يستبدلوا بمجتمع الأنا مجتمع النحن، مجتمع التعاون والتكافل، هذا التعاون الذى يتضمنه الإسلام فى صور شتى مثل عباداته (الصلاة والصيام والحج والزكاة). ولا يجب أن تحرم هذه الجماعات والحركات من حق المعارضة والمقاومة(٣٤).

ولكن من الطبيعى أن نفهم قلق الغرب من تولى جماعات إسلامية عرف عنها استخدام العنف للسلطة فى بلادها، فماذا يمنع هذه الحركات فى حال توليها الحكم من ممارسة العنف ضد معارضيها؟

تتميز الجماعات التى تكون على استعداد لتبنى العنف منهجا وأسلوبا باحتذائها

---

(٣٣) Pinn ص ٧٠ لا يزال Kepel بأفكاره معاصراً جدا لهذا الموضوع.

(٣٤) توصى السنَّة بالصبر على ظلم الولاة، ولكن ليس بالصبر بلا حدود على الظلمة والمتسلطين:
البخارى جزء ٩ رقم ٢٥٧ وما يليه.
رسول حديث رقم ٧٠٥٣ وما يليه.
مسلم حديث رقم ٤٥٥١ وما يليه.
نقلاً عن النووى حديث رقم ١٩٤، فإن أفضل الجهاد «أن تقول كلمة حق لحاكم ظالم».

الجماعات التى ثارت على العباسيين فى القرن الثامن، من حيث تصفيتهم لمعارضيهم، ونفيهم صفة المسلم عنهم وعن حكوماتهم. كما ينسب هؤلاء صفات تكاد تكون غير آدمية لأنفسهم، كما أنهم ينصبون من أنفسهم قضاة على الناس، ويحتكرون تفسير القرآن والسنة بما يتناسب مع أهوائهم، ويطلقون شعارات مثل «لا حكم إلا لله» وغيرها.

وسيظل الشك قائمًا - حتى يثبت العكس - فى أن بين الإسلاميين النشيطين سياسيا بعض من يتخذ الإسلام سبيلاً لتحقيق أهدافه الخاصة. لن يعقل أن يكون العالم الإسلامى قد خلا من المنافقين الذين عرف الإسلام أمثالهم، منذ بدايته فى المدينة والذين كثيراً ما ورد ذكرهم فى القرآن.

لكن هناك بعض جماعات المعارضة الإسلامية التى تنهى تمامًا ومبدئيا عن استخدام العنف، حتى وإن كان مشروعًا ومبرَّرًا نتيجة لظروفهم وأوضاعهم. وهم بذلك يحتذون بمثال نبيهم الذى لم يقابل قهر أهل مكة وظلمهم وعنفهم تجاه المسلمين بعنف مماثل، بل فضل الهجرة والخروج من مكة (هذه الجماعات يتم تتبعها وملاحقة نشاطها، للخوف الشديد من تأثيرها خاصة أن دعوتها وجنوحها للسلام يمثل جاذبية خاصة).

يقوم أكاديميون تلقوا تعليمهم فى الغرب - غالبًا وفى تخصصات علمية - بدور مهم فى هذه الجماعات وصياغة أشكالها وعملها. إنهم كثيراً ما يعملون منطلقين من وجودهم فى الغرب، وينهجون أساليب ومناهج علمية غربية[٣٥]. ولا يوجد سبب يجعلنا نتهم مثل هذه المعارضة بعدم استعدادها الحقيقى والصادق لممارسة الديمقراطية والمحافظة على الدستور والعمل من خلال مظلته. ومن المناسب أن نقول إن هذه المجموعات الإسلامية الشابة هى الطاقة الأقوى ذات الصبغة الديمقراطية فى العالم الإسلامى اليوم. حتى إن Edward Luttwat يؤكد هذا بقوله:

«إن الإسلاميين هم المقاومة الفعالة الوحيدة فى مواجهة الحكومات غير الديمقراطية»[٣٦].

(٣٥) نقلا عن عثمان (حقوق الإنسان ١٩٩٦) ص ٢٥.

(٣٦) الترابى (١٩٩٢) ص ٢١.

لقد صرح حسن الترابي عام ١٩٩٢ في حوار دار في واشنطن دي . سي : «إذا كنتم تريدون إبعاد الإسلام، فعليكم الابتعاد عن صناديق الاقتراع في الانتخابات» .

وليس هناك من شك فيّ أن الأحزاب الإسلامية الديمقراطية ستفوز في الانتخابات في البلدان الإسلامية كافة ، بشرط أن تكون هذه الانتخابات حرة وتُجْرَى بنزاهة تامة . ولكن هل توجد مثل هذه الانتخابات الحرة النزيهة؟

* * *

متساوو الحقوق أم سواسية؟

شعار: يظلم بعض الفقهاء النساء، أو يحكم عليهن بالبقاء فى بيوتهن مدى الحياة.
(الشيخ يوسف القرضاوى ٥/ ٢/ ١٩٩٠ لجريدة الشرق الأوسط اللندنية).

-١-

تحدثنا سورة آل عمران فى الآية ٣٦ أن أم مريم قالت بعد ولادتها: ﴿ **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾.

لم يستعلم الله بطبيعة الحال من وزيرة عدل ألمانية إذا ما كان هذا الرأى - أى أن الذكر ليس كالأنثى - مقبولا سياسيا فى القرن الحادى والعشرين، أو إذا كان هذا ضد الدستور.

على أى حال، يوجه القرآن بهذه الآية كل النقاش والخلافات التى تدور حول علاقة الجنسين الرجل والمرأة إلى جوهر الخلاف. الرجل والمرأة، المرأة والرجل، هل هما مجرد متساوو الحقوق كما ورد فى الدستور المادة ٣ الفقرة ١١، أم هل هما وفق المادة ٣ الفقرة ١ متماثلان حتى يمكن أن يُساوَى بينهما أمام القانون؟

إننى أعى تمامًا أن هذا التساؤل غير مقبول سياسيا فى أوروبا، وكذلك فى أمريكا. فمجرد الرغبة فى البحث عن فوارق واختلافات محتملة بين الجنسين تتعدى الاختلافات البيولوچية، غير مرغوب فيه أيديولوچيا.

فمجرد البحث عن مستوى ذكاء البنين والبنات والفارق بينهما عامة، والفرق فى الموهبة فى مجال الرياضيات خاصة، يمكن أن يدمر مستقبل أكاديمى فى بلد يدَّعى

عدم وجود رقابة ويباهى بحرية البحث فيه كالولايات المتحدة؛ لذلك فإنه من قبيل الشجاعة أن يستنتج Daniel Coleman في كتابه «ذكاء عاطفي ـ Emotional Intelligence» خوارق ظاهرة واختلافات مهمة بين الرجل والمرأة فى هذا الصدد، ومن ثم تمكّن بعد ذلك من التوصل حسابيا إلى معايير إنجازات ونجاح. ولقد بدأ بعض الأطباء ممن تواتيهم الشجاعة لاقتحام مثل هذا المجال الشائك، من نشر بعض الفوارق والاختلافات المرتبطة باختلاف الجنسين. فبالنسبة للسمع على سبيل المثال، يتفوق النساء على الرجال فى قدرتهن على سماع الأصوات الخافتة.

أما الرجال، فيستطيعون تحديد مصدر الصوت ومكانه بشكل أفضل من النساء[1]. فهلا فكرنا فى مسألة رعاية الرضيع ومسألة الصيد؟

لقد اكتسب الإسلام سمعة سيئة فيما يخص موقفه من المرأة، حتى بات الناس يَعُدُّونه دينًا معاديًا للمرأة ـ ليس بدون ذنب على ما أعتقد[2] ـ وهذه السمعة السيئة ترمى بظلالها على جميع المحاولات للتوصل إلى تفاهم أفضل بين الغرب والشرق.

هذا الموضوع ومناقشته يدلان مرارًا وتكرارًا على حقيقة ثابتة، وهى نقص المعلومات عن الإسلام لدى الغربيين، بل ووجود الكثير من المعلومات المغلوطة عنه. فأحيانًا يتساءل أحدهم بجدية تامة: هل يعتقد الإسلام أن للمرأة روحًا؟ وهل يسمح لها بالحج إلى مكة؟ وهل يمكن أن تدخل المرأة الجنة؟ وينعقد لسان المسلم من الدهشة فلا يرد جوابًا.

وهذا دليل ومؤشر على أن مستقبل الإسلام فى الغرب لا يتوقف فقط على موقفه وفهم الغرب لهذا الموقف من موضوعات كحقوق الإنسان والديمقراطية، بل هناك كذلك موضوع «المرأة».

---

(١) Rolf Degen رولف ديجن: الفارق الصغير فى حاسة السمع.

Der kleine Unterschied beim Hören.

فى جريدة Frankfurter Allgemeine Zeitung تاريخ ٢١/ ١٠/ ١٩٩٨ ص ٢.

(٢) من هذه العناصر الحديث الذى رواه البخارى رقم [٣٠٤]، ومسلم رقم [١٣٢/ ٧٩]. والذى يتضمن معنى أن غالبية أهل النار من النساء.

ليحاضر أى مسلم فى أى موضوعات وليعرض أفكاره القانونية للتعامل مع تحريم الإسلام للربا، ولكن أول سؤال يوجه له دائمًا هو: «ما رأيك عن دور المرأة فى الإسلام؟».

وتظهر شحنة العواطف التى تختفى وراء هذا السؤال بشكل واسع النطاق، خاصة إذا اختزلت فى نقاط هامشية، مثل ارتداء الحجاب. هذا الأمر - غطاء الرأس هذا - يمكن أن يصيب بعض الدول فى صميمها إذا أعلوا من شأنه وجعلوه رمزًا وحَمَّلوه أكثر مما يحتمل حتى يصير أيقونة إسلامية(٣).

يجد الغربيون - على ما يبدو - صعوبات جمة فى قبول النموذج.

- ٢ -

لا تكذب الإحصائيات عندما توضح أن الأمهات، وكثيرًا من الآباء يفضلون الأبناء الذكور على البنات.

ويصور القرآن تفضيل الذكور على الإناث بشكل جمالي بليغ في سورة النحل الآيتين ٥٨ و٥٩: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.
وفى موضع آخر قص علينا القرآن نبأ أب اسود وجهه عند ما بشر بصبية فى سورة الزخرف الآيتين ١٧ و١٨: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا

---

(٣) عندما تجرأت Merve Kavaka، وهى عضوة البرلمان الجديدة عن حزب الفضيلة أن تدخل البرلمان التركى فى مايو عام ١٩٩٩ وهى مرتدية غطاء الرأس، أثار ظهورها هذا عاصفة مدوية فى الأوساط العلمانية فى تركيا حتى ليعتقد المرء أن هذه الدولة العلمانية التى يساند ١٠٨٠ من النوّاب وجودها، قد أخذت تهتز من جراء هذا التصرف.
لقد بثت إحدى القنوات التليفزيونية الخاصة فى ألمانيا فى خريف عام ١٩٩٨ برنامجًا تضمن وثائق تؤكد أن بعض طالبات كلية الطب فى إستنبول منعن من أداء امتحانهن الأخير لأنهن يرتدين غطاء الرأس. من البديهى إذًا أن يعنى مثل هذا التصرف أيضًا منع هؤلاء من مزاولة العمل فيما بعد.
لقد كان الموقف أفضل بالنسبة للألمانية Fereshda Ludin والتى سمح لها بأداء الامتحان فى شتوتجارت عام ١٩٩٨، ولكنها لم تستطع أن تشغل وظيفتها بسبب ارتدائها لغطاء الرأس!

وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. ثم يحرِّم القرآن وأد البنات بكلمات غاية فى القوة فى سورة التكوير الآيتين ٨ و٩ : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾.. وينطبق هذا على المولودة، وغير المولودة، أى الجنين فى رحم أمه.

فإذا كان وأد الأنثى من الأمور الشائعة عند العرب قبل الإسلام لظروف الفقر والحاجة، فإن عمليات القتل المنظمة للأجنة من الإناث قد شهد توسعًا هائلاً، خاصة منذ أن استطاع الطب أن يحدد نوع الجنين بواسطة الموجات فوق الصوتية، في دول مثل الصين، وتايوان، وكوريا الجنوبية، وپاكستان، والهند. وتستطيع أن تقرأ فى العيادات الطبية التى تقوم بإجراء عمليات الإجهاض، هذا الإعلان: «ادفع ٥٠٠ روبية ووفر ٥٠,٠٠٠». المبلغ الأخير يدفعه الأب ليجهز ابنته للزواج. ولقد أدى هذا الأمر إلى نقص حوالى ١٠٠ مليون أنثى فى آسيا (هذا الرقم تقديرى). أما في الصين فنسبة مواليد الذكور ١٠٠ بالنسبة لـ ٨٥ من الإناث[٤]. وحتى إذا ما حالف الحظ هذه الأجنة من الإناث وسمح لهن بأن يرين النور، فإن النساء معرضات منذ الأزل وفى أنحاء العالم كافة للاضطهاد وسوء المعاملة. ومن ينكر أن يكون هذا الأمر فى الغرب، فإنه يغفل ويغمض عينيه عامدًا عن حقائق كثيرة. كل هذا الاضطهاد والظلم وسوء المعاملة له أسباب مختلفة، منها أسباب ذات طبيعة نفسية، واجتماعية، وثقافية، وحضارية وكذلك اقتصادية. يقول محمد قطب: «لو اختفى الفقر عن مجتمعات الشرق، لتم حل جزء كبير من مشكلات المرأة»[٥]. ولكن من الخطإ، ومما يصيب الإسلام بالضرر، أن يختبئ المسلم وراء هذه الحقيقة فقط.

فقاسم أمين (١٨٦٣ـ١٩٠٨) أول المدافعين عن حقوق المرأة والداعين لأن تنال حقوقها بعد النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدد السياق الناتج عنه هذا الضرر الواقع على المرأة بأنه موروث حضارى، الدين برىء منه بقوله: «إنها الفوضى التى

---

(٤) Kausar ص ١٥٠ وص ١٥١.

(٥) محمد قطب ص ١١٥.

يدعى الناس أنها من الدين ويسمونها إسلام». لقد رأى قاسم أمين علاقة وثيقة بين تخلف المرأة وتخلف الأمة»[٦].

أما حسن الترابى - أهم المدافعين عن الحقوق التى يكفلها الإسلام للمرأة فى وقتنا هذا - فلقد رأى منذ ربع قرن مضى ضرورة قيام «ثورة ضد وضع المرأة فى المجتمع الإسلامى التقليدى». لقد استأثر الرجال بتغيير القوانين والمبادئ وقاموا بوضع التشريعات الخاصة بالمرأة وغيرها. ولقد أدى هذا إلى ضياع الكثير من حقوق المرأة التى كفلها الإسلام، حتى إن البعض استخدم لتحقيق هذا - أى لتهميش دور المرأة وسلبها حقوقها - الدين، والدين منه براء. «اضطهاد المرأة مميز للأزمنة التى يضعف فيها إيمان الرجال»[٧].

كان حسن الترابى يشير بهذا إلى ما أسماه Louis Gardet Climat de Jalousie[٨] و Valorisation de la Virilité، وأسميه أنا بشكل أقل أناقة، طقس وثقافة الغيرة والرجولة عند العرب (يسميها البعض الآخر الأبوية السامية). ويظن المسلمون الأمريكيون - ذوو الأصول الشرقية وغيرها - أنه من الضرورى أن يراجع الرجال المسلمون موقفهم من المرأة، فهم يهدفون إلى فصل الجوهر فى الإسلام عن القشور، وتصحيح صورة الإسلام حتى لا ينزعج الناس منه ويعرضون عنه[٩]. يتحدث فتحى عثمان بصراحة فى هذا الشأن: «لقد اعتدنا أن نؤمن بأن المرأة خلقت للأسرة وللقيام على شئونها ورعاية الأطفال فقط. ولكن ليس هناك سند واحد فى القرآن والسنّة يعضد هذا الرأى. فتقسيم العمل هذا إنما هو نتاج خبرة اجتماعية. ولكن هذه الخبرة ذات التاريخ الطويل والراسخة فى أذهان الناس لا تعنى بالضرورة أننا نتعامل هنا مع أحد قوانين الطبيعة أو مع حكم من أحكام الله فى الإسلام[١٠]».

لقد عبرت بهذا عن ضرورة أن تتغير بعض الأشياء بالنسبة للمرأة المسلمة، ولكن ليس هناك ما يجب أن يتغير (وجهة نظر الغرب) أو ما يمكن أن يتغير (وجهة نظر

(٦) قاسم أمين ص ٣٤ وص ٨٨.
(٧) الترابى (١٩٩١) ص ٣٥، ٣٨، ٤٣.
(٨) Gardet ص ٣٧٣.
(٩) Lang (١٩٩٧) ص ١١٦.
(١٠) عثمان - حقوق الإنسان (١٩٩٦) ص ١٥.

إسلامية) يتعارض مع القرآن والسنَّة. فالمسلمون المؤمنون لا يرغبون فى تحديث الإسلام، ولكن أسلمة الحداثة [11](Francois Burgat). فهم لا يهدفون إلى إجراء عملية إصلاح، ولكن إحياء[12] بلا تقليد للغرب أو تقليد أعمى ومطلق للماضى[13].

-٣-

وحتى نبدأ، دعونا نرجع لآدم وحواء. لقد اتسمت صورة المرأة فى الإسلام بالإيجابية، نظرا لأن القرآن لم يُلصق بحواء صفة الغواية، مما كان له عظيم الأثر نفسيا فى إضفاء صفة الإيجابية على المرأة. كما أن القرآن لا يذكر أنه عاقب حواء على غوايتها لآدم بأن كتب عليها عقوبة الحمل، أى حمل الجنين فى رحمها. فالقرآن يصف الذنب الذى ارتكبه كل من آدم وحواء على أنه فعل مُشترك أدى بأن ينزل كلاهما من الجنة إلى الأرض. كما أن القرآن لا يتضمن ما يشير إلى أن آدم خلق قبل حواء وأن الأخيرة خلقت من ضلع من ضلوعه. وتختلف هذه الصور تماما عن الموروث اليهودى ـ المسيحى والذى يحمل المرأة ذنوبا شتى، مما أدى إلى أن تدان المرأة حتى تكاد تتساوى مع الشيطان فى الفكر المسيحى بدءاً من بولس الرسول وحتى أواخر القرون الوسطى ـ حرق الساحرات أعظم الأدلة ـ وحتى أول العصر الحديث.

أما بالنسبة لموضوع الجنس، فنستطيع أن نقول إن الإسلام استطاع أن يحدد ويحافظ على موقف إيجابى وغير مضطرب من الجنس، وهذا يختلف تماما عن المسيحية، دون أن نتطرق إلى تفصيلات هذا الموقف الذى يتأرجح ما بين البيوريتانية والانفلات الجنسى. وتأكيدا لاحترام القرآن للمرأة، فإنه يذكر أمثلة ونماذج إيجابية كثيرة للمرأة مثل: ملكة سبأ، أم موسى، زوجة فرعون، مريم وأمها.

---

(١١) نقلاً عن Krämer ص ٤٩.

(١٢) الترابى (١٩٩٢) ص١٥.

(١٣) جارودى: Charte de Séville ص ٢٤.

أما علاقة الزواج بين الرجل والمرأة، فيتم وصفها في القرآن - وفق المعايير الحديثة - بشكل إيجابي حتى وإن لم يكن الزواج عقدا مقدسا. ففي سورة الروم الآية ٢١ يقول الله عز وجل: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾. وفي سورة البقرة الآية ١٨٧ عن الزوجات: ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾.

ولا يدل هذا القول على علاقة تحكمها القوى، يكون أحد أطرافها متسيدا الطرف الآخر - ولا يدل بأي شكل على سلطة رجالية - بل هي علاقة مشاركة يأخذ فيها كل طرف الطرف الآخر في حسبانه ويراعيه.

وبالفعل فالمؤمنون والمؤمنات مصدر فرحة بعضهم لبعض كما ورد في سورة التوبة الآية ٧١: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .. ﴾.

ولذلك، فليس مدعاة للدهشة، بل هو أمر مفروغ منه ألا تختلف المرأة المسلمة في وضعها الديني الروحي عن الرجل، فعليها الفروض كافة من صلاة وصيام وأداء الزكاة والحج. ويعبر القرآن عن هذا بشكل مؤثر وبليغ بأن يخص كلا من الرجال والنساء بالذكر منفرداً، فترد في سورة الأحزاب الآية ٣٥:

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

وتقول الآية ٩٧ من سورة النحل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

ولذلك، فإنني أستنكر نهي المرأة عن الذهاب لأداء الصلاة جماعة في المسجد(*)، خاصة أن لصلاة الجماعة هذه وظيفة تربوية واجتماعية وسياسية.

(*) وقد جاء في السنة ما يؤيد هذا؛ فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله». البخاري [٩٠٠]، وأبو داود [٥٦٥ و٥٦٦ و٥٦٧].

وفي رواية لابن ماجه رقم [١٦]: «لا تمنعوا إماء الله أن يصلين في المسجد».

فعدم ذهاب المرأة للصلاة فى الجامع لا يتوافق مع ما كان يحدث فى العقود الأولى للإسلام، حيث قامت امرأة بمراجعة عمر الخليفة الثانى بتلاوتها آيات من القرآن تعارض عمر فى مطالبته بتخفيض مهور النساء(*).

وينطبق ما سبق ذكره سالفا عن وضع المرأة الدينى على وضعها الذهنى. فالاختلاف البيولوچى بين المرأة والرجل لا يعنى أن أحدهما أكثر تقوى وورعا أو أكثر ذكاءً من الآخر. حتى وإن أمكن إثبات وجود اختلافات بين الجنسين فى التمتع ببعض المواهب أو طرق رد الفعل. فلو كان الأمر فى حاجة إلى إثبات ذكاء المرأة لكانت السيدة عائشة زوجة الرسول الشابة قد تمكنت من الإتيان به. فقد قامت برواية الحديث الصحيح، بل وتصحيح بعض الصحابة فيما رووه عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وكانت حافظة للقرآن متمكنة فى التفسير والفقه، كما قامت بدور سياسى بعد وفاة الرسول.

لقد قامت فاطمة مرنيس - هى إحدى المدافعات عن حقوق المرأة الإسلامية بلا خلفية أو دراسة شرعية أو تاريخية - بمجهودات مضنية لم يكللها النجاح لإثبات نجاح المرأة فى التاريخ الإسلامى فى تولى شئون الحكم. ولقد ساقت أمثلة مثل الخيزران أم هارون الرشيد، ولكن هذه السيدة كانت تدير الأمور من الحريم. أما السلطانة شجرة الدر، فقد حكمت من القاهرة عام ١٢٥٠ لشهور قليلة، وكذلك راضية التى اعتلت العرش فى دلهى فى الفترة من ١٢٣٦ - ١٢٤٠. وهذه النماذج إنما هى استثناء يثبت القاعدة(١٤).

يعتقد معظم الرجال الشرقيين أن النساء أقل عقلانية، وتحكمهن العاطفة أكثر من الرجال. يمكننا مناقشة صحة الأمر لأمد طويل، ولكن يستمر اقتناع الرجال، هذه حقيقة واقعة.

يتجه النقد الغربى لوضع المرأة فى الإسلام لمكونات أساسية فى الشريعة، وهى:

(*) استدلت هذه المرأة بالآية رقم [٢٠] من سورة النساء، وهى قول الله تعالى: «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وءاتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا».

(١٤) مرنيس ص ٨٦ و ١٤٥ - ١٥٩.

١ - تعدد الزوجات.

٢ - وضع المرأة فى الزواج.

٣ - النصوص المتعلقة بزى المرأة.

٤ - حجاب المرأة والفصل بين الجنسين.

٥ - سلطة الرجل المطلقة فى طلاق زوجته من طرف واحد.

٦ - انتقاص دور المرأة فى مسائل الإرث والشهادة.

الاتهام بسماح الإسلام لتعدد الزوجات لا يجد له صدى سلبيًا؛ لأنه حتى وفقًا لرأى علماء الإسلام الغربيين فإن الاقتران بامرأة واحدة، وهو الهدف الأصلى للقرآن، هو السائد فى العالم الإسلامى (١٥).

لقد قيد الإسلام الزواج من النساء بأربع نساء كحد أقصى فى سورة النساء الآية ٣، ولكنه قيد هذا الزواج بشرط العدل فى معاملتهن، فيرد فى القرآن: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا** ﴾.

ولكن يؤكد الله للرجال، وبخاصة الأزواج، أنهم لن يستطيعوا أبدًا أن يعدلوا حتى لو أرادوا. الآية ١٢٩ من سورة النساء تقر ذلك: ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ أفلا يكفى كل هذا للترهيب والحث على البعد عن تعدد الزوجات؟

ولكن يتفق الجميع بمن فيهم المسلمون الليبراليون أن الآية ٣ من سورة النساء فى غاية الأهمية، وليست من غير ذى نفع أو فائدة.

---

(١٥) Lang (١٩٩٥) يقول إن الزواج من امرأة واحدة هو الأفضل، انظر Lemu ص ٢٧.
ويرى محمد قطب أن الزواج من واحدة هو مبدأ أساسى ص ١٠٦. أما Gardet فيرى فى هذا الزواج القاعدة ص ٣٧٢. أما Pinn فيرى أن القرآن يرفض فى الأساس تعدد الزوجات ص ٧٢.

فبعد الحروب الكثيرة التى يتضاءل على أثرها أعداد الرجال، من الممكن أن تكون هذه الآية نعمة للمرأة التى فقدت زوجها وتعول أطفالا، فيكون هذا الأمر نعمة لها ولأولادها.

وإننى أطالب الكتاب المسلمين من أمثال قاسم أمين أن يقرءوا الآية الثالثة، والتى لم ترد هباءً من أولها، وأن يلحظوا أن هذه الآية جاءت فى سياق الحديث عن اليتامى؛ لأن بداية الآية تتضمن شرطا موضوعيا آخر غير العدل لتعدد الزوجات(١٦)، حتى إن هذا الشرط جعل بعض المسلمين مثل حمزة قيض يصل إلى نتيجة مفادها: أن الزواج الثانى أو تعدد الزوجات مسموح به فقط من الأرامل اللاتى يعلن أطفالا(١٧).

لم تكن الآية ٣ من سورة النساء تصريحا حرا بلا قيد لتعدد الزوجات أبدًا، ولتكوين ما عرف بالحريم الذى يتم دائما التجديد فيمن يضم من النساء، حتى وإن أساء الكثير من المسلمين - خاصة فيما مضى - هذه الرخصة فأساءوا لها.

أما الانتقاد الثانى الموجه للإسلام والذى يندرج تحت وضع المرأة فى علاقة الزواج، فيتجه إلى الآية ٢٢٨ من سورة البقرة والآية ٣٤ من سورة النساء، وهما الآيتان اللتان ظلتا حتى وقت ليس ببعيد يفسران على أنهما يقران وجود طرف أعلى فى العلاقة الزوجية هو الرجل وأن المرأة تحظى بدور التابع، وبذلك تنتفى صفة المشاركة عن هذه العلاقة. فدعونا نر سويا: تقول الآية ٢٢٨ من سورة البقرة:

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

فتمتع الرجل بحق أن تكون له الكلمة الأخيرة فى أمر الزواج هنا مرتبط بوضع محدد، وهو أن يتضح حمل المرأة فى شهور العدة الثلاثة، فهنا يكون للرجل الحق فى أن يرد زوجته حتى لو لم تشأ. إذًا فحقه ليس مطلقًا، بل هو مرهون بظرف

---

(١٦) قاسم أمين ص ١١٣ يستشهد بالآية من القرآن.

(١٧) Kaid: Le Coran a'l'Usage des Femmes فى Afrique Magazine رقم ١١٣ باريس ١٩٩٤ ص ٦٣.

معين ؛ لأنه الوحيد الذى يتحمل تبعات وقوع الطلاق المادية وتتضاعف مسئوليته فى حالة وجود طفل.

إذًا فتفسير هذه الآية على أن الرجال أفضل من النساء إنما هو تفسير ملتو منحاز وغير موضوعى بالمرة.

أما الآية ٣٤ من سورة النساء: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا**﴾.

لقد تمت ترجمة بداية هذه الآية حتى وقت قريب، بحيث تصور علاقة المرأة بالرجل كأنها علاقة التابع بسيده أو أن الرجل أعلى من المرأة. ولقد قام مترجمو القرآن من أمثال Mirza Nasir Ahmad ميرزا نصير أحمد، ومحمد على Muhammad Ali، وحمزة بوبكير Hamza Boubakeur ، وصدوق مازيغ Sadok Mazigh، ورودولف باريت Rudolf Paret ، وبيسلى/ تيجانى Pesle/ Tijani باستنتاج أن الزوج هو من يملك السلطة عامة فى العلاقة الزوجية، وتوافق هذا الرأى مع المفهوم التقليدى لدور الزوج فى العلاقة الزوجية(١٨).

وهذه الآية ٣٤ من سورة النساء **يمكن** أن تفهم على هذا النحو، ولكن **لا يجب** أن تفهم وتفسر على هذا النحو، فمن الجائز لغويا أن تفهم بداية الآية على أن الرجال يقومون على النساء أى يقومون على رعايتهم، وهذا أدق حتى يتوافق مع بقية ما ورد فى القرآن من طبيعة العلاقة الزوجية التى تتسم بالمشاركة ويسودها الحب والعطف والمودة. ومن هذا المنطلق ظهرت ترجمة أخرى لهذه الآية هى أن الرجال مسئولون عن النساء. . وقام كل من يوسف على Yusuf Ali، ومحمد أسد Muhammad Asad، وچاك بيرك Jacques Berque ، وأحمد فون دنفر

---

(١٨) لقد قمت فى معالجتى لترجمة Max - Henning بتغيير ترجمة الآية ٤٣ من سورة النساء إلى ما معناه أن الرجال يقومون على رعاية النساء، بدلاً من الرجال أفضل من النساء. (Eugen Diederichs ميونخ ١٩٩٩).

Adel وعـادل خــــورى T.B Irving، وت ب إيرڤنـج Ahmad Von Denffer،
Khory بهـذه التـرجـمـــة ونشـــرها فى الطبعـة الصـادرة من دار نشر Münchnen
S.K. D-Bavaria[١٩].

وطبقا لذلك، يتولى الأزواج مسئولية رعاية زوجاتهم رعاية كاملة. ويترجم فتحى عثمان هذا بقوله: لابد أن يرعى الرجال النساء رعاية مالية ويتحملوا كل مسئولية عنهن[٢٠]. وينفى تماما إمكانية تفسير هذه الآية على أنها تثبت أى تميز للرجال على النساء وأى أفضلية لهم عليهن[٢١].

وينطلق القرآن فى حكمه هذا - كما يتبين من بقية الآية والنص - أن الرجال عادة أقوى جسمانيا من النساء، وأقوى ماديا من النساء. كما لا نستطيع أن نغفل عن حقيقة وهى أن المرأة المتوسطة ترى فى شريكها المثالى صورة الرجل القوى، المسئول الذى يعتمد عليه، مثل صورة الرجل التى تزين علبة سجائر مارلبورو، والذى وصل سن المعاش الآن[٢٢].

أما جواز أن يضرب الرجل المرأة التى تعصاه، فإن هذا الأمر يؤدى إلى فقدان الحب والتفاهم اللذين تتضمنهما العلاقة الزوجية المشتركة. وفى الأحوال كافة، فإن المسلمين لم يفهموا - محتذين برسولهم - هذا الأمر على أنه سماح بالضرب الحقيقى، أو بجواز الإيذاء البدنى. فهل يجوز أن تضرب المرأة وهى الأم التى قال فيها الرسول: «إن الجنة تحت قدميها»؟![٢٣]

أما بالنسبة لأشكال الإيذاء البدنى الذى يتهم الغرب الإسلام بممارسته، فهى عادة ختان النساء الفرعونية. وهذه العادة منتشرة فى إفريقيا بما فيها مصر والسودان بين المسيحيين والمسلمين للأسف الشديد. وهذه العادة لا تستند إلى أى قاعدة إسلامية أو حكم شرعى ورد فى القرآن أو السنَّة، كما أن القانون يجرم هذه العادة

(١٩) الطبعة الثانية ميونخ ١٩٩٨ مجلد (١) ص ٢٣٢ رأست فاطيما جرليم فريق الترجمة.

(٢٠) عثمان (١٩٩٧) ص٨١٥.

(٢١) عثمان (Human Rights, 1996) ١٩٩٦ حقوق الإنسان ص ١٦.

(٢٢) Lang (١٩٩٥) ص ١٤٧ و١٤٨ عن سورة النساء الآية ٤٣. انظر ص ١٥٣.

(٢٣) انظر النووى رقم ٢٧٦ - ٢٧٩.

في مصر[٢٤] . ولقد أيدت المحكمة العليا فى مصر فى بداية يناير عام ١٩٩٨ القانون الذى يحرم إجراء عمليات الختان للبنات مستندة إلى المعايير الإسلامية .

أما النصيب الأكبر من النقد الغربى ، فينصب على تعاليم الزى بالنسبة للمرأة وليس للنقاط التى سبق ذكرها ؛ هذا الزى الذى يتيح للمرأة أن تتحدث ويتحدث إليها الآخرون[٢٥] . يستنتج الغرب عداء الإسلام للمرأة من ارتدائها لغطاء الرأس ، ويَعُدُّه اضطهادا منظما للمرأة الشرقية . والأمر أفظع من ذلك ؛ لأن الغرب يَعُدُّ أى غطاء للرأس هجوما شرسا على علمانيته ، وعلى ما حصلت عليه المرأة من جرائها من حقوق ، كما يَعُدُّونه اتهامًا أخلاقيًا .

ولا يكاد أحد فى الغرب يصدق أن المرأة تضع هذا الغطاء بمحض إرادتها دون أن يجبرها أحد من أهلها . ولا يود الغربيون أن يستوعبوا ذلك من ملاحظتهم للأعداد المتزايدة من النساء الألمانيات والفرنسيات والإنجليزيات والأمريكيات اللاتى يعتنقن الإسلام .

ولا يعترف أحد منهم بأن غطاء الرأس يمكن أن يكون فعلا تحرريا تحمى به المرأة مفاتنها فى ظل عالم متكالب على الشهوات الجنسية ، ولذلك فقد قالت امرأة بريطانية أسلمت ـ ضمن عشرة آلاف امرأة أخرى العام الماضى ـ : «نتمتع بالحقوق كافة ، ولدينا كل شىء عند المدافعين بشراسة عن حقوق المرأة ، ماعدا الشواذ من النساء وحق الإجهاض»[٢٦] . وفى هذا السياق يمثل غطاء الرأس موقفا مضادا لما هو سائد ، وليس مجرد عودة للتقاليد[٢٧] ، ولذلك من الممكن أن تفهمه على أنه حفظ للكرامة النسائية .

---

(٢٤) لقد صرح الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر أن مسألة ختان البنات ليست مسألة دينية ، ولكنها مسألة طبية ويفصل فيها الطب والقانون (تصريح لجريدة FAZ تاريخ ١٢/ ١١/ ١٩٩٨) . لقد انتقدت موقفه هذا فى حديث دار بينى وبينه فى يوليو عام ١٩٩٧ ، لأن تصريحه هذا يعطى الانطباع بأن الشريعة ليس لها كلمة فى مثل هذا الموضوع الشائك .

(٢٥) سورة النور ، الآية ٦٠ .

(٢٦) انظر Islamic Future رقم ٦٩/ العدد السنوى رقم ١٣ الرياض ١٩٩٧ ص ٢ .

(٢٧) Pinn ص ٦٧ و٦٩ نقلاً عن Holt ص ٦٥ يؤدى الزى الإسلامى دوراً مهمًا عند الفلسطينيات ـ أملاً فى التحرر من إسرائيل ـ الملبس الإسلامى يمنحهن وقاراً ومعنى .

وما يزيد من عدم التفاهم فى هذا الصدد، هو اقتناع الغرب بأن الأخلاقيات فيما يخص الجنس مثلها مثل كل القيم الأخرى، يجب أن تكون راسخة فى داخل وجدان الإنسان.

ولا يختلف هذا عن الوضع فى الإسلام، فقيمة أى عمل مرتبطة بالنية[٢٨]. ولذلك فالأخلاقيات الحميدة لا تفرض قهراً. ولكن الإسلام واقعى بحيث يعلم أن الظروف المواتية تصنع السارق، وأن ظروفا خارجية مثل الخمر، والعرى، وانفراد الرجل بالمرأة، يمكن أن تؤدى إلى سلوك غير مرغوب فيه. وعكس هذا يؤدى إلى نقيض هذا السلوك أو على أقل تقدير يخفف منه. والإحصاءات التى تنشر تؤيد هذا الرأى. فماذا تقول هذه الإحصاءات: تجرى فتاة من كل عشر فتيات أمريكيات فى السن من ١٥ ـ ١٩ عامًا سنويًا عملية إجهاض واحدة أو عملية ولادة. هناك نسبة تزيد على ١٥٪ من الأمريكيات اللاتى لم يبلغن ١٩ عامًا حملن مرة واحدة على الأقل[٢٩]. إننى على استعداد لأن أراهن على أن هذه الإحصاءات كانت ستختلف لو كان الزى الإسلامى أمرًا شائعًا فى الولايات الأمريكية. فالإسلام لا يتمتع ـ فقط ـ بذكاء فيما يخص الحياة، ولكنه ينم عن براجماتية شجاعة على رأى جيفرى لانج.

وهنا يطرح السؤال نفسه: ما الملبس الذى يراه الإسلام شرعًا غير قابل للتغيير؟ هل ارتداء غطاء الرأس أمر واجب وضرورى، أم توصية وفقًا للقرآن أو السنَّة أو كليهما؟

وأتمنى أن يظل صوب أعيننا فى هذه المناقشة أن الإسلام لا يهمه فى مسألة الملبس ـ كغيرها من الأشياء ـ المظاهر الخارجية، ولكن ما يهمه هو جوهر الأمر. وهو هنا تنظيم الغريزة الجنسية وقصرها على العلاقة الزوجية، وتأمين هذه العلاقة. لذلك يتجه أمر التعفف والبعد عن الشهوات إلى الجنسين.

من المتعارف عليه أنه من الممكن اشتهاء المرأة بالنظرة، خاصة إذا أثارت مفاتنها مثل هذا الفعل، وهذا بالضبط هو ما ينهى القرآن عنه الجنسين كما ورد فى سورة النور الآيتين ٣٠ و ٣١: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ

---

(٢٨) البخارى مجلد ٨ رقم ٦٨٠ وكذلك مجلد ٩ رقم ٧٣ و٨٥.

(٢٩) Kausar ص ١٥٥.

لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ . وهذا أمر للرجل أن يحفظ عورته[٣٠] (من السرة حتى الركبة). وعلى المرأة أن تفعل المثل وإن شملت عورتها مساحات أكبر من تلك. وتقول الآية : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ . وهذا ما يخص المؤمنات من ملبس وسلوك. وهناك آية أخرى موجهة لنساء النبي والمؤمنات في سورة الأحزاب الآية ٥٩ : ﴿ يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما ﴾ . ولا توجد فى القرآن نصوص أخرى تخص ملبس المرأة.

أما بالنسبة لغطاء الرأس، فعلينا أن نحدد أولاً بعض المفاهيم. فالخمار أى غطاء الرأس يتشابه مع أغطية الرأس التى يضعها بعض من نساء اليونان وبعض أجزاء إسبانيا للحماية من الشمس والأتربة والريح، وليس من منطلق دينى. ولذلك يقول محمد أسد فى ترجمته الانجليزية : إنه يرى أن يغطى الخمار صدر المرأة[٣١] . ومن ثم يعتقد محمد أسد أن ملبس المرأة يرتبط بما يصح أن يُنظر إليه، أى أن ما يتعدى المعالم الجنسية الظاهرة ويجب أن يُغطى، وهذا بدوره غير ثابت بالضرورة[٣٢] . ولكنى، كما أرى، أستطيع أن أقول إن «أسدا» لم يلق من أحد تأييدا كبيراً لرأيه هذا، ما عدا فتحى عثمان ود. تيجانى هدام الإمام الجزائرى للجامع الكبير فى باريس، وحمزة قيض[٣٣] وأصغر إنجنير. ويرى فتحى عثمان أن الآية ٣١ من سورة النور لم تضع شكلاً ثابتا محدداً وجامداً لملابس المرأة، ولكن نموذجا يجب

---

(٣٠) عورة: بمعنى ما يجب أن يستر. انظر Hans Wehr ص ١٣٩٢.

(٣١) أسد (The Message) الرسالة ١٩٨٠ هامش رقم ٣٨ عن الآية ٣١ من سورة النور ص ٥٣٨.

(٣٢) أسد: (٣١): هامش ٣٧ عن الآية ٣١ من سورة النور ص ٥٣٨.

(٣٣) Kaid (سبق ذكره) هامش ١٧ ص ٦٣.

تحقيقه وفقًا للظروف والعادات السائدة؛ لأن المفاتن التى يجب إخفاؤها لم يتم ذكرها فى تفصيلاتها، وهذه التفصيلات ما كانت لتصلح لوضع قانون دائم يصلح لكل الأزمنة[٣٤].

لقد صرح هدام لجريدة لوموند فى ٢٤ من أكتوبر عام ١٩٨٩ بقوله: «يوصى الإسلام المرأة بأن تغطى مفاتنها. أما كيفية تحقيق ذلك، فيرجع إلى البيئة الاجتماعية المحيطة بها». ويقول إنچنير: «المعيار فى هذا الشأن هو الطهارة والعفة. أما الطرق التى تؤدى إلى ذلك، فهى مرتبطة بالسياق والبيئة المحيطة. فلابد من التعفف، ولكن يمكن أن تُتخَذ سبلٌ عدة لتحقيق هذا الهدف».

أما رد فعل Jeffrey Lang على اقتراح أسد فيتسم بتوخى الحذر؛ لأنه يرى خطورة إمكانية محاولة الإسلام التأقلم مع المتطلبات الحضارية للمجتمعات المختلفة بدلاً من تغييرها. كما أنه لا يرى الحدود القصوى لمحاولة التأقلم المرنة هذه التى يقترحها أسد[٣٥]. أى ماذا بعد السماح بإظهار الشعر؟ ماذا سيحدث بالنسبة للأذرع والأرجل؟

فإذا ما تبعنا رأى كل من عثمان وأسد، فإننا بذلك نتجاهل السنة وموقفها المفسر للآية ٣١ من سورة النور، أو أننا نراها صالحة لزمانها فقط دون غيره. أما إذا لم نتفق مع رأييهما، فلابد من أن يحدد الإنسان موقفه مما جاء فى السنَّة من أن الرسول أوضح بالإشارة لأسماء بنت أبى بكر ما يجب أن يظهر من المرأة المسلمة، وهو وجهها وكفّاها وقدماها. وهذه الرواية روتها عائشة ونقلها عنها أبو داود[٣٦]. ويجب أن تكون ملابسها ثقيلة فلا يرى ما تحتها، ويجب أن تكون فضفاضة وغير ملاصقة لجسدها.

ولكن لن تنتهى هذه المناقشة؛ لأن الرسول صمت عنها ولم يوضح بكلامه هل هذا الحديث مبدأ وقاعدة يجب اتباعها، أم توصية يفضل الأخذ بها؟ ويميل حسن الترابى إلى ترجيح الأمر الأخير، أى أنها توصية؛ لأن «هناك أوامر أخلاقية لما

---

(٣٤) عثمان (١٩٩٧) ص٨٥٥ و٨٥٧.

(٣٥) Lang (١٩٩٥) ص ١٧٢ وما يليها خاصة ص ١٧٥.

(٣٦) أبو داود، سنن حديث رقم ٤٠٩٢.

يجب أن تكون عليه ملابس الرجال والسيدات ولكنها ليست مادة أساسية في الشريعة»[٣٧].

أما بالنسبة للنقاب الذى يغطى الوجه، فليس له جذور إسلامية، ولكن استحدثته النبيلات في كل من بيزنطة وفارس ليتميزن عن بقية النساء ولإظهار مكانتهن الاجتماعية. أما بالنسبة للإسلام، فهناك طبعًا من يأخذ به، ولكن ليس فى الإسلام أى أمر أو تسويغ له، ولا يمكن بأى حال أن تفسر آيات الحجاب على أنها تأمر بحجب الوجه[٣٨]، خاصة أن بدايات الإسلام لم تعرف مثل هذا الحجاب[٣٩].

وآية الحجاب (الآية ٥٣) الواردة فى سورة الأحزاب تخص أمهات المؤمنين دون سائر النساء، ولا تتساوى معهن أى سيدة، حتى من باب التقوى. ولقد كان الأمر بفصل الحجرات الخاصة بالرسول عن المكان العام، الذى يستقبل فيه الناس حتى يحفظ للبيوت حرماتها وللحياة الشخصية خصوصيتها[٤٠]. لذلك تم وضع حجاب، وأمرت أمهات المؤمنين أن يكلمهن المرء من وراء حجاب ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ..﴾ [الأحزاب: ٣٣].

أما أن يتخذ البعض من هذه الآيات ذريعة لتتحجب المرأة تمامًا من رأسها حتى قدمها، فما هو إلا حرمان لها من حقوقها التى وردت فى القرآن والشرع. ولذلك فحجاب الوجه أى النقاب آخذ فى الانحسار حتى فى المملكة العربية السعودية ولعله يختفى تمامًا عن قريب. أعتقد أن النقاب يمكن أن يختفى أسرع مما سيختفى هذا الفصل التعسفى بين الجنسين الذى تمارسه بعض الجماعات الإسلامية فى الآونة

---

(٣٧) الترابى (١٩٩١) ص ٢٣ والترابى (١٩٩٢) ص ٣٦.

(٣٨) الترابى (١٩٩١) ص ٢٦ والترابى (١٩٩٢) ص ٣٦/ (١٩٩٧) و Lang ص١١٥ وعثمان (١٩٩٧) ص ٧٢٨، ٧٢٩. الوحيدة التى تطالب بالحجاب الكامل أى النقاب للمرأة هى (WAMY) المؤسسة المتشددة. انظر عدد ٦٩/ ١٣ The Significance of the Hijab, Islamic Future الرياض ١٩٩٧ ص ٢.

(٣٩) Lang (١٩٩٥) ص ١٧٩.

(٤٠) هناك شرح واف للأسباب التاريخية لنزول آيات الحجاب عند البخارى فى الحديث رقم ٦٣١٥، Lang (١٩٩٥)، وقد ذكر أن عائشة لم تر أنها تخالف الآية ٣٣ من سورة الأحزاب فى خروجها لموقعة الجمل.

الأخيرة. ويقود حسن الترابى حملة ضارية ضد هذا السلوك مؤكدًا ومدللاً على مدى نشاط وإقدام النساء أيام الرسول وكيف كن صاحبات مبادرة. وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك لخديجة زوجة الرسول الأولى لمدة ٢٣ عامًا من ٥٩٦ ـ ٦١٩ كانت صاحبة تجارة، كما أنها هى التى بادرت برغبتها فى الزواج منه. ولقد ذكرنا قبل ذلك النشاطات العامة التى مارستها زوجته عائشة. أما فاطمة بنت الخطاب أخت الخليفة الثانى عمر، فقد اعتنقت الإسلام قبله دون الرجوع إليه، كذلك فإن أول شهيد فى الإسلام فهو سمية زوجة ياسر وأم عمار.

ومن المؤكد أن النساء المسلمات فى بداية الحقبة الإسلامية كن يشاركن فى كل التجمعات العامة وكل صلوات الجماعة للرسول فى المدينة، كما كن يشاركن فى طقوس الحج كافة ومازلن إلى يومنا هذا: أما الرسول فكثيراً ما كان يزور بعض النساء ويأخذ قيلولته فى بيوتهن[٤١]. ويستنتج حسن الترابى مما سبق ذكره أن الإسلام لا يفرض عامة فصلاً بين الجنسين، فيمكن لسيدة المنزل أن تستقبل ضيوف زوجها وتؤدى لهم واجب الضيافة وتتحدث إليهم، كما أنه لا يرى ضرراً من السلام بتصافح الأيدى بينهم خاصة فى المناطق المعتادة على ذلك[٤٢]. يرى حسن الترابى فى مجمل ما يرى أن المرأة يقع عليها ظلم بين بسبب التفرقة والتمييز والعزلة التى تفرضها المجتمعات عليها[٤٣]. إنه يرى تحرير المرأة الإسلامية شرطًا أساسيا للصحوة الإسلامية وليس مجرد ظاهرة مصاحبة لها.

لقد توصل Jiffrey Lang بعد دراسة مفصلة للأحاديث التى تدور حول العلاقة بين الجنسين إلى نتيجة مفادها أن هذا الفصل بين الجنسين والذى يمارس على نطاق واسع يتناقض ويعارض المبادئ الأساسية والخطوط العريضة التى أرساها الإسلام لتنظيم العلاقة بين الجنسين.

من المؤكد أن هذا الفصل التعسفى الذى تمارسه بعض العائلات المسلمة فى الولايات المتحدة يدفع ببعض الفتيات البالغات إلى الإحساس بشعور السجينة فى منزلها.

---

(٤١) الترابى (١٩٩١) ص ٢٤، ٢٥ مع ذكر أمثلة كثيرة.
(٤٢) الترابى (المصدر السابق) ص ٢٣، ٢٧.
(٤٣) الترابى (المصدر السابق) ص ٤٠.

والأمر ليس اختيارا بين نقيضين إما فصل تعسفى، وإما اختلاط فاجر، ولكن من الضرورى البحث عن طريق وسط(٤٤).

ويتفق فتحى عثمان مع حسن الترابى بشأن تمتع المرأة بحقها كاملاً فى ممارسة العمل وتقلد المناصب العامة، كما أن للنساء حق ممارسة العمل السياسى والمشاركة فى الانتخابات سواء بترشيح أنفسهن أو الإدلاء بأصواتهن، ولهن الحق فى أن يكن نائبات برلمانيات ووزيرات وقاضيات، وعلى أزواجهن احترام حقهن فى ممارسة العمل، وعليهم - أى الأزواج - أن يقوموا بدور الشريك فى المنزل بالمشاركة بالأعمال المنزلية(٤٥).

ونصل الآن إلى النقطة الأخيرة فى هجوم الغرب على الإسلام من منطلق عدائه وظلمه للمرأة. وهذا الأمر هو وضع المرأة بالنسبة لقوانين الإرث والقوانين المدنية والأحوال الشخصية المتعلقة بالأسرة. وأول الانتقادات الموجهة هو حق الرجل فى أن يطلق نفسه من زوجته من جانب واحد لمجرد القول بطلاقها دون اللجوء إلى قاض، وله الحق فى ثلاث طلقات كما ورد فى الآيتين ٢٩٩ و٢٣٠ من سورة البقرة(*)، بينما يجب أن تلجأ المرأة إذا ما أرادت الخلع إلى المحكمة.

يدعو القرآن إلى أن يحتكم الطرفان إلى أحد أفراد العائلة قبل أن يقع الطلاق كما ورد فى سورة النساء الآية ٣٥(**). فإذا نظرنا إلى نسبة حدوث الطلاق لا نجد ضرورة لكل هذه الإجراءات؛ لأن الزيجات المسلمة أكثر تماسكًا وصلابة من مثيلاتها الغربية فى زماننا هذا.

فبالرغم من التكلفة الباهظة لإجراءات الطلاق فى الغرب، فإن معدلات الطلاق

---

(٤٤) Lang (١٩٩٥) ص ١٨١.

(٤٥) عثمان (حقوق الإنسان ١٩٩٦) ص ١٦، ١٧، عثمان (١٩٩٧) ص ٧٢٨ وص٧٢٩، الترابى (١٩٩٢) ص ٤٧، ٤٨.

(*) قال الله تعالى: «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان... * فإن طلقها فلا تحل له من بعدُ حتى تنكح زوجًا غيره».

(**) قال الله تعالى: «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما».

فى ازدياد دائم، فلقد وصلت حالات الطلاق فى ألمانيا عام ١٩٩٧ إلى نسبة الثلث من الزيجات التى تمت بعد ست سنوات من الزواج.

هناك سبب جوهرى لاختلاف الإجراءات بين الإسلام والغرب فى إجراءات الطلاق، ترجع إلى الموقف القانونى للإسلام من اقتسام الأملاك. فلا يتم أصلاً عملية تحديد لاقتسام الأملاك؛ لأن المرأة تحتفظ بكافة أملاكها التى كانت لها أصلاً قبل الزواج، وتحتفظ كذلك بكل ما حصلت عليه بموجب هذا الزواج حتى من مهر وهدايا عرس وغير ذلك، بغض النظر عن مدة الزواج وقيمة المهر، كما تنص الآية ٢٢٩ من سورة البقرة(*).

ولذلك فليس بالكثير إذا ما أرادت المرأة أن تطلق نفسها أن تذكر أسباب هذه الرغبة أمام المحكمة لأنها لا تخسر كثيرا ماديًا بطلاقها، بينما ويتكلف الزوج الكثير فى حالة وقوع الطلاق. كما يحق للمرأة التى تحدد سلفًا فى عقد زواجها الأسباب التى ستطالب بالطلاق من أجلها. وهناك اقتراحات (فى بعض البلدان الإسلامية قانون يجب اتباعه) بأن يتم طلاق الرجل للمرأة أمام محكمة مصاحبة لإجراءات قانونية للتوثيق وحتى يتم تجنب أى سوء استخدام[٤٦].

والأمر لا يختلف كثيراً إذا ما ناقشنا وضع المرأة بالنسبة لقانون الميراث، فالمرأة ترث نصف ما يرثه أخوها كما ورد فى الآية ١١ من سورة النساء(**)، ولكن وضعها هذا أفضل؛ لأنها غير ملزمة بإنفاق ما ترثه على الأسرة، بينما يكون الأخ مسئولاً عن الإنفاق على الأسرة بما فيها هذه الأخت التى ورثت نصف ما ورثه، فلها الاحتفاظ بكامل نصيبها، وعلى أخيها أن ينفق عليها حتى يزوجها إن لم تكن متزوجة، وبالتالى تحتفظ بنصيبها دائمًا. كما يمكن للمورِّث أن يعطى من ثلث ميراثه لبناته فيضاف إلى حقهن[٤٧].

(*) يقول الله تعالى: «ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله».

(٤٦) عثمان (١٩٩٧) ص ٨٢٣.

(**) يقول الله تعالى: «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين».

(٤٧) لا يوجد سند إلا فى السنة لتحديد حرية التصرف فى المال بثلث الميراث (صحيح مسلم حديث رقم ٣٩٩١، ٤٠٠٠).

وأخيراً فهناك ما يُربك الرأس فعلاً عندما نتدبر معنى الآية ٢٨٢ الواردة فى سورة البقرة وهى قوله ـ تعالى ـ: «واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى». ولقد سيقت تفسيرات عدة على مر التاريخ لتوضيح هذا الأمر ولكن لم تلق قبولاً(٤٨)، وبخاصة تلك التى وصفت المرأة بأنها كائن عاطفى ولتعرضها لتغيرات بيولوچية مثل الدورة الشهرية والحمل والولادة وسن انقطاع الطمث، كما لو كان الرجل دائمًا فى أفضل صحة وحال وواع تمامًا ولا تحكمه نزوات أبداً.

أما حل هذا اللغز، فيمكن فى تحديد أن القرآن طلب فى هذا الموقع بالذات شهادة امرأتين، وهو يخص **أمرا ماليا** على وجه التحديد، بينما لم يذكر ذلك فى المواقع الثمانية الأخرى التى يتحدث فيها عن الشهادة(٤٩). فإذا كان الأمر فعلاً يدور حول إمكانية الاعتماد على قوة ملاحظة المرأة، أفلم يكن القرآن ليطلب شهادة امرأتين فى الجرائم وإقامة الحدود؟ ولكن أعتقد أن حقيقة الأمر أن القرآن انطلق من واقع عدم معرفة المرأة فى هذا الزمن لقواعد العقود المالية وعدم درايتها وخبرتها بها؛ ولذلك فإن الآية ٢٨٢ من سورة البقرة تؤدى إلى حماية الجماعة وحفظ حقوقها. تبقى قدرة النساء مستقبلاً ـ بفضل التعليم ـ على الشهادة فى المعاملات المالية. وما ينفى حجة عدم ملاحظة المرأة أن رواة الأحاديث وجامعيها من أمثال البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى وابن ماجه لم يترددوا فى قبول رواية روتها سيدة واحدة مثل عائشة مثلاً(٥٠). بل إن عائشة ردت أحاديث لبعض رجال الصحابة، وصححت لهم كثيراً. ولذلك يمكننا أن نتفق مرتاحى البال والضمير مع رأى كل من فتحى عثمان وJeffrey Lang بأن شهادة المرأة تعادل شهادة الرجل عامة، إلا فيما يختص بالتعاملات المالية، خاصة إذا كانت الشاهدات لَسْنَ ذات خبرة ومعرفة مهنية بالأمر(٥١).

---

(٤٨) Why two Women Witnesses?: Shamshad M.Khan,.
لماذا امرأتان من الشهود؟ Ta - Ha - Publishers; London, 1993 ص٦.

(٤٩) انظر Lang ٤٥ (١٩٩٥) ص ١٦٥/ ١٦٦.

(٥٠) يتضمن قبانى Kabbani روايات ترويها نساء فقط.

(٥١) عثمان (حقوق إنسان ١٩٩٦) ص ١٧ والمصدر ذاته ١٩٩٧ ص٧٥٧، ص٨٨٥، Lang (١٩٩٥) ص ١٦٦، ١٦٧.

في نهاية هذا الفصل، نستطيع أن نقول إن المسلمين يعتقدون بوجود اختلافات بين الجنسين في بعض الأمور، وأن الجنسين يتساويان في بعض الأمور الأخرى.

فصورة الإنسان الإسلامية تنطلق من اختلاف الخلق بين الجنسين(٥٢) وضرورة هذا الاختلاف. ويرى المسلمون ضرورة المساواة بين الرجل والمرأة فيما هما فيه متساويان فعلاً، والاختلاف حين يكونان مختلفين فعلاً.

ويرى حسن الترابي أن هذا في صالح المرأة، فحيث لا يرد في القرآن والسنة نصوص قاطعة، وحين لا يرتبط الأمر باختلاف بيولوجي واضح، فلا يوجد مبرر شرعي لممارسة التفرقة بين الرجل والمرأة(٥٣).

إنني لا أرى إذن فروقا جوهرية بين الشريعة الإسلامية والقوانين الغربية التي تجيز المعاملات المختلفة للرجل والمرأة في الأمور المرتبطة باختلاف الجنس، مثل الخدمة العسكرية وإجازة الحمل والوضع.

أما الاختلافات الأخرى، مثل تعدد الزوجات، وحق الطلاق، وقوانين الإرث، فلا تعني الكثير للحياة اليومية التي يعيشها المسلم في الغرب، خاصة أن هؤلاء يتبعون القوانين الأوروبية وليست الإسلامية. ولا يمكن بأي حال أن نتهم القانون الإسلامي بأنه ظالم لأنه يقترب، بل يتطابق مع الطبيعة البشرية بدون تسطيح لمفهوم الطبيعة.

أسوق هنا مقولة شاهد لا يرقى إليه الشك، هو الأب Michel Lelong والذي علق على الآية ٤٨ من سورة المائدة بكتابه: «Si Dieu L'avait Voilu- لو كان الله قد شاء»، يقول من خلال ملاحظته لحياة ونوعية حياة المرأة التونسية بالمقارنة مع المرأة الفرنسية: «إنني كثيراً ما ألتقي هنا (فرنسا) مع نساء محررات، ولكنهن يعانين من عبودية قد تكون أرقى ولكنها بلا شك ليست أقل خطراً. فهؤلاء النساء أسيرات ضغوط جديدة مثل الرفاهية، والأزياء، والدعاية، والحياة المهنية أو حتى

---

(٥٢) Pinn ص ٧٤.

(٥٣) الترابي (١٩٩١) ص ١١.

السيجارة». ويقارن Lelong هذا مع ما راقبه ولاحظه بنفسه طويلاً من «الحرية المدهشة التى تمارس بها المسلمة حياتها»[٥٤].

ويبقى السؤال المهم: كيف للغرب أن يتصرف مع المرأة المسلمة التى تريد ممارسة دينها، مثل ارتداء غطاء الرأس؟ قانونًا، فإن هذا السؤال غير ذى أهمية؛ لأن الحرية الدينية مكفولة دوليا ودستوريا، فلا يحق لأى محكمة أو مؤسسة أن تدعى لنفسها الحق فى تحديد حق المسلمة فى ارتداء غطاء الرأس، أو أن تحدد لها إذا كان عليها حقًا أن ترتديه أو لا؛ لأن مجرد هذا التحديد وهذه المحاولة تعدًان خرقًا للحقوق الأساسية المكفولة دستوريا للفرد فى حريته الدينية وممارستها، فديانة الفرد يجب أن تحترم حتى وإن كانت ديانته الخاصة.

وكما سنرى فى فصل «إسلام صنع أمريكا»، فإن أمريكا قد استوعبت هذه الحقيقة، وسبقت أوروبا - فيما يخص الحرية الديمقراطية. فغطاء الرأس وارتداؤه ليست مسألة قانونية، إنما هى مسألة سياسية.

والسؤال المطروح هو: هل تنوى أوروبا القديمة أن تحتمل قبول دين جديد واختلاف أتباع هذا الدين؟ هل هى على استعداد لهذا، أم أنها تستبعد الإسلام من استعدادها لإبداء التسامح الدينى مع الديانات المختلفة وأتباعها؟

أولا ينطبق الدستور على المسلم؟

* * *

---

(٥٤) Lelong ص ١٢٤، ١٢٥.

لماذا محمد؟

شعار ١ : لن يبرح هذا الدين قائمًا . . . حتى تقوم الساعة.

(صحيح مسلم رقم [١٧٢/ ١٩٢٢]).

شعار ٢ : لا تفضلوا بين أنبياء الله.

(البخارى رقم [٣٤١٤]، ومسلم [١٥٩/ ٢٣٧٣]).

-١-

لقد تعرضنا لثلاث عرائض اتهام يرفعها الغرب ضد الإسلام : حقوق الإنسان، والديمقراطية، ودور المرأة. حان الوقت الآن لمناقشة بعض الاحتجاجات التى يقدمها العالم الإسلامي للغرب. بما أن الإسلام دين، والدين هو البعد الآخر لهذا العالم، فينبغى أن نبدأ بأمنيتين - لهما صبغة دينية - يتمناهما المسلمون. أولاهما : الاعتراف بمحمد، وثانيتهما : إسقاط صفة الألوهية عن المسيح. ويتبع ذلك موضوع ذو صبغة عملية، ألا وهى العنصرية.

-٢-

غالبًا ما لا نملك تفسيراً لمشيئة الله. ولكن من الملائم أن يتساءل، ليس المسيحيون وحدهم بل كذلك المسلمون، خاصة فى موطن هيجل : لماذا سير الله تاريخ الدين كما حدث؟

يمكن للمسيحيين أن يتساءلوا : لمَ كان ميلاد المسيح فى الشرق الأدنى على

حدود الإمبراطورية الرومانية؟ ولماذا ولد المسيح يهوديا يتحدث الآرامية؟ ويطرح المسلمون أسئلة مشابهة: لماذا اختير محمد - صلى الله عليه وسلم - الأمي بالذات في بلاد العرب في القرن السابع الميلادي ليكون رسول الله حاملاً الرسالة والدين الخاتم بالعربية لينشرها في العالم كله؟

وكما أن مشيئة الله لا تفسير مضمون لدينا لها، فإن إجابات مثل هذه الأسئلة هي ذات طبيعة تأملية. ولكنه ليس من قبيل الخروج عن الدين أن يجتهد المرء ليتوصل إلى إجابات، بل على النقيض، فإن الله يأمر - من خلال النصوص التي وردت في القرآن - المؤمنين بالتفكر والتأمل وإعمال العقل (القرآن هو النص المقدس الوحيد - بين الأديان الثلاثة - الذي يحث على ذلك).

هناك مجموعة من الأسباب الوجيهة - من وجهة نظري - للظروف التاريخية التي أحاطت ببعثة الرسول العربي محمد - صلى الله عليه وسلم -. فلنبدأ بالجغرافية: كانت بلاد العرب في القرن السابع الميلادي، تقع خارج منطقة نفوذ القوتين العظميين، الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الفارسية التي امتدت سلطتها حتى اليمن. لقد كان هناك صراع دائر بين الإمبراطورية الرومانية الشرقية ذات الديانة المسيحية، وعلى رأسها الإمبراطور هيرقليوس الأول من ناحية، وبين الإمبراطورية الفارسية الساسانية التي يحكمها الشاه كسرى الثاني من ناحية أخرى، ولقد شهد عصر هذا الحاكم صعود نجم الديانة الفارسية الثنائية حيث تضم الزرادشتية والمازدكية. (أزاحت هذه الديانة الساسانية وانتشرت في إيران والهند).

فإذا كان الرسول قد بعث بهذا الدين الجماعي الجديد - الإسلام - وهو الدين الذي يعادي نظام تلك الممالك والملوك، فكيف كانت تتاح له الفرصة داخل هذه الإمبراطورية أو تلك؟

لم يكن هناك موقع جغرافي أفضل من شبه الجزيرة العربية، وبالذات في الحجاز، هذه المنطقة التي تخرج عن نطاق نفوذ الإمبراطوريتين في ذلك الوقت، ليتمكن الإسلام من تكوين كيان أيديولوچي جديد قبل أن تنتبه إليه إحدى القوتين، ناهيك عن التفكير في التدخل والهجوم على هذا الكيان الوليد. فعندما أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - عام ٦٢٨ مبعوثين حاملين رسائله إلى حكام المناطق

الواقعة حول الحجاز، كان الوقت قد تأخر على مجرد التفكير فى محاولة إجهاض هذا الكيان الجديد.

ولكن بالرغم من بُعد الحجاز عن متناول أيدى السلطتين العظميين، فإنه كان يتمتع من وجهة نظر أخرى بموقع چيواستراتيچى بالغ الأهمية، كما سيتضح فيما بعد عندما تنطلق الفتوحات منه إلى أنحاء العالم كافة، حيث يتمتع بموقع وسط يبعد عن المغرب وإنجلترا بالمقدار الذى يبعد به عن الهند والصين.

وهناك سبب معقول ومقبول منطقيا لنزول القرآن باللغة العربية. ففى هذا الزمن كانت اللغات المتداولة هى الرومانية واليونانية والفارسية والعبرية. وكانت هذه اللغات - وهى لغات الديانات السابقة - قد استنفدت فى هذا السياق وباتت معزولة بأحكامها.

ولقد كانت الديانة الجديدة والرسالة التى تحملها والتى ستأتى بتحول پرجماتى جديد إلى العالم، فى حاجة إلى لغة عذرية على المستوى الدينى والفلسفى، لغة لم تستنفد بعد، يأتى بها القرآن. وأهمية ذلك تتضح إذا ما نظرنا إلى ترجمات للقرآن يقوم بها مستشرقون حسنو النية، عندما يقحمون عليه مفردات تعبر عن الخلفية المسيحية الدينية والفلسفية.

كانت اللغة العربية التى تتحدث بها قبيلة قريش بمكة قد تطورت فى القرن السابع الميلادي، حتى صارت لغة فصحى بليغة تصلح لأن تكون وسيلة ووعاء لغويا للرسالة الجديدة. ولكى نتمكن من فهم هذا، لابد لنا من التعرف عن قرب على هذه اللغة الذهنية وفحصها بدقة أكثر. ولكننى سأسوق بعض الأمثلة الدالة: فاللغة العربية قادرة على التعبير زمنيا عن مقولات غير محددة. ومن الممكن كذلك أن تعبر هذه اللغة بصيغة الماضى عن أشياء مستقبلية يقينية الوقوع، كما لو أنها قد حدثت فعلاً.

وأخيراً يمكن أن تتخذ كل كلمة عربية ثمانية أشكال سواء تحقق معناها فى الحقيقة أم لا. وهذا يتيح للعربية أن تكون مهيأة لتفكير فلسفى تأملى وعلمى - فرضى.

ولقد كان توقيت الوحى القرآنى ذا مغزى عميق؛ لذا فقد بات واضحًا منذ القرن

السادس الميلادى أن المسيحيين واليهود المتفرقين فى جميع أنحاء العالم، عاجزون عن تصحيح التحريفات التى ألحقوها بدياناتهم، وبخاصة تصور شعب الله المختار عند اليهود، والطبيعة الإلهية للمسيح عند المسيحيين.

-٣-

ولقد ظهرت دراسات مسيحية جديدة تم تدوينها[١]. هناك فهم-يهودى-مسيحى لطبيعة المسيح يتطابق مع المفهوم الإسلامى. فلم يَعْدُ هذا الفهم المسيح- الذى لم يطابق نفسه بالله أبداً ولم يستخدم صيغة «أنا» عندما كان يعنى الله-إلا رسولا يهوديا إصلاحيا مهما. وهذا يماثل ما جاء بالقرآن فى الآية ٧٥ من سورة المائدة. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ..﴾. ولم تعرف المسيحية الأولى فكرة الثالوث، أو حتى تلميحات عنها، حتى عند بولس الرسول المؤسس الحقيقى للمسيحية. وهذا القول ليس مثارا للدهشة؛ لأن القول المؤسس لفكرة الثالوث فى الرسالة الأولى ليوحنا (٥-٧) لم يظهر إلا عام ٣٨٠ م فى إسپانيا وهى: «ثلاث موجودون هم شهود فى السماء: الأب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاث هم واحد».

ولقد تمكن الباحثون منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا، من إثبات أن هذه الآية (بالإضافة إلى الإصحاح الذى يتحدث عن الزانية فى إنجيل يوحنا) تعد من حالات التزوير البينة والواضحة والمهمة جداً فى العهد الجديد[٢]. وإنك لتجد على سبيل المثال فى الطبعة الكاثوليكية للعهد الجديد التى أحتفظ بها (صرح بطبعها أسقف مدينة روتنبورج Rottenburg عام ١٩٤٠) هذه الفقرة موضع الخلاف فى الرسالة الأولى ليوحنا وهى بين قوسين معكوفتين، وإشارة فى الهامش تقول: «هذه الفقرة موضوعها ومضمونها صحيح ولكنها إضافة وتكملة متأخرة».

---

(١) انظر Lüdemann (١٩٩٥) وDeschner. هناك هوامش كثيرة حول مناقشة المسيحية بتفصيلات أدق فى الفصل القادم.

(٢) منذ ذلك الوقت يبدأ الإصحاح الثامن من إنجيل يوحنا فى بعض الطبعات الإنجيلية للعهد الجديد بدءاً بالآية ١٢.

ولقد كان غالبية الأساقفة فى الغرب المسيحى وكذلك فى الشرق المسيحى حتى القرن الرابع، متفقين مع رأى القسيس السكندرى آريوس Arius (٢٦٠-٣٣٦) القائل بأن المسيح مخلوق مباشر من الله (ولذلك فهو مميز على سائر البشر)، ولكنه ليس الله كما أنه لا يتمتع بحياة أبدية. وكان فى هذا الوقت - أى قبل القرن الرابع - كل من يعتنق الإيمان الذى أقره مجمع نيقيه فيما بعد، يجازف بأن تلصق به تهمة التجديف.

ومنذ القرن الرابع الميلادى، أصبحت مناقشة طبيعة المسيح باحتمالاتها الأربعة من الأمور الشهيرة فى كل من القسطنطينية والإسكندرية، وهذه الاحتمالات الأربعة هى:

- المسيح ذو طبيعة واحدة: - إله فقط: هذا الفكر الذى يعتنقه ويمثله إلى الآن القبط والأرمن.

- إنسان فقط: هذا الفكر يعتنقه المسيحيون اليهود والأريسيون (نسبة إلى آريوس الذى قال بآدمية المسيح)، وهم الموحدون.

- ذو طبيعتين منفصلتين: إله وإنسان. الفكر الذى يقول بالطبيعتين والذى يعتنقه جماعة النستوريانين Nestorians.

- ذو طبيعتين مختلطتين: إله وإنسان - الفكر الأورثوذوكسى الذى ثبّت أركانه منذ القرنين الرابع والخامس الميلاديين.

وتكتسب الفكرتان الأولى والثانية أهمية فى التاريخ الفكرى؛ لأن لهما امتدادا فى الإسلام وفى النقد الموجه لصورة المسيح المعاصرة. لقد تطورت الأورثوذوكسية المسيحية من خلال خلافها مع فكر آريوس الذى يقول: إن الحديث عن كون المسيح ابن الله، لا يكون إلا بشكل مجازى.

ولقد كان المجمع الأول الذى عقد فى نيقيه فى الفترة من ١٩ يونيو حتى ٢٥ أغسطس عام ٣٢٥ معلما فارقا فى تطور المسيحية؛ لأنه عارض تمامًا فكرة آريوس عن المسيح، وأقر أن المسيح من جوهر الأب، وأنه وُلد ولم يُخلق، وأنه يتساوى فى الجوهر والكيان مع الإله الأب.

لم يمنع هذا من انتشار الآريانية فى الفترة من ٣٣٧ ـ ٣٦١، حتى صارت الفكر الرسمى لبيزنطة، والفكر المسيطر لقرون عديدة على مسيحية الشعوب الجرمانية. ولكن بعد ذلك اكتسب الفكر الذى أقره مجمع نيقيه قوة كبيرة، وتوطد منذ عام ٤٥١ بسبب انعقاد المجمع الكنسى الرابع فى إسكدار. فى هذه المرة أدانت الكنيسة الفكر القائل بطبيعة واحدة للمسيح (رقم١) القائل بأن المسيح إله فقط (بجسد يبدو فى صورة آدمية)، وعارضت هذا الرأى وقالت بنقيضه وهو فرضية وجود اتحاد بين المسيح والله، والاثنين فى المسيح «غير مختلط وغير منفصل». وهذه المقولة التى تبدو متناقضة، ظلت إلى يومنا هذا الدين الرسمى المعترف به كاثوليكيا.

وفى هذه الأثناء، ظهرت ـ بتأثيرات من فكرة الثالوث فى الميثولوجية المصرية والأفلاطونية السكندرية الجديدة ـ ظهرت فكرة الثالوث، وأضيف إلى الأب والابن الروح القدس.

وبتأثير من موضة لاهوت الروح، كان المجمع الثانى فى القسطنطينية قد شخص فكرة «الكلمة» (Logas) فى عام ٣٨١، وبهذا تسللت تصورات هلِّينية إلى المسيحية، واكتسبت من خلال ترسيخها لفكرة الثالوث موقعا مسيطرا.

أما وضع الشخص الإلهى الثالث فى العهد الجديد، فلا يمثل أى صعوبة، فكل ما ينبغى تغييره هو فهم كلمة الله بوصفها روح الله، على أنها الروح القدس.

لقد كان المجمع الكنسى الأول فى نيقيه ـ كما نعلم اليوم ـ أهم المجمعات على الإطلاق حتى المجمع ٢٢، الذى عقد فى الفاتيكان القرن الماضى. ولكن ذلك المجمع البالغ الأهمية، لم يدع لعقده البابا أو أسقف روما، ولكن دعا لعقده شخص وثنى غير معمد ولا علم له باللاهوت، هو القيصر قسطنطين الكبير. ولم يتم هذا المجمع فى كاتدرائية نيقيه، ولكن فى مقر الإمبراطور الصيفى،ولم يرأس هذا المجمع أحد من رجال الدين الحاضرين. كما أن الإمبراطور هو الذى قدم اقتراح الصيغة القائلة بأن جوهر الله هو جوهر المسيح، وأنهما متماثلان. وهذا الاقتراح لم يصدر عن اهتمام دينى، ولكن رغبة منه فى بعض الاتفاق الدينى الداخلى بعد سنوات طويلة من الخلافات الدينية الحادة. ولقد رأى القيصر أن صيغة (المسيح = الله) صيغة مناسبة لحل الخلافات، ولم يفكر فى كونها

محرفة، فالأباطرة الرومان كانوا كثيراً ما يحبون وضع أنفسهم فى مرتبة مساوية للآلهة.

لا تبعد المسافة كثيراً من إستنبول حتى نيقيه (إسمها الحالى إزنك). وكلما ذهبت هناك، أصابتنى رعدة فى البدن بالتفكير فى نتائج ما وقع فى هذا المكان عام ٣٢٥. فلم تتم مناقشة الأمر فى هذا المجمع بصراحة، ولكن تم فرض الرأى الإمبراطورى، وبذلك أصبح عندنا أمر إمبراطورى نتيجة لوجود خلافات وصراعات قوى، وليس رأيًا مبنيا على تفسير النصوص المقدسة.

بعد ذلك تم القضاء تمامًا على الكتابات التى تعارض هذا الرأى، كما تم إلغاء فكر الأريسيين والمسيحيين اليهود من ذاكرة الناس تمامًا. وتم قطع أواصر الصلة تمامًا بين المسيحية واليهودية. وبناءً على رفض بولس إجراء عملية الطهارة لمن يعتنق المسيحية، قامت قطيعة لاهوتية مع فكر التوحيد السامى.

لقد تم الإعلان عن الله! ولكن كذلك أصبح وجود الكنيسة المقدسة واضحًا ومسيطراً. وأخذ المسيحيون ينظرون إلى اليهودية على أنها مجرد تمهيد للمسيحية، وعَدَّ اليهود المسيحية بدعة وزندقة ومروقا عن اليهودية. ولم يرد فى الفكر المسيحى بعد ذلك لقرون طويلة محاولة لتصحيح ما جاء فى إزنك عن طريق مراجعة المسيحية والفكر المسيحى لنفسه. بالعكس، أصبح هذا الفكر المسيحى المتطرف مطالبًا بحماية نفسه ضد فكر أكثر تطرفًا.

ولذلك كان لابد أن تأتى إرهاصات إعادة إحياء الفكر التوحيدى الإبراهيمى من خارج هذه المعارك من بلاد العرب، على يد رسول عربى يعيد دين إبراهيم وموسى وعيسى، يعيد دين الله كما أراد له وكما ينبغى له.

هذا يفسر مكان وزمان ومضمون الرسالة التى بعث بها محمد، والتى ورد فى القرآن عنها فى سورة الأحقاف الآية ٩: ﴿ **قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ** ﴾. لقد كان محمد آخر الرسل، هدف رسالته كان إعادة الوحدانية النقية، الإيمان بالله الواحد دين إبراهيم، الدين القيم. هذا الدين الذى يتطابق مع الفطرة الإنسانية، ولذلك فقد كان محمد يعلم المسلمين بناء على ما ورد فى القرآن:

- الله واحد ليس كمثله شيء .

- يرعى العالم .

- يمكن التعرف عليه من خلال الرسالات والكتب السماوية .

- واجب الإنسان أن يسلم نفسه لله ويطيع أوامره .

- أن هناك بعثًا بعد الموت ، وأن الآخرة حق ، وعندها يحاسب البشر ويجزون على أعمالهم .

فالإسلام يرفض رفضا تاما وغير قابل للمساومة أو للحلول الوسط ، فكرة الثالوث المقدس والتجسيد . لقد ارتكزت محاولة الإسلام فى القرن السابع الميلادى لتصحيح المسيحية التى توطدت أركانها في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، بأن وضع المسيحية المستقاة من القرآن فى مقابلها ، وصور القرآن المسيح كما يلى :

- إن المسيح خُلق مثله مثل آدم . والآيات الدالة على ذلك تجدها فى سورة آل عمران الآية ٤٧ : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ . وكذلك الآية ٥٩ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ . وكذلك فى سورة المؤمنون الآية ٩١ : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ . وكذلك فى سورة الإخلاص الآية ٣ : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

- جاء المسيح بولادة إعجازية من مريم العذراء ، كما ورد فى سورة آل عمران الآية : ٤٧ .

- جاء المسيح ليؤكد ما سبقه من دين ويعمل على إصلاحه ، كما ورد فى سورة آل عمران الآية ٥٠ : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

- وهو رسول أتى بمعجزات ، كما ورد فى سورة المائدة الآية ١١٠ : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي

الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ومثله فى ذلك مثل مجموعة أخرى من الرسل، كما جاء ذكر ذلك فى الآية ١٣٦ من سورة البقرة، والآية ٨٤ من سورة آل عمران، والآية ٨٥ من سورة الأنعام.

-ليس شخصًا إلها فى ثالوث، وجاء هذا فى الآية ١٧١ من سورة النساء، والآية ٧٢ و٧٣ من سورة المائدة، وكذلك الآية ٣٠ من سورة التوبة، والآية ٣٥ من سورة مريم.

-المسيح عبدالله ورسوله وليس ابنه.

-لم يلق حتفه صلبًا، وجاء ذلك فى الآيتين ١٥٧ و١٥٨ من سورة النساء.

نتبين مما سبق أن المسلمين يدافعون عن المسيحية الأولى، مسيحية اليهود، فيما عدا النقطتين الأخيرتين.

أما فيما يخص هاتين النقطتين موضع الخلاف، فإن أى مسلم لا يردد سورة أكثر من ترديده لسورة الإخلاص - هذا إذا ما استثنينا سورة الفاتحة - والتى استنادًا إلى كلام الرسول تعادل ثلث القرآن[٣]. وهذه السورة رفض موضوعى وقاطع لما أقره مجمع إزنك الكنسى.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

ولقد أيقن الكثير من المسيحيين فى العقدين الأخيرين من هذا الزمن خطأ مقولة أن المسيح ابن الله، وأن هذه المقولة كما جاءت فى القرآن من الفظائع كما ورد فى سورة الكهف الآية ٤: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

وكما ورد فى سورة مريم الآيتين ٨٨ و٨٩ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ ولقد صاغ الفيلسوف Sören Kierkegaard هذا الأمر بحدة لا يضاهيه فيها

(٣) البخارى جزء ٦ رقم ٥٣٣، ٥٣٤/ جزء ٨ رقم ٦٣٨/ جزء ٩ رقم ٦٣٨، مسلم رقم ١٧٦٩ - ١٧٧٣.

أحد عندما قال: «إن المأساة الأساسية للمسيحية هي الدين المسيحي نفسه، أي وعظ الناس بفكرة الرب ـ الإنسان». لأنه بهذا يتم حذف الفارق النوعي لطبيعة الأشياء بين الإنسان والإله. ولقد ملك هذا الفيلسوف الدانماركي من الشجاعة ما جعله يقول: «إن فكرة الإله ـ الإنسان هذه جعلت المسيحية في غاية الوقاحة، فهي تخاطب الإله بأنت (أي بلا صيغة احترام) كما لو كان أحد الأقارب»(٤).

ما سبق ذكره عن مساواة المسيح بالله نقوله كذلك على الرفض القرآني لفكرة التثليث: فسورة النساء تقول في آيتها ١٧١: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾.

يندهش المسلمون من المعرفة الواسعة والغزيرة بطبيعة الله ونشاطه التي يدعيها المسيحيون، خاصة أنهم يحاولون حجب فكرة التثليث عن أي محاولة تفسير عقلانية لأنها سر وإعجاز.

وهذه الدهشة مسوَّغة، خاصة إذا استمعوا إلى تفسيرات مثل: إن كلا من الشخصيات الثلاث الإلهية المجمعة في الثالوث، تقوم بما يجب عليها، بينما كل فعل الله خارج هذه الإلهية المثلثة هو فعل جماعي للشخصيات الثلاث الإلهية(٥).

والأمر نفسه يحدث عندما نتحدث عن التركيب الآتي: «ليس هناك ماهية للتثليث ولكن هناك تثليث».

أما سر العلاقة الشخصية المتداخلة بين الأب والابن والروح القدس، فيظل دائمًا وكاملاً في الله ذاته. أما أفعال الله الخارجية فتنطلق من الشخصيات الثلاث مثل الانطلاق من مبدإ واحد(٦).

وتمثل آراء الكاردينال Nicolaus von Kues (المتوفى عام ١٤٦٤) صوتًا منفردًا في

---

(٤) Kierkegaard ص ٦٠/ ١٥٩.

(٥) Ulrich Schoen في Kirste ص٢٧.

(٦) Borrmans ص١١١. ألايود المرء أن يقول له كما قال لـSchoen «ليتك صمت!».

المناقشات التى دارت حول التثليث، عندما دعا إلى ضرورة مراجعة التفكير فى هذا الأمر - فى كلمات صاغها Kurt Flasch «الطريقة الذكية لتكون إلهًا» لأن كوزانوس يقرر بسهولة ويسر: «لابد أن يكون الله ثلاثيا إذا ما كان هو المبدأ الذكى للعالم إذا كان يعلم نفسه وإذا كان هو الحب»(٧).

أما بالنسبة للنقطة الثانية، أى الصلب، فلم تكتسب أهميتها إلا من خلال بولس الرسول، وذلك على أساس نظرياته القائلة بإرث الخطيئة وضرورة الخلاص والموت للمخلص، وكلها تصورات لا يمكن جمعها أو أن تقترب من صورة الإله فى الإسلام.

فالإسلام يعلمنا قبل أن يقوم Jürgen Moltman بإصدار كتابه «الرب المصلوب» عن مسألة الصلب هذه بتلك الآيات من سورة النساء (الآيات ١٥٧ - ١٥٨).

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾. إذا ما قرأنا هاتين الآيتين قراءة متمعنة ومتأنية مدققين فى الكلمات، لتبينا ضمير الغائب للجمع أى «هم» الذى يظهر فى قتلو(ه) وصلبو(ه)، وهذا يعنى أن الله الآمر بالحياة والموت هو من جعل المسيح يموت وليس اليهود. وتقول هذه الآيات إن المسيح لم يمت مصلوبًا ولكن مات فيما بعد. ومما يؤيد هذا العرض القرآنى لمسألة الصلب ويجعلنا نصدقه، أن الأناجيل الأربعة تختلف فى مسألة الصلب بشكل لا يجعلنا نصدق أيا منها أو نثق بأحدها. أما أن المسيح لم يوثق فى الصليب بل سمر، فهذه الرواية عرفت أول ما عرفت فى القرن الثالث الميلادى، خاصة من خلال Tertullian (١٦٠ - ٢٢٠) ترتوليان، ولكن ليس على أساس نص وارد فى الأناجيل، بل على الآيات ١٧ - ١٩ التى وردت فى المزمار ٢٢: «ثقبوا يدى ورجلى. صرت لهزالى أحصى عظامى... يتقاسمون ثيابى.. وعلى لباسى يلقون قرعة».

---

(٧) Klostermann, Nicolaus von Kues, Kurt Flasch: فرانكفورت ١٩٩٨ نقلاً عن Martina Bretz فى FAZ - يوم ٣/ ١١/ ١٩٩٨ ص ٢٤.

وفى هذه اللحظة الزمنية لم تكن حكاية «توماس غير المؤمن» قد أضيفت إلى العهد الجديد.

وبطبيعة الأمر لم يكن ترتوليان ليعلم بوجود الكفن الذى يصور عملية الصلب. ولقد ثبت أن هذا الكفن قطعة مزورة من القرن ١٣ أو ١٤[٨]، كما تعترف الكنيسة الكاثوليكية منذ عام ١٩٨٨.

إذن يمكننا أن نقول إن الصلبان وعليها المسيح والتى تشحذ خيالنا ما هى إلا تخيل، خاصة أن هذه الصلبان لا تتطابق مع الصلبان التى كانت شائعة فى عهد المسيح.

ويمكننى بطبيعة الحال أن أتفق مع Paul Schwarzenau الذى ذكر أن القرآن احتجاج على المفهوم المسيحى للصلب[٩]. وذلك فى كتابه «علم القرآن للمسيحيين».

لقد استطاع بولس الرسول أن يحول الفشل الذى ذاقته جماعة المسيحيين الأوائل إلى عملية إنقاذ وخلاص، وجعل من الصليب رمزًا لها. وبذلك وضع الصليب فى مركز الإنجيل المقروء، والذى يعظ به وليس المكتوب، حتى صار الصليب علامة الانتصار المسيحية. ولقد أدت نظرية الخلاص هذه إلى إحداث فرقة عظيمة؛ لأن كلا من اليهود والمسلمين عَدُّوها تجديفا، فأى رب هذا الذى يواجه تطورا خاطئا بولادة ابن له، ثم التضحية القاسية المهينة بهذا الابن؟!

ولقد ظل المسلمون متمسكين طيلة القرون بما ورد فى القرآن عن المسيحية ونبيها عيسى، حتى أولئك المحدثين المسلمين و«المسلمين بالميلاد» بدءًا من على عبد الرازق ومعمر القذافى ومحمد سعيد العشماوى وصولاً إلى فرج فوده ومحمد أركون وبسام طيبى، لا يمسون شيئًا واحدًا: التصحيح القرآنى لصورة المسيح التى وردت لاحقًا فى وقت لاحق ومتأخر، وليس فى بدايات المسيحية.

* * *

(٨) بناءً على طريقة الإشعاع الكربونى، فإن الكفن يعود إلى الفترة ما بين ١٢٦٠ ـ ١٣٩٠ (FAZ تاريخ ١٤/١٠/١٩٨٨).

(٩) Schwarzenau (١٩٨٢) ص ١١٠.

ومجمل القول: إن المسلمين والمسيحيين يشكون اليوم معًا - من أن الغرب يعانى منذ ما يزيد على ١٥٠ عامًا من الإلحاد، والاغتراب عن الكنيسة واللاأدرية، وكذلك الهروب إلى ديانات خاصة غير مفهومة ومتقوقعة على نفسها من فلسفة حب الإنسان إلى الديانات التى تقدس الربات والديانات ذات الصبغة النسائية والبوذية؛ لأن المسيحيين والمسلمين فى قارب واحد فى خضم هذا البحر الهائل المعاصر من العداء للدين والشديد المادية.

ولكن هل من الواضح للمسيحيين أن هذا التطور السلبى فى العصر الحديث شديد الصلة بما حدث فى إزنك؟ وأن الوضع اليوم ما هو إلا نتيجة متأخرة لما ألم بالمسيحية فى إزنك؟ وقد كتب محمد أسد - أبرز المسلمين الأوروبيين فى القرن العشرين فى كتابه الصغير الهام «الإسلام فى مفترق الطرق» عام ١٩٣٤: إن أهم العوامل الفكرية التى تعوق التجديد والإحياء الدينى فى أوروبا، هو الرؤية المعاصرة لطبيعة المسيح على أنه ابن الرب. فالمفكرون الأوروبيون ينفرون غريزيًا من صورة الإله التى تروجها تعاليم الكنيسة. ولكن هذا هو التصور الوحيد المألوف لهم، ولذلك بدءوا برفض وإنكار صورة الرب ومعها كافة الديانات»(١٠). فهل إزنك هى جذر الإلحاد؟

وبالنظر إلى المرارة والتوترات التى حكمت تاريخ العلاقات المسيحية - الإسلامية، وعدم إمكانية توحيد آرائهم حول المسيحية، فقد تم إعلان الكنيسة الكاثوليكية عن تخليها عن عَدّ الإسلام عدواً لها فى المجمع الڤاتيكانى الثانى عام ١٩٦٤، وتم تكوين لجنة بابوية لشئون العلاقات مع الديانات غير المسيحية، وضمت هذه اللجنة رجال دين على دراية واسعة وعلم غزير بالإسلام، ويكنون له بعض الإعجاب. وفى ٢٨/ ١٠/ ١٩٨٥ أصدر البابا پول السادس المنشور البابوى الذى حمل عنوان «Nostra Aetate»، وقد جاء فى هذا المنشور أن الكنيسة «تحترم المسلمين الذين يعبدون الله الحى، الخالد، الرحيم، القوى، خالق السموات والأرض».

---

(١٠) أسد: الإسلام فى مفترق الطرق ص ٥١، ٥٢ Islam at the Crossroads.

ولقد طالبت هذه الوثيقة المسلمين والمسيحيين بنسيان عداوات الماضى. وعليهم - أى المسلمين والمسيحيين - أن «يجتهدوا للتوصل إلى تفاهم وفهم متبادل»، و«أن يعملوا سويا لحماية السلام وإقرار العدالة الاجتماعية ومن ثم حماية الأخلاق وسلام وحرية البشر كافة»(١١).

وفى ظل هذه التوجهات، ومن منطلق هذا الفكر، توجه البابا يوحنا بولس الثانى فى ١٩ من أغسطس عام ١٩٨٥ بخطابه إلى الشباب المغربى المجتمع فى ستاد الدار البيضاء. ولقد ردد فى أثناء هذا الخطاب كلمات تكاد تكون هى ذاتها كلمات الآية التى وردت فى القرآن، والتى تُعَدُّ الإعلان القائل بالتعددية الدينية والتسامح فيها وتلك الآية هى ٤٨ التى وردت فى سورة المائدة، وقال: «إننا نؤمن بنفس الإله، الإله الواحد»(١٢).

لقد وضعت الكنيسة الكاثوليكية بمبادرتها هذه لتطبيع علاقاتها مع الإسلام نفسها فى طليعة العالم المسيحى قبل المجلس الكنسى العالمى وقبل كنائس مسيحية أرثوذكسية أخرى. وفى الأحوال كافة، فإن الفاتيكان قام بخطوة مهمة واحدة فقط على هذا الطريق؛ لأن المنشور البابوى وخطاب البابا فى الدار البيضاء تجنبا تمامًا ذكر رسول الإسلام، ذلك الدين الذى يحترمونه كثيرًا. ولذلك السبب يتفق كل من Hans Küng والأب Michel Lelong على أن الكنيسة لا تزال بعيدة تمامًا عن استخلاص النتائج اللاهوتيه المترتبة على المنشور البابوى(١٣). ويتساءل Ulrich Schoen: «لماذا لا يتجرأ أحد على ذكر محمد بكلمة واحدة؟»(١٤). وإننى أطرح هنا سؤالا إنشائيا:

إنه من الواضح أن الكنيسة لا تزال تحرم محمدًا من إعادة الثقة به وتصحيح صورته ورد الاعتبار له؛ لأنها لا تزال أسيرة إنكارها له. ولن يجرؤ أى شخص من المعسكر المسيحى، حتى وإن كان لا يؤمن بأن الإسلام عقيدة مضللة وأن محمدًا

---

(١١) مقطع من Lelong ص ١٣، ١٤.

(١٢) مقطع من Lelong ص ١٨ - ٢٠.

(١٣) Lelong ص ٢٤.

(١٤) Schoen فى Kirste ص ٣٦.

دجال ومحتال، لا يستطيع أن يتخيل أن يعترف بالقرآن ككتاب مقدس. مثله مثل الكتاب المقدس (للعهدين القديم والجديد)، ؛ لأن الاعتراف بمحمد رسولاً، أى وعاء لوحى الله، يعنى ضمنًا الاعتراف بالقرآن الكريم ككتاب مقدس والوصول إلى هذه الخطوة، يتطلب دراسة واسعة وتعاملا حميما مع القرآن.

ويغفل الغرب عن حقيقة وهى أن الإسلام يهدف إلى أن يعيد المسيحية لتقف على قدميها، بدلاً من الوقوف على رأسها، وأن الإسلام يمكن أن يكون ذا نفع هائل لإعادة الصحة إلى الحضارة الغربية. ولكن هذا ليس مقصدى هنا، ولكن ألا تستدعى مجرد أصول المعاملة المهذبة واللياقة، عدم تجاهل رسول يؤمن به ما يزيد على مليار إنسان ويحترمونه؟[١٥]

* * *

(١٥) Schwarzenau ١٩٩١ ص ٥٠٤.

عيسى يفرق ـ عيسى يوحد

شعار: لا يرضى كل إنسان بجملة: «إن الطريق هو الهدف» (مقولة لـ Alois Brandtctter.

-١-

دعنا نتأمل أحدث الكتب عن «تاريخ الله» لـ Karen Armstrong، وهو يستعرض قصة الإيمان التى ترجع إلى ٣٠٠٠ عام، متناولا إله إبراهيم وإله آينشتين[1] وجاك ميلز. يميل هذا الكتاب[2] إلى الرأى القائل بوجود تصورات مختلفة عن الإله بقدر وجود اختلاف اليهود والمسيحيين والمسلمين. وإذا كان هذا أمر صورة الإله، فإن الأمر لا يختلف كثيراً بخصوص تعدد صور المسيح. ولذلك فمن المحتمل أن يكون عيسى الذى يوحد الناس غير عيسى الذى يفرقهم عن أناس آخرين، فقد ظهرت على مر التاريخ ثلاث صور مختلفة لعيسى.

١ ـ لقد كان عيسى يهوديّا مارقًا صدر عنه فعل التجديف الدينى حين عَدَّ نفسه بغير حق المسيح المخلص (المفهوم اليهودى).

٢ ـ إن عيسى إله وإنسان فى الوقت نفسه (مفهوم التجسيد الذى تتبناه الكنيسة الكاثوليكية والكنائس المسيحية).

٣ ـ إن عيسى نبى ورسول يهودى مصلح (الرؤية الإسلامية).

عاش فى الغرب حتى ١٠٠ عام مضت أناس رفضوا بشكل فردى الرؤية

---

(١) العنوان الأصلى فى الإنجليزية هو: «A History of God».

(٢) نقلاً عن الأمريكى. Hanser: ميونيخ ١٩٩٦.

المسيحية للمسيح وللدين من أمثال جوته Goethe وغيره، ولكن لم يشكل هؤلاء الأفراد حركة تمرد علنية منظمة معارضة لما تروجه الكنيسة من عقيدة.

لقد بدأت حركة التمرد هذه فى الظهور فى القرن ١٩ من خلال محاولة إجراء مراجعة نقدية تاريخية للمصادر المكتوبة التى تستمد منها المسيحية تعاليمها، ولقد قام بهذه الحركة لاهوتيون، وكان لها نتائجها المدمرة. وأذكر فى هذا الصدد أسماء بعض أساتذة علم اللاهوت من الكاثوليك والپروتستانت مثل Rudolf Bultmann, Hans Campenhausen, Adolf Harnack, John Hick, Emanuel Hirsch, Hans Küng, Gerd Lüdemann, Paul Tillich, Karl Rahner, Adolf Schlatter, Hans Joachim Schoeps, Wilfred Cantwell Smith, Wolfhart Pannenberg.

(لم تشارك الجموع المسيحية فى هذه العملية، خاصة أن عملية المراجعة هذه قد حرص القساوسة على حجبها عن الجماهير والتكتم على أمرها).

لقد كان العهد الجديد كنص تاريخى أول ضحايا عملية نقد المصادر هذه. لقد قام Rudolf Bultmann باتباع المنهج التاريخى النقدى المعمول به فى الأدب فى تحليله وتناوله للنص المقدس. و هكذا قام بتفسير «علاقة رسالة المسيح الأصلية بالشخصية التاريخية لعيسى». ولقد سار فى تحليله إلى أقصى مدى، وتوصل إلى استحالة القيام بعملية كتابة صحيحة لتاريخ عيسى للظروف المحيطة بنشأة الأناجيل. لا يوجد رغم المجهودات المضنية مصدر أساسى، لا يوجد «إنجيل عن عيسى»[٣].

لقد توصل البحث إلى نتيجة مفادها أن النصوص السبعة والعشرين نص التى يتضمنها العهد الجديد ليست حقيقية أو واقعية بكل ما تعنيه هذه الكلمة، أى أن يكون كاتبها معروفًا وأن يكون معاصراً لعيسى. ليس لدينا سوى روايات مصدرها الغرباء عن عيسى، ولكن هذه الروايات ليست مروية أو مكتوبة باللغة الأم، أى باللغة الآرامية، وليست صادرة عن شهود عيان. فكيف يتسنى لنا أن نعلم بما كان يريده أو يعنيه إن لم نكن حتى نعلم ماذا قال؟

كما أن مسألة الرواة لا تجدها إلا فى سبع رسائل من رسائل بولس، ولكن بولس

---

(٣) إنظر Mack. لقد تمت محاولات لإعادة تكوين مصدر رئيسى عن طريق التعامل مع المواضع التى لها نفس المعنى والاتجاه عند متى ولوقا.

هذا لم يعاصر عيسى ولم يحدثه. لقد توصل البحث إلى أن تاريخ الرسل وقصصهم ماهو إلا نتاج القرن الرابع الميلادى.

ولذلك لم يستطع الكثيرون نفى حقيقة أن نشأة النصوص المسيحية المقدسة لا تعود إلى أسباب تاريخية، بل تعود فى حقيقة الأمر إلى مصالح تتعلق بالكنيسة. وهذا يعنى: أننا نعلم علم اليقين التأثيرات التى أحدثتها الظاهرة عيسى، ولكننا لا نعلم صاحب هذه الظاهرة والتجربة: عيسى. فعيسى ليس مؤسس الدين المسيحى بقدر ما هو موضوع هذا الإيمان والدين، أى عيسى هذا «المجهول العظيم[٤]». يقول Gerd Lüdemann: «**إننى لا أومن إذن بالكتاب المقدس ككلمة الله لنا، ولكن أومن بعيسى الذى يقف خلف نصوص العهد الجديد تخنقه التقاليد الكنسية المتراكمة**»[٥].

لقد توصل كثير من الباحثين إلى استحالة إمكانية الحديث عن وحدة العهد الجديد وخلوه من التناقضات وصحته، بغض النظر عن مسألة كتابته. ويعتقد Lüdemann أن العهد الجديد هو اختيار الكنيسة للنصوص بهدف تحقيق أغراض بعينها، وهى مجموعة نصوص الجانب الفائز والفريق المنتصر. لقد تم تدوين هذه النصوص بعد أن اجتازت المسيحية بداياتها بزمن، وهى بالتالى ليست كلمة الله بل كلمة الإنسان.

ويعتقد Lüdemann أن «التدقيق التاريخى لنشأة العهد الجديد وما يحتويه من مقدسات، يؤدى إلى انهيار أبنية الكنيسة وعلم اللاهوت كما لو كان بناؤهما من ورق»[٦].

ولقد عبر كثير من علماء اللاهوت عن استيائهم البالغ من تزوير بعض الوثائق الكاملة، مثل رسالة بولس الثانية، وكذلك الرسالة الثانية لبطرس، وكذلك جميع المواضع الخاصة بمسألة الثالوث، ومن ضمن هذه المواضع: رسالة يوحنا الأولى (٥: ٧)، وأمر التعميد «باسم الأب والابن والروح القدس» (متى ٢٨: ١٩).

---

(٤) Deschner ص ٨٣.

(٥) Lüdemann (١٩٩٥) ص ٢٢٦.

(٦) Lüdemann (١٩٩٥) ص ٨ و٩ و٢١٥.

إن نقد العهد الجديد أصبح همًا وشاغلاً عظيمًا للباحثين فى علم اللاهوت، حتى يتوصلوا إلى ما وراء عام ٣٢٥ ليتمكنوا من إعادة اكتشاف المسيحية الحقيقة ذات الأصول اليهودية. يعتقد John Hick ـ أحد أبرز نقاد هذه الدوجما وتعاليم الكنيسة ـ عن حق أن مجرد مناقشة التجسيد والثالوث قد سلبت الاثنين قدسيتهما ومكانتها حتى صار الاثنان مجرد نظرية(٧). من المحتمل أن ينطبق هذا الأمر على الغرب. أما بالنسبة لكنائس الشرق الأرثوذكسية، فإن دوجما وتعاليم الثالوث استطاعت أن تقف فى وجه الزمن بشكل أفضل عما حدث فى الغرب. وربما يعود ذلك إلى أن علماء اللاهوت الشرقيين طالما تعاملوا مع مسألة الثالوث كلغز وسر فى حد ذاته، بينما وقعت كنائس الغرب ضحية لمحاولتها تفسير هذا الدوجما بشكل عقلانى.

أما أكثر المواقف تطرفًا، فقد تبناها بعض علماء اللاهوت المسيحيين من أتباع Paul Tillich مؤكدين رأيه أن عيسى رمز جميل، جميل لدرجة تجعل من الضرورى اختلاقه إن لم يكن قد وجد فعلاً، حتى إن أمر الحقيقة التاريخية لعيسى تصبح غير ذات أهمية. فالإيمان والدين المسيحى ليسا بحاجة إلى تسويغ تاريخى، ولكن ـ كما قال Bultmann ـ إلى: «لقاء روحى مع المسيح». ويتشابه هذا القول مع رأى إكو Umberto Ecco: «بماذا يؤمن من لا إيمان له؟» ووفقًا لذلك، فإن المسيح حتى لو كان مجرد شخص فى حكاية مؤلفة، فإن هذا التأليف رائع وشديد الجمال ويتسم بسحر وغموض يضاهى فكرة ابن الله الحقيقية.

يُعَدّ كل ما سبق ذكره مجرد خطوات لتجديد ما قام به شلايرمخر Friedrich Schleiermacher من قبل، وهو تحويل الدين إلى فلسفة جمالية. تتخلى فلسفة الحياة هذه عن جميع مضامين الإيمان الموضوعية وتلقى بها خلف ظهرها لتصبح «دينًا بلا إله»، لأن ديننا ينحصر فى إحساس الفرد الداخلى، ويترفع عن الحياة والعالم الحقيقى، ويصبح كما قال جوته Goethe: «مسيحية لاستخدامى الخاص»(٨).

فالدين إما أن يكون دينًا وإما لا يكون! ألا يستطيع المرء إذًا أن يبحث مع كل من

---

(٧) Hick فى Sherbok – Cohn الفصل ١.

(٨) جوته Goethe فى «الشعر والحقيقة» فرانكفورت ١٩٩٣ الجزء ٥ ص ٥٧٥.

Carlos Casteneda و Henri Michaux عما يمكن تسميته بـ «بخبرة الهوة وتجربة معايشتها» وذلك من خلال النباتات المخدرة المثيرة للوعى الدينى والتى يكثر الهنود من استخدامها، أى أن يكون الإله المتعرف عليه فى حالة غياب الوعى بتأثير المخدر بديلاً عن صورة الإلة العقلانية التى يؤمن بها من يعتقد بالله كعلة أولى، وينفى مسألة الوحى؟

وبتأثير هذه الخلفية الفكرية، قام الأمريكى Matthew Fox ، هذا القسيس المنتمى إلى جماعة الدومنيكان سابقًا، بإجراء تغيير فى النموذج، فدعا إلى تغيير نموذج عيسى من عيسى التاريخى إلى عيسى الكونى(٩).

ولقد انزلق فى محاولته هذه إلى فلسفة تتسم بمواصفات مرحلة ما بعد الحداثة، ومليئة بالعناصر الغامضة والغنوصية.

ولكننا نتساءل: هل تملك صورة عيسى الكونى مقومات الحياة إذا هى تخلت عن صورة عيسى التاريخى؟ أو ليست صورة عيسى المتعالية على الحقيقة التاريخية وصحتها، هذه الصورة المختلفة، المفتعلة، أو ليست شفرة إضافية للحقيقة غير الملموسة؟

هناك تلاعب لاهوتى أقل تطرفًا، بمقتضاه هناك بالفعل عيسى، كحدث وقع فعلاً «Jesus - Event» كنواة تاريخية للمسيحية، وكل ما عدا ذلك - أى ما تبع ذلك - من المسيحية ما هو إلا تأملات نظرية.

لقد كان عيسى أكثر من مجرد فكرة جميلة. لقد كان تجليًا مميزًا ووحيًا فى الشخص ذاته(١٠). ويقول Klaus Berger إن الله الخفى قد أصبح «مرئيًا ومنظورًا» من خلال «ظهور عيسى كإله وشفافية تجلى الله من خلال عيسى ووجوده فيه»، لأن عيسى «نفاذ ومتخلل بشكل كامل فى الوجود الإلهى، فى وجوده هو». (١١)

---

(٩) Fox فى kirste ص ٣٧٤ - ٣٧٦.

(١٠) Cragg ص ٥.

(١١) Klaus Berger: «فى البدء كان يوحنا». دار نشر Quell شتوتجارت ١٩٩٧ نقلاً عن محادثات من خلال Helmut Löhr فى FAZ بتاريخ ٣/ ٦/ ١٩٨٩.

وبتعبير وصياغة كلمات Michel Lelong: «فإن الله قد تجلى بكامل وجوده فى المسيح عيسى، وعرف نفسه فيه وظهر من خلاله»(١٢).

فى الحالات الثلاث السابق ذكرها (من خلال المقولات) يفقد عيسى ألوهيته، ولكنه يُرفع إلى مكانة عالية، ويستمر السموّ به إلى أن يكون مضمونًا للتجلى والوحى. ولكن إذا تساءلنا ماذا إذا لم تكن هذه المقولات تلاعبا بالألفاظ ولكنها توابع لما حدث وقيل وصيغ فى إزنك؟، ذلك لأن علماء اللاهوت الذين يتبنون فكرة «الحدث» لابد وأن يقبلوا أن نعارضهم بالحقيقة التالية: إن بناء أفكار من نقطة لا نستطيع إثباتها تاريخيّا ولكن نَعُدُّها جزافًا حدثا وقع فعلاً، لهو أمر كفيل بأن يزج بنا فى تأملات نظرية غير مجدية.

وهناك نظريات أخرى تتسم بصيغة عقلانية مما يزيد من فرص نجاحها وانتشارها على مستوى كنائس العالم. وهذه النظريات تنسب لواضعها الأستاذ البريطانى John Hick (برمنجهام) المسيحى الأنجليكانى. ولقد توصل Hick إلى أن عيسى إما أن يكون إنسانًا فقط، وإما أنه لم يكن إنسانًا على الإطلاق. واختار Hick بشكل مطلق أن يكون عيسى إنسانًا فقط.

لقد رأى Hick أن عيسى كان إنسانًا فقط اختاره الله ليحمل رسالته الإلهية، وأنه لم يكن معصومًا من الخطإ أو الخطيئة.

لقد تمثلت رسالته فى أن يضيف إلى صورة الإله القاسية الموجودة فى العهد القديم، صورة الإله المحب الرحيم، وأن يضفى على وصايا موسى وتعاليمه روحانية، وأن يضفى مسحة أكثر انسانية على تشددات التلمود. ولقد عَدَّ Hick عملية تأليه عيسى والتى جاءت زمنيّا فى وقت لاحق لحياته، وتحويل عيسى إلى الشخص الثانى فى مسألة الثالوث الإلهى المقدس «طريقة أسطورية ورمزية للتعبير عن معنى وقيمة عيسى». لقد تحولت صورة عيسى «كابن للرب»، وهى كناية صاغها اليهود الموحدون، إلى نظرية أشبه ما تكون بنظرية الإغريق فى تعدد الآلهة وعلاقة الإله الأب بأبنائه(١٣).

---

(١٢) Lelong ص ١٦٠.

(١٣) Hick (١٩٧٧) الفصل الأول. ويشاركه Paul Schwarzenau (١٩٨٢) الرأى ذاته ص ١٢٣: «لم تتم تسمية عيسى فى المسيحية الأولى والمرحلة التى سبقتها بالرب. بل إنه من المؤكد أن شخصية عيسى التاريخية ما كانت لتسمح أو تقبل بعملية تأليه لشخصه».

ترتكز نظرية Hick التى تدعو إلى إلغاء ونفى فكرة التجسيد إلى حقيقة أن عيسى نفسه لم يتحدث فى أى لحظة عن نفسه كإله أو عن ثالوث إلهى. تتمركز رؤية Hick الشاملة على عيسى أكثر منها على الإله، ولكنه لا يجزم إن كان وقوع حدث المسيح هذا فريداً أو أنه سيظل كذلك. فيقول: «إننا لم نعد نتحدث عن نقطة تقاطع بين الإلهى والإنسانى، هذا التقاطع الذى حدث فى حالة واحدة فقط هى عيسى»[١٤]. ويختلف موقف عالمى اللاهوت الكاثوليكيين Rahner وKüng عن Hick، فكلاهما لا يرفض الحجج التى تساق لرفض فكرة الثالوث الإلهى متضمنة عيسى كشخص إلهى داخل هذا الثالوث، ولكنهما يجتهدان فى إعطاء عيسى مكانة الصدارة فى هذا الشأن، والتى تحميه بدورها من أن يكون مجرد رسول مثل باقى الرسل. أى أن كليهما يعترض على فكرة تعدد الآلهة والتى يتضمنها منطق فكرة التجسيد.

ولقد توصل Rahner من خلال إعادة التفكير فى تعاليم التجسيد إلى تعريف آدمية وإنسانية عيسى الحقيقية، حين قال: «إن من يقول إن عيسى هو الإنسان الذى يعيش حالة تسليم الذات لله بشكلها المطلق، يمكنه بهذا القول أن يعبر عن حقيقة جوهر المسيح فى عمقها بشكل صحيح».

ويعتقد Rahner أن «التجسيد» الإلهى فى الحياة الإنسانية إنما هو احتمال عام، ويكون عيسى بهذا المثال الكامل والأوحد لمثل هذا الإلهام.

أما لغة Hans Küng فتبدو أقل خفوتًا ورونقًا، ولكنها تظل حسب رأيى - أقل من مطالبة Lüdemann فى أن يكون للحقيقة الصدارة فى الخلاف الدائر بين الكنيسة والحقيقة. فـ Küng يعترف من ناحية برب إبراهيم ورب عيسى، وأن عيسى دعا - بوصفه مختاراً من هذا الرب - له باسمه، أى أن عيسى إنسان مميز فريد «اختاره الله وأعطاه قوة مطلقة». أى أن التثليث يتضاءل هنا إلى حد «وحى الله فى المسيح من خلال الروح»[١٥] ولكن من ناحية أخرى يكتب Küng أن هذا الإنسان الحقيقى عيسى الناصرى، وحى الله الحقيقى، هو - فى لغة أقرب ما تكون للغة الكتاب المقدس - هو المسيح، المخلص، صورته وابنه. وتجتمع فى المسيح عيسى هذا روح

---

(١٤) John Hick: «التعدد والتنوع الدينى والحق فى المطلق» فى Rirste ص ١٤٦.
(١٥) Ru`ng / J.van ESS.

الله، سلطته وقوته. ويتوحد المسيح الإله مع الإنسان، أى الشخصية التاريخية لعيسى الناصرى[١٦]. وبهذا يثبت Küng أنه لا يزال الابن الوفى المطيع والتابع لكنيسته وتعاليمها.

ولقد تسلطت أضواء على عنصرى «الصلب» و«القيامة». واكتسبا رؤية جديدة، حيث نالت الرؤية القرآنية مساندة من جانب التيار النقدى فى علم اللاهوت والذى أثبت أن عملية المحاكمة وتوقيع العقوبة قد تما فى يوم الجمعة نفسه قبل عيد فصح اليهود مباشرة، وأن الكلمات التى تنسب للمسيح وهو على الصليب ما هى إلا كلمات ملفقة لا أساس لها من الصحة، وأنها رواية مؤلفة فى زمن لاحق لهذا الحدث.

أما الاعتقاد بقيامة المسيح والتى أصبحت ظاهرة تؤمن بها جماعة المسيحيين بأسرها، وإن كانت فى الأصل رؤية فرد واحد، فيراها Lüdemann «رد فعل مسلسلا»[١٧] لا مثيل له.

أعتقد أن هذا العرض الموجز يكفى دليلا على الأزمة العميقة التى تعيشها علوم اللاهوت المسيحية والمسيحية ذاتها وتعاليمها فى العالم المسيحى، والتى يعد Eugen Drewermann أخيراً وليس آخراً - أحد مؤشراتها البارزة. ويصور القرآن هذا الموقف بدقة شديدة فى سورة الشورى الآية ١٤ : ﴿ **وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب** ﴾.

ولكن من غير المتوقع أن تؤدى هذه الأزمة (حتى الآن) إلى أن تسرع حشود المسيحيين المحبطة إلى الدخول فى دين الله كما تبشر سورة النصر بذلك الآية ٢ : ﴿ **ورأيتَ الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا** ﴾، ولكن بالأحرى ستدفع هذه الأزمة بالكنيسة إلى فنائها وتعجل بالقضاء عليها وبنهاية المسيحية المرتبطة بالكنيسة، وسيؤدى ذلك إلى زيادة شعور الجماهير بالاغتراب عن الدين عامة، وتزيد من رغبة الإنسان الفرد بانتقاء ما يريد ويناسبه من المعروض فى سوق الديانات والمعتقدات والتى هى أشبه بالسوبر ماركت.

---

(١٦) Küng (١٩٨٨) ص ٣٣، ٤٣ـ٤٥، ٤٩ـ٥٠، ٥٤.

(١٧) Lüdemann (١٩٩٥) ص ٢٢٧.

ولقد ذكر القرآن هذا التطور فى سورة الجاثية الآية ٢٣ .

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم . . ﴾ .

-٢-

إن هذا التطور السابق ذكره والذى تشهده علوم اللاهوت المسيحى وتعاليم المسيحية ، لا يصل إلى مدارك الجموع المؤمنة التى تذهب أيام الآحاد إلى الكنيسة ، لأن المسيحية تشهد حالة من «الانفصال العميق بين التقوى والورع وبين العلم ، أشبه ما تكون بحالة الشيزوفرانيا»[١٨] .

فبالرغم من الزلزال الذى ضرب علم اللاهوت لا يمكن إلا أن نتوقع استمرار الجموع البسيطة من الكاثوليك فى پولندا ، كرواتيا ، وأيرلندا وإسپانيا فى المشاركة فى المواكب التى تقام إجلالا وتقديسًا «لأم الإله» .

يتشابه هذا التطور بما أحدثه كل من Max Planck و Einstein و Werner Heisenberg و Niels Bohr من تحول فى بدايات القرن من الفيزياء النيوتنية (نسبة إلى نيوتن) إلى الفيزياء الجديدة . فلقد أدركت العامة نتائج نظريات هؤلاء بعد نصف قرن . فى جميع الأحوال ، فإن مصداقية الكنيسة أو عدم مصداقيتها يتوقف اليوم على موقفها من علماء اللاهوت الذين يتبعون منهجًا تاريخيًا نقديًا ، وما توصلوا إليه من نتائج ، وعلى إذا ما أفرجت الكنيسة عن هذه النتائج أو اختارت طيها فى بئر الكتمان .

وتفتح عملية رفع هالة القدسية عن عيسى وتخليصه من المسحة الأسطورية والملحمية الباب واسعًا أمام تصالح المسيحية مع غيرها من الديانات والمعتقدات غير المسيحية ، وبخاصة الإسلام .

إن الإمكانات التى تتيحها عملية التصحيح هذه مذهلة ، لأنه إذا ما توطدت فكرة أن عيسى «مجرد» رسول الله - وهى مكانة عظيمة تحظى لدى المسلمين بتقدير

---

(١٨) Lüdemann (١٩٩٤) ص ٢٠٩ - ٢١١ . (١٩٩٥) Lüdemann ص ٨ .

واحترام بالغين ـ فإن هذا كفيل برأب الصدع بين المسيحيين والمسلمين، ذلك الذى أحدثه المجمع الكنسى فى إزنك. إن الأمر لا يتعلق بأن يشعر المسلمون بأنهم على حق عندما تتطور المسيحية لتدرك أن المسيحية المذكورة فى القرآن هى الأصل وهى الصحيحة، ولكن إذا حدث هذا فسيكون الإسلام قد أدى رسالته فى إصلاح المسيحية وتخليصها مما علق بها من شوائب وتلفيقات، وعاد بها إلى أصلها. وبهذا يكتسب الحوار العالمى فرصًا جديدة ليس على المستوى الإنسانى فحسب، بل كذلك على مستوى النظريات، لأنه فى هذه الحالة لن تصبح مسألة الطبيعة الإلهية لعيسى أحد المحرمات التى لا تمس ولا تناقش كما ذكر Hans Küng. وبهذا سيكون تمسك المسلمين بالمسيحية التى وردت فى القرآن لمدة ١٤٠٠ عام قمرى عملاً آتى ثماره واستحق هذا العناء والمثابرة.

لقد أحدث المنشور البابوى الذى أتى ذكره فى الفصل السابق تغيرًا ملموسًا.

فلم يعد الحديث قائمًا عن هلاك كل من هو خارج الكنيسة. لقد تخلت الكنيسة عن موقفها هذا (لانجاة خارج الكنيسة) الذى يعود إلى قرون طويلة. (أما فى المجال العلمانى فيتحول هذا الموقف فى إطار العولمة لصياغة أخرى «لا حضارة خارج الغرب!»).

يتجلى هذا الموقف فى أكثر أشكاله تطرفًا فيما ورد فى المنشور البابوى لعام ١٩٧٩ فى الفقرة ١٤ والتى جاء فيها «إن الإنسان ـ كل إنسان بلا استثناء ـ قد نجا من خلال المسيح، وكل إنسان مرتبط بالمسيح بشكل أو بآخر حتى لو لم يعلم الإنسان هذا».

إن المسلمين وفق هذا القول وبتعبير Rahnerهم مسيحيون بدون أن يعرفوا!.

إن المسلمين «ينتقمون» لأنفسهم «فكريًا» عندما يَعُدُّون عيسى (مثله مثل بقية الرسل) كما ورد فى القرآن مسلمًا بالمعنى الأصلى للكلمة، أى أنه إنسان يسلم نفسه كاملاً لله. فلقد ورد فى سورة آل عمران الآية ٦٧: **﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾**. وكذلك ورد فى سورة البقرة الآية ١٣٦: **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق**

ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾. ويتشابه هذا، بل يكاد يتطابق مع ما ورد فى الآية ٨٤ من سورة آل عمران.

أما مقولة أن المسلمين مسيحيون (بدون أن يعرفوا)، فهى ليست عارية من الصحة تمامًا: إن المسلمين من أكثر الناس احترامًا وإجلالاً ودفاعًا عن مكانة المسيح عيسى بن مريم وأمه اللذين اصطفاهما الله. وتتأكد هذه الحقيقة عندما يتابع المسلم بدهشة بالغة واستنكار واضح ما يتعرض له كل منهما - أى عيسى ومريم العذراء - من تقليل لمكانتهما واحترامهما على يد بعض علماء اللاهوت المسيحيين أمثال We Ranke - Heinemann و Dorothee Sòlle عندما يتعرضون لشخص المسيح على أنه شكل من أشكال العاملين فى المجال الاجتماعى العام، ولأمه بصفتها أم غير متزوجة. إن بعض علماء اللاهوت أمثال Paul Schwarzenau و William Watt ومرة أخرى John Hick يتعاملون مع الموقف الحالى ونتائجه بشكل صريح. إن هؤلاء يرون أن جميع المحاولات التى تستهدف الحفاظ على صدارة المسيحية - خاصة بعد تنقية صورة عيسى من جميع العناصر الأسطورية والملحمية، وبالتالى المسيحية - ليس لها أدنى أمل فى تحقيق النجاح. يعتقد Schwarzenau الذى يتحدث عن بداية زمن ما بعد المسيحية، وعن ظهور عناصر دين عالمى، أن عهد المبشرين قد ولى، وأن ساعة عودة البشر لدين الله الواحد قد حانت[١٩].

يؤمن Schwarzenau مثله مثل[٢٠] Watt وHick بأن الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام هى فى حقيقتها وأصولها ذات مكانة متساوية، كما تتساوى فى حقيقتها. ويرى Schwarzenau أن القرآن بمثابة وحى ورسالة إلهية - دينية كونية تصلح للعالم كله، وتتضمن حقيقة رواية عيسى الأصلية. وبالتالى يرى Schwarzenau أن القرآن يصلح لأن يكون إضافة مفسرة للعهد الجديد.

يتوقع Schwarzenau للمستقبل أن يتطور الأمر من «توالى موسى وبعده عيسى وبعدهما محمد إلى حالة معية» (أى أن يكونوا معًا).

---

(١٩) Schwarzenau نقلاً عن Kirste ص ٤٧٨.

(٢٠) Watt ص ٤٣.

«سنكون فى أواخر الأيام كلنا معًا داخل الإسلام العالمى»[٢١].

لا يخفى Schwarzenau مثله مثل Hick إعتقاده أن الديانات كافة رغم مطالبها وأهدافها العالمية وتوجهها للبشر كافة، فهى مرتبطة بالنسيج الثقافى لها، وبالتالى لا تكاد تصلح لتحقيق مثل هذه العالمية التى تصبو إليها. يسمى Hick هذا الأمر «الإثنية الدينية»، والتى تدفع بالمؤمنين والتابعين للديانات المختلفة إلى المحاولة التى لا طائل منها لإثبات التفوق الأخلاقى والفكرى لديانتهم على الديانات الأخرى: مع أن الفضيله والرذيلة موزعتان بشكل قد يكون متساويا على العالم كافة.

إن الديانات كلها تكاد تكون لها نفس الأهداف، وهى عدم تركيز حياة البشر على الدنيا فقط، بل السمو بها عن طريق تركيزها وتمركزها - أى حياة البشر - على الله ووجوده. إن رؤية الديانات المختلفة للحقيقة النهائية لا تعنى أن إحداها على حق والأخرى على باطل. لكن على العكس فإن كل الديانات - وفق اقتناع Hick - تشارك فى نصيب متساوى من الحقيقة الإلهية.

وهذا الموقف يوضحه أكثر ما يوضحه الضوء الذى ينكسر فى مناخ الأرض إلى ألوان قوس قزح. وهناك تشبيه آخر لاختلاف الديانات مع اتفاقها فى الهدف النهائى، وهى أن الطرق المختلفة تؤدى إلى قمة الجبل نفسه[٢٢].

وانطلاقًا من هذه الخلفية التى تتسم «بتعدد النظريات اللاهوتية للديانات» يطالب Hick أتباع الديانات والمذاهب إلى نبذ فكرة التعصب لدينهم ومذهبهم واعتباره طريق النجاة الأوحد والمطلق. ويناشد Hick المسيحيين أن يخطوا الخطوة الحاسمة ويعترفوا بأنه بالإضافة إلى عيسى هناك مخلصون آخرون وأن هناك رسلا وأنبياء أوحى إليهم غيره، وأنهم كذلك أصحاب رسالات سماوية[٢٣].

---

(٢١) Schwarzenau (١٩٨٢) ص ٩، ٢٢، ١١٧، ١٢٣-١٢٤، ١٢٦.

(٢٢) Hick (١٩٩٥) ص ١٠، Hick فى Kirste. ص ١١٤-١١٥، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٨-١٤٩. Hick (١٩٨٨)

(٢٣) Baumann ص ٧.

-٣-

لابد وأن يلحظ المرء ارتباط تأسيس هذا التعدد الدينى الليبرالى وقبوله بالفيزياء الجديدة من حيث تاريخ الفكر . فعلوم الطبيعة الجديدة التى تقبل بنسبية غير دقيقة تشبه تقبل Hick للنسبية فى تقيمه للأديان : فالذى يبدو متناقضًا قد يكون كله صحيحا . ويوافق Hick ـ كما توافق علوم الطبيعة الحديثة ـ على ضرورة التفرقة بين الحقيقى والطريقة التى يفهم بها . ويميل Hick إلى رفض أى تقييم نوعى ، إنه يتقبل بطبيعة الأمر أن يتحلى المرء بانحياز إيجابى أو حكم مسبق إيجابى لديه ، ولكنه يرفض أن يكون المرء سيئ النية تجاه ديانات الآخرين .

إن هذا لا يتشابه مع علوم الطبيعة الحديثة فقط ، ولكن مع أحدث صيحات الفكر واتجاهاته فى بدايات الألفية الثالثة .

لقد امتد ضياع المعايير ، وثقافة الصدفة ، ونظريات الفوضى ، ليس إلى علوم اللاهوت فحسب ، بل تجدها كذلك فى فنون الرقص والموسيقى الحديثة لـ John Cage والذى يختار جميع الأنغام التى تروق له دون معيار فنى . يالها من تعددية!

أولا تذكرنا الفلسفة الجمالية المعتمدة على الصدفة هذه بما سبق ذكره من الخيارات اللاهوتية؟

الملمح المميز لما بعد الحداثة فى الفلسفة ، والتاريخ ، وعلم الاجتماع والأنثروبولوچيا هو نبذ المنظومات الكبيرة والنظريات الشاملة العامة . فبدلاً من الشرح ، يحتل الوصف مكان الصدارة ، ويتم تفكيك علاقات فكرية إلى مجرد طرق محادثه . فالعلم يتم «تدويره» وتحريكه كالمال فى اتجاه ما بعد الحداثة .

فالنص آخر الأمر هو نتاج ما يفعله القارئ به ، أى القارئ مؤلفًا!

وكل شيء له الحق فى أن يتمتع بالقدر نفسه من الحماية : كل ما هو صغير ، كل ما هو غريب ، كل ما تهدده الأغلبية ، النساء ، الأطفال ، مدمنو المخدرات ، الشواذ جنسيا ، النحل الدينية والحيوانات .

ويتمثل رد فعل ما بعد الحداثه على حالة الفقر الفكرى والروحى للحداثة فى مظاهر العصر الجديد ، مثل : كشف الغيب ، علوم إعادة التجسيم ، النحل المسيحية

الجديدة الملفقة ، الدين المدنى ، نظريات البيئة وأساطير الطبيعة ، وغيرها الكثير مما نجده فى السوبر ماركت الدينى المعاصر .

ويستشعر الناس اليوم الخوف من كل ما يتسم بالنظام والقواعد . ففى عصر ما بعد الحداثة يبتعد الناس عن «الموضوعية» كهدف وإمكانية ، لدرجة أن الكثيرين ينفون عن العلوم الطبيعية مسألة المعيارية .،

فالجوهر الأساسى للأسئلة الفلسفية القديمة مثل : ماذا أستطيع أن أعرف؟ ماذا على أن أفعل؟ ما الذى أستطيع أن آمله؟ كل هذه الأسئلة تطرحها ما بعد الحداثة كتساؤلات ، ولكنها لا تبغى من ورائها إجابات . ولكن إذا أصبحت كل مقولة مجرد مادة تأملية ، فسيصبح عن قريب من الفضائل ألا يكون للمرء رأى ثابت (no view) وكذلك لا يحدد لنفسه هدفًا (no goal) ، وستصبح كل حماسة دينية وانتماء عقائدى تطرفًا . هذه النسبية فى القيم ستؤدى بطبيعة الحال إلى عدم اتخاذ مواقف ، وليس للتسامح وتقبل الآخر (رومان هرتزوج)[٢٤] . والنقيض هو الصحيح : تقبل الآخر والحق فى وجود أشياء مطلقة متلازمان (Peter Steinacker) .

لقد تبين للناس أن «الحلول النهائية» تكمن فى منطق الدولة الحديثة . لقد عبر Zygmunt Baumann عن اعتقاده بأن ما يهدد الوجود الإنسانى ككائن أخلاقى ليس الشهوات ولا الأفكار القديمة ولا الاعتقاد بالخرافات ، ولكن ما يهدده حقًا هو العقل ، الحضارة والعلم[٢٥] . ويتماشى مع وجهة النظر هذه ما قام به Jürgen Habermas فى إحدى كتاباته بفصل الحق عن الأخلاق ، نابذًا بذلك الأسس التى ارتكزت عليها مرحلة التنوير .

يؤدى الإستغناء عن ضرورة وجود فكرة «الحقيقة» إلى اتجاه نسبى ذى طبيعة عدميه ، تؤدى إلى أن يختار المرء أى شىء يريده بلا تحديد لموقف ثابت[٢٦] .

لكن مرحلة ما بعد الحداثة تتمسك بالإنجازات الرئيسية للحداثة ، وهى : فصل

---

(٢٤) منح جائزة السلام الألمانية للأستاذة الدكتورة Schimmel فرانكفورت ١٥/ ١٠/ ١٩٩٥ ص ٩ .

(٢٥) Baumann .

(٢٦) العطاس (١٩٩٦) ص ٥٠٨ .

الدولة عن الكنيسة، التعدد الفكرى، رؤية تاريخية خطية مستقيمة. ميتافيزيقيا ملحدة، رسالة التبشير بالإنسان محور الكون.

-٤-

لا يؤدى السؤال عما إذا كان عيسى يوحد البشر أم يفرقهم دوراً مهماً فى مشهد مرحلة ما بعد الحداثه، حيث لا تولى الأخيرة أهمية لمثل هذه التساؤلات. ولكن من المهم جداً للمسلمين أن يعلموا إلى أين تريد هذه المرحلة أن تصل بهم؟ فمثلاً ما هدف John Hick بالنسبة للمسلمين؟ إلى أين يريد أن يتوجه بهم؟

تَعُدّ الرؤية الإسلامية مرحلة ما بعد الحداثة هذه إحدى النتائج المتأخرة للحداثة والتى تتحمل مسئولية انتشار الإلحاد، والعلمانية، وفقدان القيم والمعايير، وفقدان الأشياء لمعانيها ومضامينها. إنها رد فعل مأزوم على عالم مرعب لا يمكن - على أقل تقدير منذ الحرب العالمية الثانية - بأى حال السيطرة عليه، لا من خلال مثل وقيم التنوير ولا حتى بقوة ردع السلاح(٢٧).

يعتقد Emanuel Kellermann أن الإسلام يكتسب أهميته وقيمته المطلقة مقارنة بالأديان الأخرى، فهو يقدم أفضل ما يمكن للدين أن يقدمه(٢٨).

ولذلك لا ينبغى لأحد أن تصيبه الدهشة إذا ما رفض العالم الإسلامى أن يشارك فى مسألة اللامبالاة بالمعتقدات، لأن المخاطر الناجمة عن هذا لا يغفلها العقل. إن هذا الأمر بمثابة كابوس سيؤدى بالعالم إلى طريق مسدود، سيعمل على أن تفقد الأشياء معانيها وقيمتها، سيفقد العالم الأمان، التراث والتقوى. لقد عبر أندريه مارلو عام ١٩٦٨ عن هذا حين قال: «إننى أومن بأن حضارة الماكينات هذه هى أولى الحضارات بلا قيمة عليا. إن علينا أن ننتظر لنرى هل يمكن لحضارة أن تكون

---

(٢٧) Mansoor . The Muslims World Book Review لعام ٧ رقم ٢ عام ١٩٨٧ ص ٣. لعام ١٤ رقم ٣ عام ١٩٩٤ ص ٩.

(٢٨) Kellermann : الإسلام الطبعة الثانية: بازل ١٩٥٦ ص ٣٧٧.

حضارة تطرح مجرد تساؤلات فقط، أو أن تكون حضارة الآن فقط. وهل من الممكن أن تؤسس قيمها على شيء آخر غير الدين لفترة طويلة؟».

لا يعتقد المسلمون أن أزمة القيم والمعنى هذه يمكن التغلب عليها من خلال إستدعاء القيم الإنسانية والتوصل إلى اقتناعات مشتركة بين المسيحيين واليهود والمسلمين، والليبراليين، والماركسيين والملحدين، طالما ظل الإنسان هو معيار ومقياس الأشياء كافة، وهو وحده صاحب الحقوق كافة.

إن التمسك الأعمى بنموذج للتقدم يستند على الفرد الحر لن يؤدى إلا إلى مزيد من الإنتكاسات. لذلك فإن قليلا جدا من المسلمين يولون أهمية لمشروع Hans Küng بإقامة «علم أخلاق عالمى».

لقد كان لكل هذا أثره الواضح فى جلسات برلمانات ديانات العالم المنعقدة فى جنوب إفريقيا فى الفترة من ١ - ٨ ديسمبر عام ١٩٩٩، حيث ناشد الحاضرون المؤسسات الرائدة فى العالم الحفاظ على الأخلاق. ومن أمثلة النداءات: «لا يصدر عنك فعل لا أخلاقى»، «احترم الحياة»، «إننا نهدف لإقامة عالم تساند فيه التكنولوچيا آدميتنا وتنميها».

كل هذه المقولات الجميلة التى صيغت بصيغة الأمر ولم تتخط القاعدة الذهبية القديمة «أن تعامل الآخرين كما تحب أن تعامل، وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك»[٢٩].

هذه هى الحصيلة الأخيرة لما يتبقى، إذا ما عَدَدْنا أن الأخلاق هى التى ستبقى بعد زوال الديانات.

يقول Hans Joachim Fischer عن حق: «إن الأخلاق الجديدة لن تستطيع أن تركز على مياه نظيفة فى بحر الشمال أو جزر خالية من الأسلحة النووية. ستفقد مصداقيتها إذا ما أعلنت عن نفسها أنها أخلاق بلا هدف للتفرقة بين الخير والشر، الحق والباطل»[٣٠].

---

(٢٩) تلك القاعدة الذهبية يقابلها حديث الرسول: «أحب لأخيك ما تحب لنفسك» (مسلم رقم ٧٢ - النووى رقم ٢٣٦، رسول رقم ١٢).

(٣٠) Fischer: أخلاق بلا أخلاق FAZ ١٦/ ١١/ ١٩٩٥.

لذلك فإننى لا آمل خيراً فى نوايا برلمانات الديانات باستغلال قدوم الألفية الجديدة وإقامة حدث عالمى فى أيسلندا. وموقفى هذا يسرى كذلك على نية Hans Küng المتمثلة فى كتابة «علم لاهوت منظم لديانات العالم»[٣١].

إن الإسلام - على النقيض من آراء John Hick التى تتسم بملامح مرحلة ما بعد الحداثة - ليس على استعداد للتخلى عن قيمه «الحقيقة» بالرغم من أن على المسلمين أن يتفقوا مع ما قاله الرئيس الإيرانى د. محمد خاتمى من أن الدين، وتصورنا عن الدين وفهمنا له، لا يتطابقان بالضرورة[٣٢] يضرب الإسلام تشبيها مجازيا مقابلا للضوء الإلهى الذى ينكسر فى ألوان قوس قزح، وهو تشبيه الذهب بمعاييره المختلفة وصولاً إلى أنقى درجاته: ٢٤. ورسالة الإسلام، التوحيد الخالص، أشبه ما يكون بالذهب فى أقصى درجات نقائه وخلوه من المعادن الآخرى أى ذهب عيار ٢٤. ليس هناك درجة أعلى من هذا التوحيد يمكن للمرء أن يتخيلها، وهذه الدرجة غير مرتبطة بثقافة بعينها.

لا يعنى هذا أن الإسلام ليس على استعداد لتقبل الديانات الأخرى والتسامح فى وجودها، خاصة أن هذا التعدد والتنوع فى الديانات مشيئة الله وشأن من شئونه فى خلقه، كما ورد فى الآية ٤٨ من سورة المائدة. ويتضمن القرآن مبدأ يصلح ليحكم العالم، وهو الوارد فى الآية ٦٧ من سورة الحج: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾. ويقول الله تعالى فى آخر آيات هذه السورة (٧٨): ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

كما ورد فى الآية ١٩ من سورة آل عمران والآية ٢٨ من سورة الفتح.

يتفق الإسلام مع فكر ما بعد الحداثة فى وجود تناقض لا مجال للتغلب عليه بين

---

(٣١) Küng : Die Welt ٦/ ٣/ ١٩٨٩ ص ١٣.

(٣٢) خاتمى: لا تحتكر أصحاب ديانة وحدها كل الحقيقة. FAZ ٢٦/ ٩/ ١٩٩٨ ص ٣٥.

التطور التاريخى والقيم الصالحة لكل زمان . فما بعد الحداثة ترفض فكرة وجود قيم غير مرتبطة بزمن محدد، أى قيم تعلو فوق الزمن لتصلح لكل زمان . أما الإسلام فيرى أن التاريخ ما هو إلا حقب فانية - مثل الحداثة وما بعد الحداثة - لكن الباقى والمستمر تعاليم الله . لذلك أعتقد أن علينا أن نتعامل مع التنوير بشكل مغاير عندما نتحدث عن الإسلام .

فلم يأت التنوير بالضوء ليخترق ظلمات التقاليد الإسلامية ونصوصها من قرآن وسنة، بل إن هذه القيم والقواعد من قرآن وسنة هى التى انبعث منها النور والضياء .

إن المسلمين يتعاملون بشك وريبة مع ما بعد الحداثة لأن تسامحها وتقبلها لكل شىء ينتهى إذا ما كان هذا الأمر متصلاً بالإسلام .

فالمسلمون لا يتمتعون بأى مزية من مزايا الأقليات فى أوروبا الغربية .

فالحداثة وما بعد الحداثة تتعامل مع فوبيا الإسلام وحالة الذعر المرضى منه بنفس الشكل والأسلوب، والمثال الواضح على ذلك هو علم اجتماع الديانات .

فإذا كان الآباء والمؤسسون من أمثال Rarl Marx، Max Weber، Emil Durckheim و Georg Simmel قد انطلقوا فى تصوراتهم عن اختفاء منظم للإسلام، فإن خلفاءهم اليوم ممن يروجون لما بعد الحداثة لا يختلفون عنهم، حيث لا يظهرون أى تفاهم أو تعاطف أو ود للإسلام . إنهم لا يروجون لشعارات مثل «كنيسة واحدة، إله واحد وملك واحد» ولكنهم يرفعون شعارات «ثقافة واحدة، تكنولوچيا واحدة، نظام عالمى واحد» . مجمل القول : أينما يول المسلمون وجوههم فإن شبح العولمة يتراءى لهم بوضوح .

لا تفرقة على أساس اللون

شعار: لقد التقيت بأناس يعدون بيضا في أمريكا، بل وتحدثت إليهم حتى تناولت طعامي معهم. ولكن موقف الرجل الأبيض كان قد تلاشى من عقولهم، بسبب هذا الدين (الإسلام).

(مالكولم إكس / مالك الشباظ في رسالة من مكة)

-١-

نود هنا أن نتطرق إلى موضوع العنصرية؛ لأن هذا موضوع يتلهف المسلمون شوقًا إلى تناوله لما يثيره عندهم من غضب وشجون. ولكي تعرف السبب، فما عليك إلا أن تستقل طائرة تابعة لشركة لوفتهانزا الألمانية في طريقها من إستنبول إلى فرانكفورت، وستستمع بطبيعة الحال من مكبرات الصوت إلى من يعلن عن وجود مراجعة لجوازات السفر قبل الوصول والهبوط من الطائرة، أي أن هذه المراجعة تتم في الطائرة. وإنك لترى بعينيك أن حاملي جوازات السفر الألمانية وجميع الركاب الذين لا يدل مظهرهم الخارجي على كونهم عربًا أو أتراكًا يشار إليهم ليمروا بسلام. يطلق موظفو الأمن الأمريكيون على هذه العملية Passenger profiling، أي تحديد هوية الراكب من خلال وجهه، وبالتالي معاملته بما تستحق هويته هذه؛ لأنه يمكن أن يحدث لك ما حدث لي في مطار شيكاجو، حيث فاتتني الطائرة وأقلعت بدوني؛ لأنني كنت مضطرًا للوقوف في أثناء مراجعة جوازات السفر خلف أناس ذوي مظهر عربي، أو لهم لحية، أو يرتدون غطاء الرأس.

ولم تكن هناك ضرورة لإعلان عام ١٩٩٦ «عامًا أوروبيا ضد العنصرية»، لكي

يتنبه الناس ويتذكروا أن العنصرية فى صورتها الشوفينية - مثلا - قد عادت إلى الظهور فى العالم من جديد .

لقد أعلن هذا البلاء الذى عرفه القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عن عودته بقوة وشراسة أكثر . والنصيب الأعظم فى العالم الإسلامى يذوقه البوسنيون والأكراد والفلسطينيون والشيشانيون ومواطنو كوسوفا وكشمير .

لقد تم حُسبان اختفاء العنصرية نتيجة لعقلانية الحداثة ، والتى لا تجتمع معها العنصرية ، أمراً مفروغاً منه ، وواحدا من الوعود الكثيرة التى لم تف بها الحداثة . فما نراه اليوم من تفرقة ذات تسميات مختلفة ، مثل القومية والنازية وغيرها ، ما هى إلا تقسيمات على لحن بدأ منذ عام ١٤٩٢ متمثلاً فى عنصرية دينية إثنية منظمة ضد اليهود والمسلمين . وهذه العنصرية ستصبح أحد مصادر شقائنا ، وأحد الأخطار المهددة لنا فى القرن الحادى والعشرين ، على الأقل فى صورة أساطير ذات مركزية أوروبية وتفرقة على مستوى العالم بين الحضارة الغربية والبرابرة الآخرين (Barbaric Others) (ضياء الدين ساردار) .

وهذا التطور لا يدعو إلى الدهشة إذا ما كان الإنسان واعياً للعاملَيْن المؤثرَيْن فى هذا الصدد : تؤثر انتماءات الإنسان العائلية وتوجهاته تأثيرا كبيرا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يتعرض الشعور القومى فى الأزمنة المختلفة لتغيرات تتخذ أشكالا مختلفة فى التعبير . فالشعور الوطنى (الذى لم يصل إلى حد التعصب القومى البغيض) فى آخر الأمر ليس إلا فكرة الانتماء العائلى ممتداً إلى القبيلة . وهذا الشعور سلوك طبيعى ، لكنه يخدم عملية تأمين الفرد والحيوان . وتظهر الأمة نفسها فى صورة العائلة الممتدة أو العائلة الكبيرة . والولاء للرابطة التى تتيح لى التعايش الاجتماعى وتنمى حياتى وتؤمن سبل معيشتى لهو فضيلة تحترم بلا شك .

والوجه الآخر لنفس هذه العملة مقبول ومعروف تماماً ، وهو أن الخوف والرعب من الغريب - الذى لم نعرفه أو نتعرف عليه بعد - هو فى جوهره رد فعل طبيعى ، بل ضرورى . ويقول القرآن مشجعاً الإنسان لكى يتغلب على هذا الخوف فى سورة الروم الآية : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (*) . ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (**) .

يعرض القرآن معترفًا بهذه الحقيقة صلة الدم والنسب التى تنتج عن الانتساب أو الزواج كقيمة تستحق الحماية كما جاء في الآية ٥٤ من سورة الفرقان : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ . وكذلك سورة النساء الآية : ١ : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ . وهذا أيضًا بين الإخوة والأخوات الذين يؤلفون مجموعة دينية وجماعة إيمانية إسلامية ، (كما ورد فى الآيتين ٧٤ ، ٧٥ من سورة الأنفال(***) والآية ٦ من سورة الأحزاب)(****) .

والقرآن يقر أن أفراد العائلة قريبون بعضهم من بعض بصلات القربى وبما يتعلق بحقوق الميراث وكذلك فى بعض النواحى الأخرى ، لذلك أمكن لداريابادى مفسر القرآن أن يقول إن علاقة القربى تُعَدّ أهم مؤسسة اجتماعية فى الإسلام .

ولكن كل جماعة متماسكة «in groupe» كما يطلق عليها علماء الاجتماع تخلق «out groupe» مجموعة من الخارج لهذه المجموعة ، هذا التحديد ضد الآخر الذى يمكن أن يؤدى إلى استبعاد الآخر . وهناك معايير تصلح لهذا مثل مكان السكن ، والطبقة الاجتماعية ، والخبرة التاريخية ، والديانة ، والجنس ، واللغة (يكفى اختلاف اللهجة) وكذلك لون العينين ، والشعر والبشرة . وكل منا عضو فى جماعات متماسكة عديدة ، ونستطيع أن نلحظ هذا إذا ما شاهد المرء منا مباراة كرة قدم وانحاز لفريق دون آخر . هذا السلوك البسيط والطبيعى من الممكن أن يتطور ليأخذ أشكالاً لمذابح يعجز اللسان عن وصفها ، بل ويخرس بسبب وقوعها لسان أى إنسان ، مثل «التطهير العرقى» الذى تعرض له المسلمون فى كل من البوسنة والهرسك وكوسوفا . هذه الفظائع تشابه الأهوال والمطاردات التى لاقاها المسلمون واليهود على أيدى المسيحيين فى القرن السادس عشر .

(*) آية [٢٢] من سورة الروم . (**) آية [١٣] من سورة الحجرات .

(***) يقول الله تعالى : ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم * والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم﴾ .

(****) يقول الله تعالى : ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا﴾ .

لقد فاقت أعداد اللاجئين نتيجة أسباب دينية عرقية فى النصف الثانى من القرن العشرين، أى أعداد أخرى مسجلة فى التاريخ.

قد تسمَّى القرن العشرون بحق: قرن اللاجئين والمشردين «displaced persons». ألا يجرنا كل هذا - من منطلق المسئولية الأخلاقية - إلى الحديث عن إبادة الهنود الحمر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأحوال العبيد من الزنوج فى الولايات المتحدة وصولا إلى الحرب الأهلية هناك؟

إن مجرد ترديد مظاهر العنصرية، هو ضرب من ضروب الاستسهال وذكر حوادث معروفة، ولكنها تكتسب أهمية إذا كان ذكرها سيؤدى بنا إلى هذه النقطة: هناك عنصر واحد فقط قادر على تحييد جميع مصادر التعصب والعنصرية، ألا وهو الدين.

كمبدأ عام، أظن أن كل العقائد السماوية الحقة قادرة على التغلب على الصراعات الإثنية، حتى وإن كان التاريخ يثبت عدم قدرة المسيحية على ذلك، وكذلك لم يفلح الفكر الشيوعى العالمى المعادى للإمبريالية فى تحقيق هذا.

ولذلك، فمن المهم أن نذكر أن الإسلام قادر فعلاً - وأنه كان دائمًا قادراً - على تهميش العنصرية، بل وإزاحتها تمامًا. لقد تحقق هذا فى بدايات الإسلام عندما عرض بعض نفر من أهل يثرب (المدينة فيما بعد) على الرسول الهجرة إلى يثرب، وعرضوا عليه الحماية فيما عرف ببيعتى العقبة الأولى والثانية عامى ٦٢١ و٦٢٢. ولم يعرض عليه أهل يثرب مجرد الملجأ، ولكن الحماية والأخوة وانضمام المسلمين تحت قيادته السياسية فى مدينتهم التى تضم سكانًا من العرب واليهود[١]، متغاضين بذلك عن الانتماء القبلى، مجتمعين فقط على الإيمان المشترك بدين واحد[٢].

ولقد بدأ بناء أول كيان جماعى سياسى فى الإسلام بحادثتى بيعة العقبة؛ لأن بعد هجرة الرسول إلى يثرب، قام بها أول كيان سياسى يضم أناسا يجمعهم دين واحد، متناسين جميع العناصر الأخرى التى تشكل انتماءات الإنسان للجماعة،

---

(١) تجد شرحًا وافيًا للأحداث التاريخية لبيعتى العقبة عند Charles Le Gai Eaton ص: ٢٠٩ - ٢١١.

(٢) لم تكن هناك أهمية لكون أم محمد أصلاً من يثرب.

من انتماء عشائرى وقبلى وعائلى ورابطة الدم. ولقد ذكر القرآن الرابطة التى ربطت المهاجرين بالأنصار وسماهم أولياء بعض. كما ذكر قرب الرسول من المؤمنين على أساس الإيمان المشترك. فورد فى سورة الأنفال الآية ٧٢ عن علاقة المهاجرين بالأنصار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾ أما عن علاقة النبى بالمؤمنين، فتحدثنا سورة الأحزاب الآية ٦: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾.

وجاء فى الحديث الصحيح: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»(*).

ولقد تخطى القرآن فى وصفه صلة الإيمان وقوتها إلى أنه وضعها قبل الصلة العائلية، حيث ورد فيه فى سورة التغابن الآية ١٤: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ويؤكد القرآن أن الأزواج والبنين لا ينفعون المرء يوم القيامة وأنه لن ينفعه سوى عمله وإيمانه، كما تقول الآية ٣ من سورة الممتحنة: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(**).

ولذلك يُعَدُّ اختيار أفضل الناس وتحديد أفضليتهم هذه على أساس التقوى سلوكًا إسلاميًا ومثالاً يحتذى، فالتقوى يتضاءل أمامها النسب والحسب والغنى وغيرها. ولذلك اختير بلال العبد الأسود لأن يكون أول مؤذن فى الإسلام، والعبد سلمان الفارسي أول وزير للمالية، ويكون لامرأة هى عائشة الكلمة العليا فى قيادة جيش فى موقعة الجمل عام ٦٥٦ فى مواجهة على بن أبى طالب.

ولقد سار أمراء المؤمنين على نهج اختيار الأتقى والأفضل دون النظر إلى انتماءات عرقية. حتى فى عهد العثمانيين لم يكن معظم وزراء الدولة من الأتراك

(*) البخارى [٥٠٩٠]، ومسلم [١٤٦٦/٥٣].

(**) وتقول الآيات [٣٤-٣٦] من سورة عبس: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾

بل من الألبان ، واليونانيين والكروات والشركس . ولم يكن الانتماء العرقي يؤدي دوراً مهمّا في تولي مناصب حكم أو جيش ، والمثال على ذلك صلاح الدين الكردي .

كما أن المتصوف ابن عربي القادم من الأندلس عاش وعمل مكرمًا في دمشق حيث مات . كما شهدت دمشق كذلك حياة الصوفي ورجل الدولة المناضل عبدالقادر الجزائري حيث توفي هو الآخر هناك .

لم يستطع لورانس العرب خلال الحرب العالمية الأولى أن يُذْكي من نار القومية العربية إلا بسبب ظهور التعصب التركي للقومية الطورانية أولاً ، التي عبر عنها شباب الأتراك الملتفون حول أنور باشا والذين لم يسلم من ظلمهم واضطهادهم غير الشعوب العثمانية .

ولذلك لا نستطيع أن نفهم مشكلة الأكراد اليوم إلا إذا فهمنا الرابطة الإسلامية التي حكمت هذه المنطقة حتى سقوط الدولة العثمانية . وبالنظر إلى كثير من الدول العربية والإسلامية القائمة اليوم ، نستطيع أن نقول إن هذه الدول ـ وغالبيتها من صنع الاستعمار ـ لا تُعَدُّ دولا قومية ذات أسس وطيدة . ونظريا ، ما كان لهذه الدول أن تكون أصلاً .

أجمل تعبير للمساواة وانعدام التفرقة بين أفراد الأمة تصادفه سنويًا في أثناء الحج . إن وجود ملايين المسلمين في مكان واحد يجمعهم إحساس واحد بالمساواة والانتماء ووحدة الهدف ، وقد أتوا من مختلف قارات العالم ليؤدوا في ظل ظروف قاسية شعائر دينهم ، يصلون معًا ويدعون معًا ويعيشون ويتناقشون معًا ، لهو تجربة فريدة من نوعها ذات طبيعة سامية ، حتى إنها استطاعت برقيها وسموها وما تتضمنه من كل المعاني والدلالات النبيلة أن تحرر مالكولم إكس ، هذا الإنسان النشط ذو البشرة السوداء ، من عنصريته العنيفة البغيضة . فالحج هو أكثر الأعمال تأثيراً في نزع أي فكر عنصري ، وأقدر الأفعال على مواجهة العنصرية .

لقد عاصرت مثل هذا الموقف ، أي أن تتلاشى العنصرية بفضل الدين ، ولكن ليس في مكة بل في سان فرانسيسكو عام ١٩٨٥ . فلقد عهدت إلىَّ جماعة من

المسلمين السود أن أؤمهم فى الصلاة . . . أنا الوافد حديثًا ذو البشرة البيضاء، ولكن لم يكن ذلك يمثل أهمية، فقد اختارونى؛ لأنهم رأوا أننى أكثر منهم علمًا.

وهذا الفكر هو الذى جعل فى إمكانية المسلمين إصلاح العلاقات والنفوس المريضة فى الجيتو، أى المناطق المغلقة على السود فقط، والتى تضج بالمشكلات مثل المخدرات والعنف، وكذلك الوضع فى جنوب إفريقيا.

وهناك مثال رائع فى ماليزيا لتعايش الملايويين والصينيين والهنود بعضهم مع بعض فى سلام، وكلٌ محتفظ بلغته وملبسه وتقاليده وطعامه ودينه، كل هذا بفضل الإسلام الذى يحارب العنصرية.

يستطيع المسلمون أن يقولوا ويفخروا أنه بالرغم من رفضهم للصهيونية وللتوسع الإسرائيلى، فإن بلادهم لم تشهد على مر التاريخ إلى يومنا هذا أى عداء للسامية. ولا يعود هذا إلى أن العرب أنفسهم ساميون، ولكن لأن القرآن يطالب كل مسلم باحترام غيره من أصحاب ديانات التوحيد السماوية.

فالإسلام لا يرفض الإجبار بكافة صوره فى مسائل الإيمان فقط: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ولكنه كذلك يحمى ويضمن لجميع الديانات الأخرى وجودها وأمنها، كما ورد فى الآية ٤٨ من سورة المائدة(*).

لقد وضحت فى مقدمة حديثى أن جذور العنصرية تضرب بشدة فى النفس البشرية، لدرجة أن الإسلام فى واقع الأمر وبالممارسة (وليس النظرية) لم يستطع إبادتها تمامًا والقضاء عليها القضاء المبرم. والادعاء بعكس ذلك يعادل الادعاء بأن الإسلام تمكن من استئصال الشر كله من العالم.

فمنذ البداية، عند اختيار الخليفة الأول للمسلمين بعد وفاة الرسول عام ٦٣٢، كان من الواضح أن المهاجرين يتوقعون أن يسلم الأنصار بأحقيتهم - أى المهاجرين - فى أن يكون الخليفة منهم، ولقد كان، فتم اختيار أبى بكر ليكون الخليفة الأول.

ثم تحول أمر الخلافة منذ الأمويين إلى بقاء الحكم ضمن طبقة من النبلاء القرشيين، وصار الأمر كذلك حين توارث الأمويون الخلافة. سبق قيام الخلافة

(*) يقول الله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾.

الأموية نزاع طويل بين الإمام على بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين ومعاوية بن أبى سفيان الذى نازعه الخلافة. وكان وراء هذا الصراع أسباب ليست بالأسباب الفقهية، أو السياسية فقط، ولكن الصراع كان شكلاً جديداً للصراع القبلى، فلقد امتد منذ ظهرت النبوة فى بنى هاشم-وغيرة بنى أمية وكبيرها أبى سفيان-حتى الصراع الذى انتهى باغتيال الإمام على، حيث لم يقبل بنو أمية أن يكون من بنى هاشم الرسول والخليفة.

أما العباسيون الذين أزاحوا الأمويين عن الخلافة وأقاموا خلافتهم، فلم يختلفوا كثيراً عن الأمويين فى أمر من يتولى الخلافة؛ لأنهم وإن بدت حركتهم حركة دينية ثورية، إلا أنهم تمسكوا بأن يكون الخليفة من قريش، وعلى وجه التحديد من بنى العباس. ولقد امتد هذا التقليد حتى قيام سليم الأول باحتلال القاهرة وإن ادعى لنفسه لقب الخليفة بالإضافة إلى احتفاظه بلقب السلطان.

ومن الجدير بالذكر أن أشير على هامش هذه المداخلة، أن الفكر الشيعى يهدف آخر الأمر إلى نظام وراثى؛ لأنهم يظنون أن الشخص الذى يأتى على رأس المؤمنين ومن له حق قيادتهم لابد وأن يكون من نسل محمد من خلال توارث أبناء فاطمة ـ ابنة محمد ـ وعلى لمكانة خلافة المسلمين وقيادتهم.

ولقد حدث فى واقع الأمر فى تاريخ الإسلام أن تعرضت مسألة مساواة البشر لتساؤلات عديدة، خاصة بعد التوسعات الهائلة التى شهدتها الدولة الإسلامية، ودخول العديد من غير العرب فى دين الإسلام. ولقد سمى هؤلاء بالموالى. ولقد عانى هؤلاء كثيراً من كونهم مسلمين درجة ثانية، أى درجة أدنى من المسلمين العرب، ولقد ظهر هذا فى تقسيم الغنائم وتحديد دفع الضرائب. ولقد ثار الموالى على هذا الظلم الواقع عليهم والذى يتعارض تمامًا مع تعاليم الإسلام، وقاموا فى القرنين التاسع والعاشر بحركات تمرد معادية للعرب عرفت بالشعوبية [٣].

هذه الحركات لم تمت كليا بين المسلمين الذين لم يقبلوا أن يتميز العرب عن سائر المسلمين، أى أن تكون هناك تفرقة عرقية.

لقد استخدم ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة كلمة «عصبية»، ليعبر بها عن

---

(٣) تعريف عقد Hans Webr ص٦٥٧.

شعور شعوبى قوى بالانتماء، هذا الشعور الذى يجمع حوله الكثير من المجموعات المختلفة فى العالم الإسلامى، وكان رأيه هذا نتاج ملاحظات موضوعية واقعية كثيرة.

من يستطيع أن ينكر أن العرقية أدت دوراً مهمّا فى تجارة العثمانيين للعبيد مع فينسيا، وبخاصة تصديرهم إلى أمريكا؟ إن هذا التاريخ لا يزال يلقى بظلاله على العلاقات بين بعض الدول الإسلامية مثل موريتانيا والسنغال.

وأسوق هنا مثالاً حاضراً معاصرا لنا جميعًا، وهو حركة طالبان الأفغانية. تلك المجموعة تستمد تعاليمها من شاه ولى الله دهلوى (١٧٠٣ - ١٧٦٢) فى الهند ومدرسة ديوباندى Deobandi الهندية المتشددة. لا أنكر أنهم يمثلون ظاهرة دينية باتباعهم أسلوب الحياة العسكرية الريفية التى تتشابه مع حياة الرهبنة. لقد انطلقوا بدوافع أخلاقية من المدارس الواقعة جنوبًا حول كاندهار متجهين إلى كابول، كما فعل المرابطون البربر فى القرن الثانى عشر عندما انطلقوا من جبال أطلس متجهين إلى مراكش.

لكن من ينكر أن هذه المواجهات المعاصرة ليست مواجهات دينية فقط بين حركة طالبان المتشددة وربانى وحكمتيار، يقر بأنها مواجهات قبلية بين القوى الأوزبكية والخدشيفية والباتينية[٤]؟

ولا نستطيع أن ندعى بطبيعة الحال عدم وجود مشكلات طبقية بين السكان الأصليين لشبه الجزيرة العربية فى المنطقة الواقعة بين الخليج والبحر الأحمر وبين العاملين فى هذه البلاد من الجنسيات المختلفة. ولكن هذا ليس بالشىء الجديد؛ لأن Carsten Niebuhr لم يستطع فى القرن الثامن عشر أن يتجاهل فى أثناء رحلاته فى الحجاز واليمن وجود تفرقة بين السكان الأصليين والعمالة الوافدة[٥].

---

(٤) عن طالبان، انظر الملحق الذى يحمل عنوان «أفغانستان» لتقرير عدد يناير/ فبراير ١٩٩٧ Muslim Politics Report Nr . M الصادر عن مجلس العلاقات الخارجية بمدينة نيويورك Council on Foreign Relations in New Youk City.

(٥) Niebuhr - نيبور: وصف الرحلات إلى جزيرة العرب وبعض البلاد المجاورة. مكتبة مانيس Manesse زيورخ ١٩٩٢ ص ٣١٨:
لايسمح لكثير من الهنود باصطحاب زوجاتهم معهم إلى اليمن.

وكثيراً ما تستمع لشكوى مسلمين أوروپيين وأمريكيين حديثى الإسلام من عدم الثقة التى يتعامل بها المسلمون بالميلاد معهم، سواء كان هذا داخل الوطن العربى أو خارجه، ولكن هذا السلوك يرجع لتخوفهم من عدم إلمام المسلمين الجدد بالعربية، وبالتالى ألا يكونوا على دراية وافية بالإسلام، وليس تعبيراً عن العنصرية.

ومن الجدير بالذكر أنه لم يسلم من هذا الشك محمد أسد نفسه (بسبب جذوره الأوروپية - اليهودية) وهو علاّمة فى اللغة العربية ولكنه كان مضطراً برغم إنجازاته العلمية فى سبيل خدمة الإسلام، للكفاح الشاق حتى يحصل على الاعتراف به.

فقُدِّر على بعض المسلمين الغربيين أن يكونوا كالموالى فى عهود الإسلام الأولى.

ومن هذا العرض نرى أن العنصرية تحاول دائمًا التسلل من الأبواب الخلفية، خاصة إذا كان الرفض لها قويًا فى الواجهة.

لذلك لا يصح للمسلمين أن يركنوا إلى أن دينهم يحرِّم بل يجرم العنصرية، ولا أن يعتمدوا على الكثير من الممارسات الرافضة لهذه العنصرية فى تاريخهم، بل عليهم العمل على إزالة الواقع منها، ومنع حدوثه وفقًا لما يدعوهم إليه دينهم.

-٢-

بالنظر إلى الطبيعة البشرية والتى تميل إلى الضعف، لم يكن من الممكن تفادى تلطيخ ثوب العالم الإسلامى ببعض البقع العنصرية. ولكن هذا العالم الإسلامى يوفر - من منطلق النظرية وبنسبة كبيرة من خلال الممارسة - صورة ممكنة للحياة الرافضة للعنصرية. وهذه رسالة موجهة إلى كاتالونيا، إقليم الباسك، والبلقان، ولكن ليس لهؤلاء فقط، ولكنه نموذج يصلح لجماعة من الناس فى العالم أجمع، لجماعة يحكم التعامل فيما بينها ومع سواها عنصر واحد فقط هو الإيمان بالله والتسليم له، وأن نتغاضى ونترفع عن كل العناصر الأخرى. وإننى هنا أردد قول المسلم الأمريكى الشهير Jeffrey Lang: «إن الإسلام وإن لم يستطع استئصال شأفة الأحكام المسبقة ذات الطبيعة العنصرية، إلا أنه لا يقرها. وعندما يمارس المسلمون

العنصرية أو يقرونها، فإنهم يعلمون علم اليقين أنهم يرتكبون إثمًا كبيرًا، ويخرجون بذلك عن تعاليم دينهم. إننى أعتقد أن النجاح لم يحالف أيًا من الديانات العالمية الكبرى فى حربها ضد الأحكام العنصرية المسبقة مثلما حالف الإسلام»[٦].

ومن يتشكك فى ذلك، فليلق نظرة على أى مركز إسلامى يختاره فى ألمانيا، حيث يتعامل التركى مع الشمال إفريقى مع الفلسطينى مع السورى والمصرى والبوسنى والألبانى والألمانى بود وحرارة، ويتناسى كل منهم اختلاف جنسيته عن الآخر.

ولذلك، فإننى لا أرى من قبيل المبالغة أن أنهى حديثى هذا بأن أقر أن الإسلام الحق الذى يفهم على صحته ويمارس فى الحياة بشكل سليم (هذا الإسلام الذى يحمله المسلم فى قرارة نفسه) إنما يمثل النقيض للشوفونية والعنصرية.

* * *

(٦) Lang ١٩٩٧ ص ١٥٤.

مـاذا يريدوين هنا؟

شعار: لا نستطيع أن نجيز رغبات كل أقلية بناءً على مبدإ التسامح.

(تصريح لبيتر فريش رئيس لجنة حماية الدستور لمجلة دير شبيجل Der Spiegel العدد ٣٦ لعام ١٩٩٧ ص ٦١).

-١-

لقد طُلب منى منذ عدة سنوات مضت أن ألقى محاضرة متحدثًا فى الموضوع التالى: «ماذا يريد الإسلام فى ألمانيا؟». ولقد كان هذا السؤال كما يقول الأمريكيون «a loaded question»: أى أن السؤال نفسه يتضمن الإجابة السلبية. ولقد تمت مواجهتى بأمرين، أولهما: لا يوجد إسلام هنا.

ثانيهما: أن الإسلام لا ينتمى إلى هذا المكان.

أى أن مجمل القول: ليس للإسلام مكان هنا، ولا ينبغى أن يبحث لنفسه عن ذلك؛ لأنه غير مرغوب فيه هنا على الإطلاق.

ولذلك، فالأمر يستحق منا الإشارة إلى التاريخ الطويل للإسلام ولوجوده فى أوروبا. وتوضيح أمر هذا الوجود من خلال ذكر المعالم المتبقية الدالة على تقدم فن العمارة الإسلامى فى كل من صقلية وإسبانيا والبلقان ووسط آسيا.

فلقد كانت إسبانيا لعقود طويلة إسلامية. عقود تفوق فى عددها العقود التى حكمتها فيها الكاثوليكية (استمرت إسبانيا حوالى ثمانية قرون يحكمها المسلمون، أما الكاثوليك فحكموا الأندلس منذ عام ١٤٩٢ فقط، أى خمسة قرون فقط).

يعيش حوالى ٣٠ مليون مسلم فى أوروبا، ويعيش ما يقل عن نصف هؤلاء فى

أوروبا الغربية. وفي موسكو، فيعيش فيها حوالي نصف مليون مسلم ينتمي كثير منهم إلى التتار. أما في الولايات المتحدة وكندا، فيكاد عدد المسلمين يبلغ ثمانية ملايين مسلم.

ولا يستطيع المرء أن يتجاهل وجود البنية الأساسية للمسلمين والدالة على وجودهم، مثل: المساجد والمراكز الثقافية والمدارس والاتحادات ودور النشر والمكتبات والجزارين والمدافن.

إذا أقيمت منارة في كل مكان يجتمع فيها المسلمون لأداء الصلاة، لأصبحت أوروبا أشبه ما تكون بإقليم مسلم إذا ما نظر المرء إليها من فوق. لا شك في الأمر: الإسلام موجود.

فهل يبقى كذلك؟

ليس من المتخيل أبدًا أن يشهد وجود الإسلام في الغرب تراجعًا ما، فلا يمكن إلغاء هجرة العمالة الوافدة من المسلمين إلى أوروبا، ولا وقف هجرة الأكاديميين المسلمين إلى أمريكا الشمالية، ولا تعطيل استجابة الأعداد الغفيرة من الأفروأمريكيين لدعوة الإسلام واعتناقهم إياه.

ولكن من المرجح أكثر أن تتوطد جذور المهاجرين في بلاد المهجر وتتعمق هناك، وهذا ما حدث عندما أصبحت محامية من أصل تركي أصغر أستاذة جامعية في مادتها بإحدى جامعات ألمانيا عام ١٩٩٨، وهذا ما جعل ألمانيا تعهد بتمثيلها في مسابقة الغناء الأوروبية عام ١٩٩٩ إلى فرقة موسيقية تركية من برلين.

ولكن إذا تخيلنا أن يغادر كل المهاجرين المسلمين الغرب، فهل من الممكن أن يختفي الإسلام هناك من جراء ذلك؟ الإجابة هي النفي طبعًا، بالنسبة لدول كالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا؛ لأن الجيل الثاني والثالث من المهاجرين قد اكتسب كل حقوق المواطنة في هذه الدول، وهذه الأجيال تقف على أرض صلبة، وقد وطدت جذورها في بلاد المهجر هذه.

أما ألمانيا فتُعَدُّ حالة فريدة في هذا الصدد؛ لأن الأتراك المقيمين هنا، حتى الجيل الثالث منهم، ما يزال شاخص البصر إلى تركيا. ولهذا أسباب كثيرة. فلم يكن

الأتراك على دراية باللغة الألمانية عند قدومهم إلى بلد المهجر، على نقيض المغاربة الذين حلوا بفرنسا، والهندوپاكستانيين الذين استوطنوا إنجلترا.

كذلك لأن تركيا على مقربة، فالمسافة لا تبعد سوى ساعتين بالطائرة من ميونيخ، وهى مسافة تغرى بالتواصل والسفر المتكرر، كما أن تركيا آخذة فى التطور الاقتصادى وذات شواطئ جذابة ومناخ مغر. ولكن هناك أمران هما الفاصلان فى ارتباط الأتراك بتركيا وعدم اندماجهم فى بلدَ المهجر: فبعد انفصام تركيا عن الرابطة الإسلامية ومحاولة الدولة التركية محو كل ارتباط لها بالإسلام، ازداد الشعور القومى التركى خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، حتى صار شعار: «إنها لسعادة غامرة أن تستطيع أن تقول أنا تركى» راسخًا فى الوجدان، وليس معلقًا على الحوائط فقط. ولم يسلم المسلمون الأتراك من توغل هذا الشعور الشوفينى فى نفوسهم. وكان لهذا أثره البالغ، فلم يستطع المهاجرون الأتراك أن ينفصلوا نفسيا وداخليا عن موطنهم. ومن ناحية أخرى، ارتبط كونهم مسلمين بكونهم أتراكا بشكل وثيق.

وكان لهذا أثره فى تشكيل مشهد المهاجرين ووضعهم فى ألمانيا. وتميز هذا المشهد بنتيجتين، أولاهما: أن عمل المراكز التركية الإسلامية فى ألمانيا تركز على الدعوة بين الأتراك والأوساط التركية؛ ولذلك فإن المراكز التركية ليس لها تأثير على محيطها الألمانى مقارنة بتأثير المراكز العربية على بيئتها الألمانية المحيطة بها.

والنتيجة الثانية أن الأتراك المسلمين المقيمين فى ألمانيا يشاركون فى النزاعات والمجادلات السياسية الدائرة حول دور الإسلام فى وطنهم، حتى بات البعض منهم يظن أنه يجب على تركيا إعادة أسلمتها من خلال ألمانيا.

هناك عوائق أخرى أمام فاعلية المسلمين الأتراك فى ألمانيا وتأثير نشاطهم على محيطهم، وهى أن هؤلاء الأتراك منقسمون إلى جماعات عديدة، ترتبط تلك الجماعات بشخصيات مؤسسة ورائدة، مثل ارتباط حركة نوركولوك Nurculuk بشخص سعيد نورسى (١٨٧٧ - ١٩٦٠)، وجماعة سليمانيكلار Süleymaniclar بشخصية سليمان توناهان Süleyman Tunahan، وجماعة IGMT بشخص نجم الدين أربكان. وهناك معلمون متطرفون يدعون لأنفسهم، مثل أحمد هولوسى

Ahmed Hulusi . ولكن هذا لا يستبعد أن غالبية المسلمين الأتراك أصبحوا أكثر ارتباطًا ببلاد المهجر منذ عام ١٩٩٩ كرد فعل للنتائج والتطورات فى وطنهم، وللتطور الذى شهده قانون الجنسية الألمانى، وبالتالى أصبح لهؤلاء تأثير دينى أقوى على محيطهم.

-٢-

ويُعَدُّ سؤال ماذا يريد الإسلام فى الغرب صياغة لسؤال: ما شأنه أصلاً بالغرب؟

ويتضمن هذا السؤال اعتقادا خاطئا بأن الإسلام ديانة عربية، وبالتالى شرقية، وهى بصفتها هذه لا تصلح لأوروبا وأمريكا. وهذا التجنى كثيراً ما يصيب علماء التاريخ الثقافى بالغثيان.

لقد نشأ الإسلام مثله مثل اليهودية والمسيحية فى الشرق الأدنى، والكتب المقدسة لهذه الديانات الثلاث أنزلت بالعبرية وبالآرامية وبالعربية. وهى كلها مشتقة من اللغة السامية نفسها. ومثله مثل المسيحية، فقد انتشر الإسلام فى أرجاء متفرقة ومساحات واسعة من العالم.

ولذلك، فالمسلمون العرب يمثلون أقلية داخل الأسرة الإسلامية العالمية، مثلهم مثل مسيحيى الشرق الأدنى بالنسبة للمسيحية فى العالم أجمع. ولكننا إذا قارنا الإسلام؛ بالمسيحية من ناحية التاريخ الفكرى، لوجدنا أن المسيحية تعد دينًا شرقيا أكثر من الإسلام؛ لأن المسيحية - على نقيض الإسلام - استوعبت عناصر كثيرة - بجانب ميراثها اليهودى - الموسوى (نسبة إلى النبى موسى) من الديانات ومدارس الفكر الشرقية مثل الزرادشتية، والمانوية، والمازدكية، والأفلاطونية الجديدة، والغنوصية، والعبادات السرية - الرومانية وتأثيرات إيرانية.

ففكرة التجسيد والثالوث، والأسرار الإلهية، والرهبنة والكهنوت، والبخور والقداس، والموقف السلبى من الجنس، كلها موروثات شرقية قديمة.

وإذا تعاملنا مع الإسلام بالمعيار الأساسى للتنوير وهو العقلانية، لأثبت الإسلام أنه مهيأ تمامًا ليتماشى مع التنوير.

الإسلام - مقارنة بالمسيحية - يخلو من الأسرار والغموض. فالإسلام لا يعرف الذنب الموروث، ولا التجسيد، ولا الثالوث، ولا موت المخلص، ولا رحلة يسوع السماوية ورحلة مريم السماوية، ولا وجود الله متمثلاً في النبيذ والخبز، ولا التخلص من الذنوب عن طريق التعميد، ولكنه يعرف معجزة الوحي القرآني فقط.

وفي آخر الأمر يستطيع الإسلام أن يثبت بالدليل القاطع مساهمته في تطور الحضارة الأوروبية وما توصلت إليه من إنجازات. فتأثيره أعمق وأبلغ من اليهودية، ويكاد يتساوى مع تأثير الحضارة الإغريقية والهلّينية. ونحن لسنا بصدد أن نثبت مثل Sigrid Hunke أن شمس الله تسطع على الغرب، ولكنني أدعو القارئ الغربي إلى أن يتذكر أن نظام الأرقام الذي يستخدمه (بما فيه الرقم صفر) أنجزه عالم رياضيات مسلم. وأن الكثير من علم الطب وأغاني التروبادور، وكذلك معرفته لفلسفة أرسطو إنما يرجع الفضل فيها للمسلمين. ذلك، وغيره كثير. وهكذا يصبح الحديث عن أوروبا المسيحية - الرومانية وحضارتها الغربية اليهودية المسيحية غير علمي أو موضوعي، وإهانة للمسلمين، وجحودا لفضلهم. فالأصح أن نتحدث عن الفكر الإنساني اليهودي، المسيحي، الإسلامي.

- ٣ -

إذن فوجود الإسلام وحضوره حقيقة لا نقاش فيها، بل هو كذلك وجود مسوَّغ؛ فالإسلام له كل الحق في الوجود.

ولكن ماذا يريد الإسلام، غير أن يعترف به كدين لأقلية مهاجرة، وأن يكون هناك تسامح ما في هذا الوجود؟ ولكن إذا كان هذا وحده هو هدفه، فإن هذا يُعَدُّ هنا في الغرب بالشيء الكثير؛ لأن الإسلام يرهق حتى الآن قدرة التسامح وتقبل الآخر، ويحمِّلها ما لم تتعود عليه في الغرب، حتى وصل بها إلى أقصى حدود طاقتها؛ لأن هذا الغرب (خصوصا أوروبا) صار منذ زمن، منطقة لا تعرف إلا انتشار دين واحد - على عكس المشهد الديني المتنوع في العالم الإسلامي - وبالتالي ليس لها خبرة بممارسة التنوع الديني، وما يتطلبه من تقبل الآخر والتعايش معه.

لقد دارت حروب شديدة بين الكاثوليك والبروتستانت الألمان والتي عرفت

بحرب الثلاثين عامًا (١٦١٨ـ١٦٤٨)، كبدت هذه الحروب الشعب الألمانى خسائر فادحة. ولقد أدت تفصيلات لاهوتية دقيقة من قبيل: هل نقول عند القربان فى القداس «إنه جسدى»، أو «إنه يعنى جسدى»، إلى الحكم على الناس إما بالموت، وإما بالحياة! ولقد امتدت مظاهر الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت الألمان إلى عهد المستشار أتو ڤون بسمارك Otto von Bismark فى أثناء الحرب الثقافية، حيث كانت أصابع الاتهام موجهة إلى الكاثوليك الألمان بتبعيتهم لروما، وأن الأخيرة هذه تحركهم، فعانى هؤلاء الكاثوليك من اتهامهم بأنهم «ألمان غير صالحين». ولكن استطاعت الفرقتان فى آخر الأمر أن تتصالحا وأن تتعايشا فى سلام ووفاق، وليس أدل على ذلك من وجود دور للعبادة لكل منهما، تقف إحداهما مقابل الأخرى.

فما الذى يتوقعه المسلمون هنا من معاملات فى ظل هذه المؤشرات، خاصة أنهم أكثر اختلافًا عن غالبية الألمان عما كان عليه الكاثوليك آنذاك؟ كما يعتقد الكثيرون أن المسلمين يتم تحريكهم من مكة.

فهل سنرى يوما ما مسجدا يقف بالقرب من كنيسة كاثوليكية تقابلها كنيسة بروتستانتية؟ هل ينضم الجامع إلى مشهد الكنيستين المختلفتين اللتين تقفان إحداهما قبالة الأخرى رمزًا للتعايش والتوافق؟

هل سيتحقق هذا، أم سيتم نبذ الإسلام كما لو كان جسما غريبا عن هذا المجتمع؟

هناك أربعة مجالات يظهر فيها اختلاف المسلمين عن الألمان، وهذه الاختلافات تثير ردود فعل أشبه ما تكون بردود الفعل الهستيرية:

١ ـ من السهل التعرف على المسلم من مظهره الخارجى. فهناك ما يميزه مثل: لحية الرجل وغطاء رأس المرأة، والشكل المميز للجنوبيين وذوى الأصول الممتدة إلى الشرق الأدنى، نطق اللغة، بعض المفردات العربية التى يرددها المتحدث فى أثناء حديثه (مثل: إن شاء الله، الحمد لله، ماشاء الله، سبحان الله) وملابس غريبة عن أهل هذه البلاد، ألمانيا، فغطاء الرأس مثلا يثير الأعصاب بشكل ملحوظ، مع العلم بأن تعداد السكان الأجانب يبلغ حوالى ٩٪.

٢ ـ الأمر الثانى هو أن المسلمين يثيرون الأعصاب، بل يتلفونها؛ لأنهم لا

يتمكنون من أداء أشياء بسيطة يأتى بها كل فرد هنا، مثل عملية الشراء من السوبر ماركت، فهم يقرءون كل المكونات المكتوبة على البضائع ليتبينوا خلوها من أى من منتجات الخنزير، كما أنهم يتركون الآيس كريم - المقدم لهم فى أى مطعم دون أن يمسوه إذا ما تبين لهم أن فاكهة الكريز - المحلى بها الأيس كريم - قد تشربت بأى نوع من الخمور. كما أنهم أحيانا لا يأكلون سوى السمك؛ لأن اللحم، وحتى لحم الدجاج، من حيوانات لم تذبح وفق شريعتهم، وإذا تمكنوا من ذلك فإنهم يودون تناول الطعام وهم جلوس على الأرض ويتناولونه بالأيدى دون استخدام أدوات المائدة، وإذا ما أخذ فرد فى تدخين سيجار وهو بينهم، فإنه يشعر من جراء نظراتهم بتأنيب الضمير.

٣- يصبح هؤلاء المسلمون شديدى الإزعاج وكثيرى المتطلبات إذا ما تعلق الأمر بأمر يخص طقوسهم. فمن الواضح أنه من الضرورى أن يبدءوا صلواتهم فى الظلام، قبل أن تشرق الشمس، ثم إنهم يكررون هذه الصلاة فى أثناء أفضل فترات العمل. كما أنهم يصومون لفترة طويلة جدا فى أثناء اليوم فى شهر صيامهم، رمضان، وهذا أمر غير معقول.

وبالنسبة لحجهم، فهو محدد بفترة زمنية تتحرك خلال أشهر العام، فيفكرون فى إجازاتهم فى هذا الوقت دون مراعاة الإجازة المحددة من قبل العمل.

كذلك يودون بناء مساجد ذات قباب فى مقاطعة باڤاريا، هذه المقاطعة التى لم تشهد من قبل ولم تعرف فى تاريخها مثل هذا الطراز من المبانى. وكذلك يودون بناء مساجدهم وبها منارات؛ لينادوا منها على الصلاة. ويطلبون بجرأة أن يقوموا بتدريس مادة الدين بأنفسهم فى المدارس.

وبالنسبة للمقابر، فهم يطالبون ببناء قبور تتجه إلى مكة، ولكنهم يبخلون على موتاهم بتابوت فيدفنوهم فى هذه المقابر بلا توابيت.

٤- وأخيراً فهم يرفضون كل ما يؤمن به أى مسيحى، ويتمسكون فى كل شىء وبأى شئ جاء فى قرآنهم، وبما تمليه عليهم تقاليدهم. كما لو أن الاثنين - القرآن والتقاليد - ليسا قديمين قدم الأزل حتى إن الزمان قد عفا عليهما. فلنتذكر فقط موقفهم من المرأة.

كفانا سخرية . فهناك بالفعل مشكلات كثيرة تواجه التعايش السلمى بين الثقافات المختلفة والمتعددة فى هذه النقاط والمجالات الأربعة ، وهى المظهر الخارجى ، وعادات تناول الطعام ، والطقوس ، والعقيدة .

ولكن لا ينبغى معالجة هذه المشكلات بالتشابه والتماثل مع الحضارة الغربية والاندماج فيها بحيث تختفى هذه الاختلافات وبالتالى المشكلات الناتجة عنها ؛ لأن هذا سيلغى اختلاف المسلمين ، وسيكون لهذا نتائجه السلبية لكلا الطرفين . . فالمسلمون ينظرون إلى الإسلام وبالتالى إلى أنفسهم كبديل للحياة الغربية ونمطها المنتشر والأفكار التى تحكم هذا النمط . . ولكن لابد أن يعبر هذا عن نفسه .

ولكن هذا لا يعفى المسلمين من محاولة تقليل حيز الاختلافات والبعد عن النقاط التى تثير النزاعات ، عن طريق التفرقة بين الجوهرى فى الإسلام ، أى الدين ، وبين الموروث والتقاليد التى هى إحدى مكونات الحضارة الإسلامية ، وبالتالى هى مجرد موروث ثقافى ، حتى وإن علت قيمته . وأعتقد أن المسلمين يستطيعون أن يتغاضوا عن هذه الموروثات (ليس الجوهرى فى الدين) فى سبيل تعايش سلمى واندماج أفضل ، وليس ذوبانا أو تجانسا . ومن ضمن الموروثات طريقة الملبس ، وتناول الطعام ، فالمسلمون غير مجبرين على تناول الطعام كما كان العرب يتناولون طعامهم فى القرن السابع .

فيمكنهم ارتداء رابطة العنق ، والجلوس إلى مائدة لتناول الطعام واستخدام أدوات المائدة ، وأن يقوموا بتنظيف أسنانهم بالفرشاة والمعجون بدلا من السواك .

كان ينبغى - فى حقيقة الأمر - أن يكون المجتمع الغربى من القوة بحيث يتقبل المكونات الفولكلورية للحضارة الإسلامية دون إبداء أى تحفظات ، ولكن بما أن هذا الأمر لم يتحقق بعد ، فأعتقد أن مصلحة المسلمين فى الغرب تستدعى أن يقوم المسلمون بالتغاضى عن الممكن ؛ ليسهلوا أمر تقبل الغرب لهم .

وهذا لا ينطبق بالطبع على المجالات التى لا تخضع للنقاش أو المساومة ، مثل : العقيدة ، والأخلاق ، والعبادات وما تنص عليه الشريعة . ما عدا ذلك فهو من الممكن .

لذلك ، فمن غير الضرورى أن يختبر المسلمون استعداد الغرب لتقبلهم ، وأن

يتمادوا فى ذلك إلى أقصى الحدود من خلال إصرارهم على مطابقة الإسلام للعروبة. فعلى المسلمين أن يدركوا تماما أن الانتشار السريع للإسلام الذى تشهده أوروبا ـ والذى وصل إلى السويد وفنلندا ـ قد خلق صدمة شديدة وخوفا أشد من المستقبل عند أناس راسخى الجذور الثقافية، غير مؤهلين لتقبل ثقافات أخرى بسهولة.

ـ ٤ ـ

وبالرغم من استعداد المسلمين لحلول وسط حتى يتحقق التعايش السلمى، فهناك مؤشرات واضحة على أن الالتقاء الأوروبى الإسلامى سيشهد نهاية سلبية.

ويؤكد هذا أن معرفة الغرب بالإسلام والتعاطف معه لم يزدادا فى الثلاثين عامًا الماضية بشكل ملحوظ. بل إننا نتوقع حدوث العكس، خاصة بسبب التأثير السلبى لوسائل الإعلام. ولقد انتشرت بعض الحركات المعارضة للإسلام بصور فردية بين الإيفانجيليين.

ولقد عبر مسلم ألمانى عن هذا الوضع منذ فترة قصيرة، حيث قال: «إننى كلما اندمجت بشكل أعمق فى الجماعة الإسلامية، يتم انتزاعى أو طردى من المجتمع الألمانى». ويضيف: «لقد تعلمت أن بعض الألمان لا ينظرون إلى الدستور على أنه ركيزة أساسية للتعايش الدينى والثقافى». وانطباعه الشخصى هذا ليس خادعًا، فبناءً على استبيان تم فى إبريل عام ١٩٩٧ يرى نصف تعداد الشعب الألمانى فقط أن للمسلمين نفس الحقوق التى يتمتعون هم بها، وقدَّر ٣٠٪ من الذين شملهم الاستبيان أن المسلمين الذين يعيشون فى ألمانيا ـ وليس صدام حسين ـ إنما يشكلون خطرا جسيما.

أما أكثر الأشياء البغيضة التى تتم الآن فى أوروبا، فهى المحاولات المؤكدة والمسجلة لتحميل العمال الأجانب من المسلمين مسئولية مشكلة البطالة التى تعانى منها بلاد أوروبا؛ لأن هذا الأمر سيؤدى إلى وجود مشاعر دفينة بغيضة؛ لأن القلق الاجتماعى والاحتياج المادى مجتمعان مع وجود أحكام مسبقة ذات طبيعة دينية وعنصرية تؤدى دوما إلى خليط من المشاعر الكريهة. وهناك دائما من يتصيد

ويتحين الفرص لإطلاق هذه المشاعر من عقالها . فهل ستراجع الاقتصاديات الغربية العولمة وما تتبعها من ضغوط ، أم لا؟

وتزداد الصورة قتامة عندما يلاحظ المرء أن المسلمين فى الغرب يتحملون بثبات كل ما يحدث فى العالم الإسلامى . وسرعان ما يحولهم الغربيون إلى كبش فداء لكل الأحداث المفزعة ، مثل إلقاء قنبلة على قرية كردية فى العراق ، ومثل حادثة لوكربى أو مجزرة الجزائر (بغض النظر عمن قام بهذه المجزرة) ، أو أى اغتيال لمفكر إيرانى ، أو إلقاء قنبلة يدوية على سائح غربى فى مصر . أى حوادث من هذا النوع يحملها الغرب لكل مسلم شخصيا .

وهناك ضرر بالغ يلحق بمستقبل الإسلام فى ألمانيا، وهو متمثل فى النشاط الذى يمارسه بعض الأفراد الذين استوطنوا ألمانيا من القادمين من العالم العربى، خاصة هؤلاء ممن لهم مكانة مرموقة وكذلك خلفية ليبرالية أو ماركسية. هؤلاء المسلمون الثقافيون يستغلون المصداقية التى يحظون بها فى وسائل الإعلام للدعاية لما يسمى بالـ «Euro - Islam ». اليورو إسلام (قليل من الإسلام وكثير من الأوروبى). وهؤلاء يجعلون المسلمين النشيطين يظهرون بمظهر المتطرفين.

هذا الأمر يؤدى دوما إلى أسئلة من هذا القبيل: لماذا لا تستطيعون أن تكونوا مثل هؤلاء المثقفين؟ فهم لا يريدون بناء مساجد، ولا يحجون، ولا يصلون دوما، كما أنهم يتناولون الخمر ويسمحون لنسائهم بالخروج مكشوفات الأذرع. أوليسوا هم الآخرون مسلمين؟

ومن الجدير بالذكر أنه من الملاحظ أن أسلوب الحياة الغربية بإغراءاته العديدة سينجح فيما فشل فيه المبشرون المسيحيون فى إفريقيا الشمالية برغم عملهم الدائم لعقود طويلة ، ألا وهو تغريب شباب المسلمين عن دينهم ، وإقناعهم بأن هذه الديانة إنما هى سبب تخلفهم .

وأخيراً ، فأنا لا أريد أن أسكت عن الاتهام الموجه منى إلى المسلمين . فعلى المسلمين أولاً أن يقوموا باللحاق بما فاتهم من عملية التنوير والإصلاح الإسلامية . فبدون ذلك تقل فرص الإسلام ؛ إذ يظهر على أنه حضارة متخلفة غير متطورة .

ولا يساعد فى هذا الأمر كثيرا أن نكرر دومًا أن الإسلام كدين لا يحتاج إلى هذه الإصلاحات؛ لأنه لا يحمل عداءً للعلم، كما أنه لا يعرف الكهنوت ولا سلطة رجال الدين، وبالتالى ليس هناك فى الإسلام أشياء ينبغى القضاء عليها مثل تلك الأشياء والعناصر التى أدت إلى حدوث ظواهر فى الغرب مثل: حرق الكتب، وحرق الساحرات، ومحاكم التفتيش ومحاكمات علماء مثل جاليليو وجيوردانو برونو.

يقلل سلوك المسلمين فى الغرب - للأسف - من فرص تقبل هذا الغرب لهم وله.

ويعود هذا إلى تفرقهم وتشرذمهم. فإنك دائمًا وأبدا تجد منظمات متصارعة واتحادات تحكمها العلاقات الإثنية. فالصراعات الفردية تعوق استعداد المسلمين للعمل الجماعى. ويضاف إلى ذلك اتجاه - يمارسه المسلمون الأقل تعليما وثقافة - يعنى بالأشياء غير الأساسية والجوهرية. يمارس هذا الاتجاه التراشق بالألفاظ والتفسيرات المختلفة للقرآن وأحاديث الرسول، ويركز مجهوداته فى الكشف عن العناصر التى تجعل الإسلام يبدو وكأنه دين يعادى الحياة ويعارض المتع كافة. وتضيع فى خضم هذه المهاترات روحانية الدين.

وهناك أمر محزن، هو أنه فى كثير من الأحيان يفشل اعتناق فرد للإسلام، ليس بسبب مسائل لاهوتية معقدة مثل الثالوث، ولكن بسبب أشياء تافهة جدا، مثل طريقة تناول الطعام أو انطباع أن المرأة لا تحظى بحقوقها فى الإسلام. فالرجل الذى يرفض مصافحة امرأة - قد تكون شغوفة وذات اهتمام بالإسلام - باليد مصافحة بريئة، إنما يفزعها من دين الله ولا يصدها عن نفسه فقط بل عن الإسلام كذلك.

وهناك أسباب كثيرة خلقها المسلمون بأنفسهم، خاصة ما سبق ذكره من الثغرة النظرية، وعدم التوصل إلى شكل معترف به لنظام الحكم، وكمسألة حقوق الإنسان، ونظام ونموذج اقتصادى، ووضع المرأة.

إنه لأمر محزن أن يرتبك المسلم عندما يسأل عن دولة إسلامية نموذجية موجودة بالفعل. ولكن ما يربك أكثر من السؤال هو حقيقة أن هذا هو الأمر الواقع فعلا. ولذلك فلابد أن يتم تغيير ما؟

ماذا يجب أن يتغير؟

شعار ١ : «شئنا أم لم نشأ سيقع تغيير ما».

(محمد أسد : «الدولة والحكومة فى الإسلام» ص١٦)

شعار ٢ : «اختلاف علماء أمتى رحمة»

(حديث رواه السيوطى فى الجامع الصغير)

- ١ -

لقد رأينا فى الفصل السابق ضرورة حدوث بعض التغيرات فى كلا الجانبين - أى الغرب والمسلمين - حتى يتعامل الغرب مع مسلميه من منطلق التفاهم والتعايش لا المواجهة . . ولا يمكن بأى حال تجاهل أن على المسلمين - مثلهم مثل الغرب - القيام ببعض المجهودات حتى يتم التعايش معا جنبا إلى جنب، وصولا إلى أن يكون هذا التعايش من أجل الجميع.

وسيدور حديثنا فى هذا الفصل حول أهم عنصرين، على المسلمين التفكير فيهما والعمل على تغييرهما، وهما: مراجعة التراث لتنقية السنَّة الصحيحة، مما ليس منها، والعمل على تجديد علوم القانون، أى الشريعة.

يقول د. طه جابر العلوانى، وهو أمريكى من أصل عراقى، ويشغل منصب رئيس كلية الدراسات الاجتماعية الإسلامية بليسبرج، (Graduate School of Islamic Social Studies - Leesburg)، فى هذا الصدد: «لن يكون هناك إصلاح بلا تفسير جديد، ولن يتحقق الإحياء بلا إصلاح»[1].

(١) العلوانى ص ٢٠.

-٢-

توصلنا إلى أن هناك ضعفا ما وثغرة واضحة فى قدرة المسلم على تحديد معالم كيان حكم إسلامى حديث. وهذه النقطة التى تمثل ضرورة قصوى يجب على المسلمين العمل على تحقيقها، تعود أسبابها فى حقيقة الأمر إلى المأزق الجوهرى الذى تعانى منه الدراسات والبحوث الإسلامية المعاصرة. هذا المأزق الذى يصفه Daniel Brown دانييل براون بـ«الأزمة الفكرية»، والذى أدى إلى «أقصى درجات الخلاف والنزاع بين المسلمين»[٢]، هو: تعدد معانى وتفسيرات التراث المنقول عن أقوال الرسول المجموعة فى صورة أحاديث عند أهل السنة والشيعة والإباضية (عُمان).

هذا التراث والبحث فيه والاستقصاء عنه فى غاية الأهمية، ويستحق أن يفرد له مجاله الخاص.

من المعروف أن السنة هى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن، وتقوم السنَّة بتفسير الكثير مما ورد فى القرآن وتضيف إليه بما يساعد على فهمه.

والسنَّة هى مجمل أقوال الرسول وأفعاله وما نهى عنه. وقد تم تدوين كل هذا كتابة، ولذلك فهى بالإضافة إلى القرآن تحدد المساحة المسموح للمسلم التصرف فيها وتفسيرها.

أما الاختلاف الأساسى بين القرآن والسنة، فهو أن الأول هو كلام الله ووحيه مباشرة إلى رسوله، والذى تكفل بحفظه، ولا خلاف فى ذلك. أما الثانية، فلا تسلم من التشكيك فى صحتها، ويرجع هذا ـ ضمن أسباب أخرى ـ إلى أن الرسول كان قد نهى عن تدوين أقواله حتى يضمن عدم خلطها بالقرآن، ثم عاد فسمح بذلك. وعلى ذلك، لم يتم حفظ الأحاديث فى القرن الهجرى الأول مثلما تم حفظ وكتابة القرآن.

وهذا الأمر ـ أى أن يبدأ جمع الموروث من أقوال الرسول وأفعاله فى القرن الثانى الهجرى على أقصى تقدير ـ ليس سلبيا بالنظر إلى القدرات الذهنية وقوة ذاكرة الناس الأميين فى ذلك الزمان.

---

(٢) Daniel Brown ص ٣، ص ١١٩.

أما الخطر الحقيقى، فيتمثل فى محاولة الاستفادة من اختلاق أحاديث غير صحيحة لخدمة أغراض سياسية معينة.

ولقد حاول علماء علم الحديث مواجهة هذه الظاهرة بتحديد معايير شديدة الدقة لإثبات صحة الحديث وسنده. ولقد اتفق العلماء على عدم قبول صحة أى حديث إلا إذا توافرت له الشروط التالية:

- أن تتصل سلسلة الرواة حتى الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

- أن يكون الرواة ثقات (الأمانة)، وضابطين (الإتقان). (نشأ لتحقيق هذا الشرط علم «الرجال»، أى تراجم وسير ذاتية محققة بدقة عن الشخصيات التى يُروى عنها).

- أن يكون الحديث بلا علل، لا فى السند ولا فى المتن.

ولقد كان هؤلاء العلماء حريصين على التدقيق فى شروط الحديث الصحيح عندما يختص الأمر بالأحكام، أكثر من حرصهم عندما يختص الأمر بمكارم الأخلاق والزهد والرقائق.

ويعد صحيح البخارى أصح المراجع، مع موطأ مالك، وبعدهما صحيح مسلم، فقد قام الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى (٨١٠ - ٨٧٠م) بغربلة ٦٠٠ ألف رواية وفحصها وفق المعايير العلمية، ثم اطمأن إلى أقل من ثلاثة آلاف حديث جمعها فى كتابه المشهور، وأدى تكراره لأجزاء منها إلى أن وصلت إلى أكثر من سبعة آلاف حديث فى كتابه.

ولكن معظم علماء الحديث، وهم يغربلون الأحاديث المختلفة، كان أكثر اهتمامهم ينصب على صحة السند وليس على المتن، أى مضمون الرواية، ولم يستعينوا بعوامل اللغة والتاريخ والأوضاع السياسية فى فحصهم للمتون[٣]، وهذه هى المشكلة.

---

(٣) أبو الفضل ص ٥٣، ٥٤ يثير الانتباه إلى أنه لم يكن مستبعداً أبداً من حيث المبدأ أن يتم استبعاد حديث ما بسبب المتن، وذلك لأسباب نحوية أو تاريخية، أو لأنه مناقض للقرآن أو لقوانين الطبيعة.

ولقد أراد بعض المستشرقين الغربيين من أمثال Ignaz Goldzieher (١٨٩٦) وJoseph Schlacht (١٩٥٠) استبعاد السنة بأكملها. بسبب عدم القدرة على التحقق من صحتها، وتبعهم في ذلك قلة قليلة من المسلمين أمثال محمد توفيق صدقي بكتابه الدال على رأيه من العنوان: «الإسلام هو القرآن وحده». ويوافقه كذلك كل من رجاء جارودي والسوري محمد شحرور. وهذا الأخير يَعُدُّ التنزيل الإلهي هو الوحيدُ المقيد، وكل ما عداه إنما هو إرث قانوني[٤]. ولكن تتمسك غالبية المسلمين في واقع الأمر بالأحاديث مع تحفظهم على إمكانية وجود بعض الأحاديث غير الصحيحة. ولهذا السبب أدعو **أفضل علماء الإسلام المعاصرين الذين يخلفون نعماني الشبلي وقاظلور رضهان ومحمد الغزالي ويوسف القرضاوي إلى اتباع أحدث المناهج العلمية المعتمدة في التاريخ والنقد للفصل في أمر صحة أحاديث الرسول واستخلاص الصحيح منها واستبعاد المدسوس عليها. إنني على يقين بأن هذا الأمر إنما هو واجب عظيم ومهمة تتطلب تحمُّل مسئولية هائلة، ولكن لن يستطيع الإسلام أن يدخل القرن الثالث الميلادي دون إنجازها وتحقيقها**[*].

إن المرء ليصاب بالدوار إذا ما فكر في هذه الأسئلة وحاول الإجابة عنها، حتى لو لم يعلم بأن مستقبل الإسلام في الألفية الميلادية الثالثة يتوقف بشكل أساسي على هذه الأسئلة.

-٣-

ولا يقل أهمية عما سبق ذكره توصل علم القانون الإسلامي إلى الاتفاق حول مفهوم الشريعة التي يكثر عنها الحديث؛ لأن المهتمين بهذا الأمر مختلفون ما بين فقهاء تقليديين وعلماء محدثين. لقد كان أمرا مسلما به عند القدماء أن القرآن يحتوي بشكل يبلغ درجة الكمال على كل القوانين المنظمة لكل شيء، وأن القرآن يتم شرحه وتأكيده من السنَّة، ولذلك رأى القدماء أن الفقه الإسلامي المبني على

---

(٤) شحرور ص ٧.

(*) وهذا هو بالضبط ما فعله عباقرة الحديث السابقون: مالك، والبخاري، ومسلم (الناشر).

القرآن والسنة، وأن القوانين المستنتَجة والمستخلَصة منهما إنما هى حق إلهى وقانون إلهى لا مساس به.

ولكن أليس فهم القرآن والسنة واستخلاص الأحكام الشرعية منهما المجاز واجتهاد للبشر؟ بل أليس نقل نصوص السنة هو عمل بشرى قابل للصواب والخطأ؟ وتتلخص أهمية هذا العمل فى أهمية الأسئلة الرئيسة التى يبحث لها عن الإجابة.

١ - هل الوحى هو مصدر كل من القرآن والسنة؟ أم القرآن فقط؟

٢ - هل تستطيع السنة أن تنسخ حكما ورد فى القرآن، (٥) أو أن تحذف منه شيئًا؟ وهل فى ا لقرآن ما ينسخ السنة؟

٣ - هل هناك بالإضافة إلى سنة الرسول سنن أخرى، مثل سنة أبى بكر أو عمر جديرة بالحسبان؟

٤ - هل تم تدوين السنة كلها؟ أم أن هناك بالإضافة إلى الأحاديث - أى السنَّة المكتوبة - سنة أخرى مَعيشة لم تدون؟

٥ - هل يمكن رفض حديث حتى وإن بدت سلسلة الرواة سليمة لا غبار عليها؟

٦ - إذا ما رفض حديث بسبب مضمونه، أى متنه، فعلى أى الأسس نعتمد فى رفضنا هذا؟ (العقل، خلوه من التناقض، أسباب تاريخية وأسباب ترجع إلى السباق الذى ذكر فيه).

٧ - هل السنة ضابط أخلاقى؟ هل تُعَدّ التقاليد ذات الطبيعة القانونية صالحة لكل زمان وكل مكان؟

فلا نستطيع أن ننكر أن من قاموا بالتوصل إلى هذا الصرح من القوانين الإسلامية إنما هم فى آخر الأمر بشر معرضون للخطإ، وأنهم بطبيعة الحال علماء أتقياء حاولوا وفقًا للخلفية التاريخية لزمنهم ولمتطلبات ذلك الزمان أن يقروا هذه

---

(٥) ينكر طه جابر العلوانى إمكانية أن تغير السنة شيئًا فى القرآن أو تخفف منه. وشيخ الأزهر السابق جاد الحق قد اتخذ موقفًا مضادًا فى فاكس بعث به إلىَّ.

القوانين ويقيموا هذا الصرح الهائل، الذى يُعَدّ (بالإضافة إلى القانون الرومانى[٦] والـ Common Law) إحدى القمم القانونية الثلاثة للميراث العالمى[٧] فى مجال القانون.

لقد نتج هذا الفقه من خلال استخدام منهج القياس فى معالجة المصادر، وكذلك بالأخذ بالإجماع. ولكن من الجدير بالذكر أن القانون الإسلامى لم يعرف فى العصور الوسطى فكرة القطب الواحد أو الفقة الأوحد. فهناك المدارس الفقهية العديدة (المالكية والحنبلية والحنفية والشافعية) التى اختلفت فى أمور معينة، ولم يدَّع أحد مؤسسيها أنه معصوم من الخطإ[٨].

ولا شك فى أن تطور هذا الفقه أمر مطلوب جدا اليوم، خاصة محاولة استعادة مرونة هذا الفقه، حتى يستطيع أن يوفر إجابات عن المشكلات المعاصرة.

فمثلا، لم يعط القرآن أو السنة أو فقه العصور الوسطى إجابات عن استغلال المصادر فى الفضاء الخارجي أو حقوق المؤلف فى الإنترنت أو قوانين المرور أو مسائل مثل الأم البديلة أو تكنولوچيا الچينات. ولكن على فقهاء الإسلام المعاصرين اتباع فقهاء العصور الوسطى ومنهاجهم فى الاجتهاد للتوصل إلى تنظيم قانونى جديد على أسس وأهداف ومبادئ القرآن والسنة الصحيحة، عن طريق التحليل والأخذ بالمناهج العلمية[٩].

وهذا الأسلوب يتطابق تمامًا مع التراث الإسلامى. فعندما بعث الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - بمعاذ بن جبل ليحكم فى اليمن، سأله: كيف تقضى؟

---

(٦) إن نسختى من القانون الرومانى الصادرة عام ١٧٣٥ والذى يضم ١٢٧٨ صفحة، ويتضمن جميع المؤسسات وغيرها والقوانين الجديدة حتى عهد القيصر فريدريك الثانى، تماثل فى حجمها كل ما يتضمن القوانين الإسلامية.

(٧) هناك أمثلة جديرة بالإعجاب ودالة على المستوى الرفيع لعلوم القوانين هذه، وتجدها عند ابن رشد والنووى والشافعى.

(٨) نقلاً عن محمد أسد (١٩٨٧) ص ٢٠: «لن تجد عمليا مشكلة قانونية كبرت أو صغرت اتفقت عليها الأنظمة المختلفة أو المذاهب المختلفة».

(٩) لقد وضع عمران نيازى بدراسته أساسًا جديدًا يصلح لتطور علوم القوانين الإسلامية الجديدة، من منطلق الإصلاح.

فأجاب معاذ: أقضى بكتاب الله، وإن لم أجد فبسنة رسول الله. وعندما سأله الرسول ماذا يفعل إن لم يجد فى كليهما، أجابه معاذ: أجتهد رأيى، ولا آلو. ولقد راقت هذه الإجابة الرسول[١٠]. ولقد أشار مأمون عبد القيوم رئيس المالديف فى محاضرة ألقاها خلال شهر رمضان عام ١٩٩٣ فى نطاق ما يعرف بدروس الحسينية فى الرباط، إلى أن هذا الحديث يدل على تمتع القانون الإسلامى والفقه الإسلامى بالمرونة التى تتيح له الإجابة عن كل التساؤلات الجديدة، أيا كانت هذه التساؤلات. ويتطلب هذا الأمر - وهنا مربض الفرس - أن يؤخذ باقتراح محمد أسد ونتبع ما طالب به، أى بحصر مفهوم الحق الإلهى، أى الشريعة التى لا تقبل التغيير على مائتى القاعدة والقانون التى وردت فى القرآن والأخذ بالجانب القانونى فى السنة النبوية الصحيحة. أما ما عدا ذلك من الفقه الإسلامى، فلابد من إعادة تفسيره بالرجوع إلى المصادر[١١].

ومن الخطإ كل الخطإ فى واقع الأمر أن نحسُب أن القرآن والسنة خاليان من القواعد القانونية وأنهما يتضمنان مبادئ وتوصيات فقط ذات خلفية تاريخية لا تصلح إلا لمجتمع المدينة (يثرب). والمنادون بهذا الرأى إنما يفعلون كل ما بوسعهم لينال الإسلام رضا الغرب ويتقبله. ولكن بدون شريعة لا يملك الإسلام نموذجًا بديلاً للمجتمع الغربى القائم.

أما الحركة الجديدة فى علوم القانون الإسلامية، فيمثلها - ضمن آخرين - د. طه جابر العلوانى[١٢] وفتحى عثمان[١٣] ويوسف القرضاوى[١٤]. إنهم يجتمعون على رأى محمد أسد ويتفقون فى أن القرآن والسنة لا ينظمان الفروع، ويمكنهما - أى القرآن والسنة - أن يشغلا مجالاً حاكما ما بين الممنوع والمسموح، المحرّم

(١٠) سنن أبو داود حديث رقم ٣٥٩٢.

(١١) محمد أسد (State - دولة ١٩٨٠) ص ١٣.

(١٢) يشكو العلوانى فى ص ١٨ من أن الفكر الإسلامى قد خلد كثيراً للراحة، كما أنه يذكر أن الطبيعة والفطرة إلهام من الله يجب أن يؤخذ فى الحسبان (ص٢٢).

(١٣) لا يحمل كتاب عثمان عن الشريعة (١٩٩٤) العنوان التالى اعتباطا: «The Dynamics of Change in the Islamic Law - ديناميكية التغيير فى القوانين الإسلامية».

(١٤) يجيب القرضاوى فى كتابه عن المسموح به والممنوع عنه عن كثير من الأسئلة المعاصرة.

والمحلّل، لا يحق لأى قانونى أو حاكم أن يحده ولا أن يمده تحت ادعاء إرادة الله ومشيئته(١٥).

فالقرآن يقول فى الآية (٨٧) من سورة المائدة محذراً: ﴿لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ...﴾. ولذلك يعارض هؤلاء العلماء المعاصرون الاتجاه السائد بين أتباع المدرسة التقليدية فى التشدد بتحويل الأشياء التى أوصى الله بها إلى فرائض، وتحويل ما أوصى بتجنبه إلى محرمات. ولا يستطيع المرء إلا أن يأمل فى أن تفهم صيحة فتحى عثمان وتتبع «إن الحق والقانون الإلهى ليس بديلاً عن العقل البشرى، ولا يهدف إلى تعطيل قوته، وشل حركته»(١٦).

* * *

---

(١٥) عثمان (١٩٩٤) ص٢٢.

(١٦) عثمان (حقوق الإنسان ١٩٩٦) ص٦.

طالبو إحسان أم شركاء؟

شعار : «إن القرآن كله مليء بتفسيرات صبيانية للعالم قد عفا عليها الدهر» .

(Dr. Paul Ezer ـ د. پاول إسر : خطاب قارئ مبعوث إلى جريدة FAZ بتاريخ ٢٨/ ٥/ ١٩٩٧).

ـ ١ ـ

من حسن الطالع أن هناك إلى جانب العلامات الدالة على المقاومة المتزايدة من الغرب للإسلام ، علامات عكسية ، أى إشارات إلى استعداد الغرب لتقبل الإسلام بالرغم من المشكلات التى سبق ذكرها .

فالإنسان الغربى ، على أقل تقدير ، مستعد لتقبل المسلم بما يميزه فولكلوريا مثل الكباب والكسكسى والكارى ، كتقبله للإيطالى بالپيتزا والعجائن ، فالإسلام مرحب به كتنوع غريب .

سيزداد انتشار الإسلام عن طريق زيادة المواليد بين المسلمين ، حتى وإن أخذت نسبة المواليد فى الانخفاض بسبب ارتفاع مستوى المعيشة . لقد أصبح اسم محمد أكثر أسماء الذكور شيوعًا بين المواليد .

من المحتمل ألا توجد أزمة فى الدين نفسه ، ولكننا لا نستطيع أن ننفى أن المؤسسة الكنسية تعانى من أزمة واضحة . وهذا يفسر نشأة وظهور موجة من التدين ذات طبيعة فوضوية وسط الانهيار الذى تشهده الكنيسة ، ويمثل هذا إجابة طبيعية ورد فعل مسوّغا لما يشعر به الكثير من الشباب من فراغ دينى . من الممكن أن يتم

البحث عن معنى عميق للحياة وعن قيم دائمة - إحدى الطرق المؤدية إلى الإسلام - عن طريق التقوقع وحركات الصحوة .

على أى حال لا ينسحب كل من يترك الكنيسة إلى دين ذاتى شخصى أو يتخذ موقفًا لا أدريا .

يعد احترام الاختلاف إحدى فضائل ما بعد الحداثة . ومن مظاهرها كذلك حب الأشياء الغريبة حتى وإن كانت في صورة شغف بالعالم الثالث ، وكذلك مقاومة العولمة وآثارها . وبالرغم من محاولة استبعاد الإسلام ، فإن المسلمين يمكنهم بشكل أو بآخر الاستفادة من موجة ما بعد الحداثة .

ولقد أدى عجز الغرب فى حل النزاع الدائر فى البوسنة وحماية المسلمين هناك ، إلى تفجر شعور بالذنب ، أدى إلى تدخل الغرب فى آخر الأمر لصالح المسلمين فى كوسوفا . وتقوم بعض الدول الإسلامية ذات التأثير القوى والأهمية الإستراتيچية وبفضل ثرائها وغناها بالثروات المعدنية ، باستغلال دورها على الساحة الدولية لخدمة الإسلام ، ليس فقط من خلال بناء المساجد ، أو طبع ونشر الكتابات الإسلامية الكلاسيكية باللغات الأجنبية . وتعد الكويت وقطر وأبو ظبى والشارقة وكذلك السعودية من ضمن هذه الدول ، وكذلك منظمة المؤتمر الإسلامى .

وبفضل هذه الدول والمؤسسات ودورها الحامى للإسلام والمسلمين ، لم يعد بوسع الغرب التعامل مع المسلمين لديه دون مراعاة الأصداء الدولية لهذا التعامل . ويتمتع الإسلام فى هذا المعنى بنوع من المكانة بين القوى المختلفة .

أصبح للمنظمات الإسلامية فى الآونة الأخيرة مكانة فى كل من بلچيكا والنمسا ، كما أصبحت تحظى باحترام حكومى واضح فى إسپانيا ، حتى أصبحت إسپانيا صالحة لتكون مثالاً ونموذجًا يحتذى به فى تشكيل وتحديد العلاقة بين الدول الغربية ومسلميها .

لقد فوض البرلمان فى مدريد الحكومة فى عقد اتفاق مع د. منصور عبد السلام إسكودرو Escudero رئيس إحدى المنظمات المركزية الإسلامية المعترف بها حكوميا ، وبعد التصديق على الاتفاق ، تم نشر هذا الاتفاق بصفته القانون رقم ٢٦ لعام ١٩٩٢ بتاريخ ١٠ من نوفمبر عام ١٩٩٢ فى الجريدة القانونية .

وينص هذا الاتفاق على تدريس مادة الدين الإسلامي في حالة طلبها، حتى في المدارس الخاصة، وكذلك توافر الرعاية الإسلامية في القوات المسلحة والسجون. كما أن للمسلمين الحق في التوقف عن العمل لأداء الصلاة، ولكن عليهم أن يقوموا لاحقًا بأداء ما فاتهم من ساعات العمل. تتمتع المساجد والعاملون بها وأرشيفها بالحصانة، ولأئمة المساجد سلطة عقد الزيجات. للمسلمين الحق في الحصول على إجازات في أعيادهم، على أن يعملوا في الإجازات المسيحية[1]. أخيرًا تم افتتاح جامع في قرطبة بعد ٦٠٠ عام من إغلاق الجوامع بها. أما في طليطلة، فأقيم بتاريخ ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٨ صلاة جمعة في جامع كان قد أغلق لمدة ٥٠٠ عام. لقد نالت إسبانيا بهذا الاتفاق استحسانًا بالغا في العالم العربي - الإسلامي.

لقد انضمت اتحادات مركزية إسلامية في الدول الأوروبية في تشكيل هو الاتحاد المركزي الأوروبي، الذي يُعَدُّ لجنة التعاون الإسلامي في أوروبا، واتخذ من مدينة ستراسبورج مقرًا له[2].

أما في ألمانيا فيزداد الوعي بأهمية دور اللجنة المركزية لمسلمي ألمانيا التي تشكلت عام ١٩٩٤، والتي تُعَدُّ صوت المسلمين غير المرتبطين بتركيا[3]. تقوم هذه اللجنة بإقامة «يوم المسجد المفتوح» يوم ٣ من أكتوبر من كل عام، حيث يجتمع في هذا اليوم ما يزيد على ١٠ آلاف مواطن يتعرفون لأول مرة على الواقع الإسلامي.

لقد قامت الكنيسة الإنجيلية في ألمانيا والمنظمات التابعة لها بتعيين شخصيات معنية بأمور الإسلام، ولقد كان لهؤلاء الشخصيات دور بارز في أن تأخذ مناقشة الإسلام شكلاً أكثر موضوعية - كما ساهموا في مقابلات إنسانية مثمرة بين الديانتين

---

(١) لقد ظهرت نسخة فرنسية للتنظيمات والقوانين الإسبانية في باريس ١٩٩٤ رقم ٢ .Le Conseil Nr.2
وأخرى إنجليزية في ENCOUNTERS رقم ٢ /٢ Markfield, LE (UR) عام ١٩٩٦ ص ١٥٥ - ١٦٧.

انظر هنا مراد هوفمان: الإسلام في إسبانيا - نموذج يصلح لأوروبا - في الإسلام ميونخ ١٩٩٦ عدد ٤ ص٤، ٥.

(٢) المنسق هو أ. د. عبد الله بوسوف، .Impasse du Mai F - 67000 Strazbrng Tel. t 33/3 - 8822. 1095

(٣) ZMD, Vogelsanger Str. 290. Tel + 49 - 221 - 244. 34/ D- 50825 kòln 222. g567 الرئيس يدعى د. نديم (Eschweiler).

ـ كما لو أن روح المجمع الفاتيكانى الثانى قد وجدت لها تحققًا من خلال الكنيسة الإنجيلية الألمانية .

ومن بين الأدلة على هذا، التقويم السنوى الذى يأخذ فى الحسبان الديانات الثلاث والذى تصدره الكنيسة الإنجيلية، ويشرف على إصداره القس Thomas Dreesen وهو متزوج من تركية مسلمة . وهناك بعض المدن مثل Offenbach أوفنباخ، قامت بتخصيص مساحات لإقامة مدافن إسلامية مزودة بالتجهيزات اللازمة لعملية تغسيل الموتى .

ـ٢ـ

هذه سلسلة من المؤشرات المضيئة لتقبل الإسلام فى أوروبا، ولكن هدف الإسلام هو الاعتراف به واحترامه، وليس مجرد تقبله . فقد قال جوته Goethe : «التقبل والتسامح مجرد خطوة لابد أن تؤدى إلى الاعتراف، أما مجرد التقبل فهو إهانة» .

يستطيع المسلمون أن يصلوا إلى هدفهم بأن يكونوا شركاء للغرب، وليس مجرد طالبى إحسان، إذا ما نجحوا فى إقناع الغرب بأن الإسلام يمكن أن يقدم لهم الشىء الكثير مما يحتاج إليه الغرب بشدة ويفتقده، حتى إن الإسلام يستطيع أن يحرره وينقذه من أزمته الوجودية . فالإسلام يمكن أن يكون دواءً لداء الغرب وليس مجرد عنصر يعمل على تعدد ألوان صورة الغرب .

يعتقد Walter Lippman أن الغرب تتهدده اليوم بروليتاريا فكرية، وليس بروليتاريا العمال التى كان كارل ماركس ينادى بتكوينها وتشكيلها . «إن البرابرة لا ينتظرون خارج الحدود ولكنهم يحكموننا منذ زمن» كما يقول Alagdair MacIntyre[٤] .

ولكن إذا كان الأمر بالفعل كذلك، أى أن جذور الأزمة الأخلاقية الحالية فى الغرب تعود إلى ٢٥٠ عامًا مضت، فإن عملية الشفاء منها تبدأ بنقد جذرى لعقلانية الحداثة وما خلقته من دين بديل .

---

(٤) نقلاً عن Ophulsص ٥٧ .

فلن يكون هناك أمل فى الشفاء إلا إذا نجحنا فى تحرير الغرب من وهم الحداثة التى تحكمه؛ لأننا فى هذه الحالة فقط ننجح فى وقف عملية التسميم الذاتى العقلانى التى يمارسها الغرب؛ ليتمكن من إعادة صلته بالغيبيات وأن يستعيد المقدس والإلهى مكانته فى دائرة اهتمامه ويكون هذا أمام عينيه.

إذًا فالأمر يتطلب إعادة الاعتبار للدين كرد فعل عقلانى على حاجة الإنسانية والتى لابد وأن تبدأ بوضع العلوم التطبيقية فى مكانها الطبيعى، وليس كبديل عن الدين.

الأمر باختصار يتطلب عملية تغيير فى النماذج المتبعة، تهدف إلى رؤية دينية جديدة للعالم، تتجدد من خلال موضوعية الإسلام وغيبياته المعقولة ووحدانيته الخالية من الأسرار والغموض.

من الممكن نظريا أن تقوم المسيحية بكل هذا، ولكن نظريا فقط؛ لأن المسيحية قد فقدت بمرور الوقت المصداقية المطلوبة بسبب المبالغات التى تتضمنها. ولم تبد الشخصيات المؤثرة فى الكنيسة استعدادها لاهوتيا لإعادة التقييم و«كَبْح» هذا التدهور، ولا نرى أنه من الممكن أن تساهم أى ديانات أخرى أو أيديولوچيات فى مسألة إعادة تشكيل الغرب ومساعدته على الشفاء من أمراضه. فالبوذية لا تساعد على تشكيل جماعات كبيرة. والليبرالية القائمة على «الحق الطبيعى» أضعف من أن تقوم بذلك. كلا - كما سبق القول - فإن الديانات المستعارة والبديلة غير قادرة على فك أغلال القوى الضرورية للتغلب على أنانية الفرد والجماهير.

-٣-

إننى أثق فى قدرة الإسلام على النجاح فى أن يستبدل بالنموذج القائم نموذجه القادر على تجاوز فشل الحداثة (وذلك بالرغم من القصور بين أتباعه) للأسباب التى سأذكرها لاحقًا.

-٤-

- الدفء الإنسانى: لقد داعب حلم «The Greening of America» - إعادة

الازدهار إلى أمريكا، خيال الأجيال الشابة مع مؤلف هذا الكتاب Charls Reich ولم يكن حلم Reich أو حلم الدوحة الوارفة لتنشئة الأطفال يعنى سياسة تشجير المتنزهات، ولكن كان يهدف إلى تعاون جماعى ومشاركة جماعية جديدة تتسم بالكثير من الدفء الإنسانى.

ولكن هذا النداء لم يجد له صدى. فلم تجد الأجيال الدفء، بل وجدت بدلاً منه البرودة الشديدة، ولم تعد هذه البرودة سمة مميزة للعلاقات الشخصية فقط، بل أصبحت سمة للوضع الاجتماعى ككل. إن الوعظ فى الكنيسة يطالب دائمًا بأن «تحب جارك كما تحب نفسك»، ولكن لم يعد هذا إلا كلاما يتلى فى الصلوات. أما فى الحقيقة، فإن هناك برودة اجتماعية تسود جميع العلاقات، ومنافسات قطع البلعوم حتى أصبح الحقد الاجتماعى أشبه ما يكون بمؤسسة راسخة فى ظل النظام الرأسمالى. «فالناس لا تريد أن تكون غنية بل أغنى من غيرها». (چون ستيوارت ميل، J.S.Mill) وفى ظل هذا المجتمع يشق كل فرد طريقه مستخدمًا العنف ليصل إلى سعادته المرتبطة، بل المتمثلة، فى الاستهلاك: فالزوج يستخدم العنف ضد زوجته ليحقق نجاحه الخاص، وهى تفعل المثل والأطفال ضد الآباء، والعكس، كل ينسج خيوطه حول ذاته التى لا تمس.

فى ظل هذه الظروف تعيش الجماعات الإسلامية فى الغرب حالة تماسك اجتماعى يترفع عن العناصر العرقية والقومية، هذا التعايش يشع دفئًا اجتماعيا ملموسًا. لا يملك المحيط الغربى إلا أن يتابع المسلمين بدهشة بالغة، حين يراهم وهم يشيدون المساجد من حصيلة نقودهم التى حصلوا عليها من تطوعهم بالعمل فى إجازات نهاية الأسبوع وغيرها، وكيف يحتفل المسلمون بأعياد الفطر وعيد الأضحى وكأنها حفلات عائلية كبيرة. فالمسلمون يخلِّصون الدين من ارتباطه بخصوصية الإنسان ويجعلونه عامًا. إنهم يؤممون الدين. والكثير من المراهقين يعجبهم هذا على وجه التحديد. فكثيرًا ما وجد أحد المعتنقين للإسلام طريقه للإسلام من خلال الإحساس الجماعى واستعداد المسلم للتضحية ومراعاته للغير، وبسبب هذا الدفء الإنسانى.

أما بالنسبة لمعاداة الإسلام للعنصرية، فلقد أفردنا له فصلاً خاصًا به. فلقد اعتنق

الكثيرون من المضطهدين والمنبوذين الإسلام بسبب معاداته للعنصرية ومساواته بين البشر، ومن هؤلاء الجماعات نذكر على سبيل المثال وليس الحصر: المنبوذين فى الهند، والفلپينيين العاملين فى الخليج العربى، والأمريكيين من أصول إفريقية فى الولايات المتحدة.

ومن النقاط التى لا تقل أهمية: حرية الفرد فى علاقاته بربه، أى عدم وجود وسيط بين المسلم وربه، وكذلك دون سلطة كهنوتية. فالنصوص الإسلامية الأساسية متاحة للكل، لا يستطيع أحد أن يدعى أنه يحتكر تفسيرها. كما أن «خادم الحرمين الشريفين» بالرياض لا يعتلى عرش البابوية. ولا توجد محكمة كنسية كالتى فى روما La Rota Romana، وليس هناك نسق كنسى. وليس هناك فتوى ملزمة للمسلم. والزواج ليس رباطًا مقدسًا لا يفصم. يستطيع كل مسلم أن يؤدى أى عبادة دون وجود وسيط. وخلو هذا الدين من التسلط الكهنوتى، وغياب الهيراركية فيه، يؤثران بشكل إيجابى على كثير من الشباب فى الغرب.

لقد بالغت الحداثة فى أداء وظيفتها فى استبعاد جميع الأسرار والمعجزات والأعمال الخارقة من العالم. وكانت النتيجة استياء عاما من كل شىء يبدو وكأنه معجزة. والطريق إلى المسيحية ممهد بمعجزات كثيرة، بينما لا يعرف الإسلام إلا معجزة واحدة هى القرآن. ولكن الأهم من ذلك، أن الإسلام يطالب المسلم دائمًا بألا يدع أحدا يفكر له، فهو ملزم بالتفكير والتدبر. لا يصح للمسلم أن يتوارث دين آبائه دون اقتناع منه بهذا الدين بعد أن يُعمل عقله ويقرر لنفسه. أى أنه وفقًا لرأى جوته Goethe على المسلم أن يكتسب إرثه الدينى عن طريق الفكر حتى يمتلكه حقًا. وهذه العقلانية التى تميز الإسلام والتى تنعكس فى الأجواء الواضحة التى تسود الجوامع، تثير إعجاب كثير من الناس.

يعتقد Rüdiger Safranski أننا نعيش عصر «تعدد الآلهة العلمانى»، فالإله الواحد «تشرذم فى عدة آلهة منزلية صغيرة»[٥]. ويشاركه المسلمون الرأى نفسه. فإدمان الإنسان الغربى للسجائر والخمر وجميع أنواع المخدرات الأخرى، والسيل الذى لا ينقطع من إعلانات التليفزيون التى يتعرض لها الإنسان فى الغرب، كل

---

(٥) Safranski: «إرادة الإيمان» FAZ ملحق تاريخ ٢٤/ ١٢/ ١٩٩٣.

هذا أصبح عملية منظمة تستهدف الإنسان، وينعكس فى عملية الإدمان هذه السباق الاجتماعى المحموم للحصول على نصيب وقسط من السعادة المفقودة.

لقد دفع الغرب ثمن ازدياد ظاهرة الإدمان وآثارها المدمرة على الحضارة الغربية، ولكنه لا يستطيع - كما هو حال المدمنين - أن يفعل شيئًا حيال ذلك. فبدلاً من القضاء على المخدرات، يحاول التوصل إلى أنواع أقل خطرًا، ويقوم بالسماح بأنواع أكثر وبمنح حريات أكبر فى تناول المخدرات.

إن أمريكا التى ثارت وهاجت ضد تجارة الخمور فى عشرينيات هذا القرن، ولم تخرج من هذه المعركة إلا وقد أضافت إلى مشكلاتها مشكلة جديدة هى المافيا، أمريكا هذه تثور اليوم مجددًا ولكن ضد التدخين.

أما بالنسبة للمسلمين، فإن الصورة تختلف. ففى مقابل مشكلة المخدرات هذه يقف المسلم بما يفرضه عليه دينه من الصحوة والإفاقة من المخدرات كافة. فرفض المسلم للإدمان ليس مبنيًا على مراعاة صحة الفرد فقط، ولكن أيضا يبتعد به المسلم عن عصيان بالله بأن يرفض تخدير وتغييب عقله، الأمر الذى يمنعه من ذكر الله والعمل بشرعه، فكأنه فى النهاية طريق للشرك.

وتستفيد من هذا الأمر فى أمريكا الأحياء التى يقطنها الأمريكيون ذوو الأصول الإفريقية، عندما يتعاون المسلمون على إخلاء هذه الأحياء من المخدرات بشكل سلمى عن طريق الدين، كما يحدث فى لوس أنجيلوس وفيلادلفيا.

يرى William Ophuls أن الاتجاه النسائى المتطرف ذا الصبغة الغربية، إنما هو «إعلان بالانهيار التام والنهائى للمجتمع المدنى»[٦]. ويتساءل الكثيرون من المعنيين وهم فى حيرة من أمرهم: ماذا سيحدث لهذا الجيل الذى تربى فى ظل غياب الأب؟ هل سيقوم هذا الجيل بالقضاء تمامًا على الأسرة؟ ويولى المسلمون للأسرة أهمية قصوى، وينزلونها منزلة عالية حتى إنهم يرفعونها إلى أعلى مكانة، فيَعُدُّونها أهم وحدة اجتماعية. والمسلمون يدقون ناقوس الخطر حين يقولون: إن انهيار المجتمع يبدأ من الأسرة وينتهى كذلك عندها.

---

(٦) Ophulsص ٥١.

ويستجيب بعض الشباب الذين أخافهم انتشار مرض الإيدز لهذا الإنذار ويعودون للارتباط الوثيق بأسرهم. ولقد وجد كثير من الناس طريقهم إلى الإسلام عن طريق معايشتهم للأسر الإسلامية.

من الطبيعي أن يعتقد المرء أن «الحق في الحياة» حق لا خلاف عليه، وهو من حقوق الإنسان البديهية، ولكن هذا لا ينطبق إلا على المحظوظين منا ممن تمكنوا من اجتياز أخطر مرحلة لما قبل الولادة وتمت ولادتهم فعلاً.

فلم يَعُدْ هناك - حتى في الأوساط الكاثوليكية - حركة قوية ونشيطة مناهضة لمسألة تقنين عمليات الإجهاض والسماح بها. فليست صحة الأم فقط هي التي لها أولوية على حياة المولود في الغرب، بل هناك كذلك ما هو أهم من حياة المولود، مثل السيارة الثانية، والفراء الثاني، والإجازة الثانية. ويتخذ بعض الناس ذوو العقليات المتحفظة موقفًا أصوليا متطرفًا من مجتمعاتهم، ويكتشف بعضهم أنهم فيما يخص مسألة إباحة الإجهاض أو تحريمه، إنما يشاركون موقف الإسلام من تحريمه، بل تجريمه للإجهاض. وإن موقف الإسلام هذا، واتباعه أفضل بكثير من إلقاء القنابل على العيادات التي تجرى فيها عمليات الإجهاض.

يستطيع المرء المتابع للمسيحية في موقفها من الجنس والمرأة، أن يلاحظ وجود اتجاهين متناقضين، بل متطرفين، وذلك منذ بولس وباركوس وأوجوستنس حتى يومنا هذا. ويتمثل هذان الموقفان في موقف شديد التطرف من المرأة والجنس ينادي بالبيوريتانية الشديدة، ويكاد يرى في المرأة الشيطان نفسه. أما النقيض الآخر لهذا الموقف فهو الانغماس بلا حدود أو رادع في الملذات الجنسية. وإذا ما نظرنا إلى هذا الموقف الأخير على أنه غير مسيحي واستبعدناه تمامًا من المسيحية، لأمكن فعلاً وصف المسيحية كما فعل Georg Denzler فأسماها «٢٠٠٠ عام من تحريم المتعة».

على النقيض من المسيحية، استطاع الإسلام أن يدمج الجنس في حياة المسلم اليومية دون اتخاذ موقف أحادي متطرف. كما أن الإسلام لم يتخذ موقفًا مناهضًا للمرأة أو الزواج ولم يرفع في الوقت نفسه الزواج إلى مسألة القدسية. لقد أبدى المسلمون دهشتهم من أن الجنس والعلاقة الزوجية مثاب عليهما من الله، فقام الرسول بتوضيح ذلك حيث بين لهم أن العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج

الشرعى إنما هى خطيئة يعاقب عليها الإنسان ، إذًا فالأمر الأول أى الثواب هو الوجه الآخر للعملة ، أى للعقاب على الخطيئة . ويتطابق الموقف العقلانى الذى يتخذه الإسلام من الجنس مع الفطرة البشرية ، ويفسر كذلك عدم وجود رهبنة فى الإسلام وعدم وجود ساحرات! فإذا أراد الغرب أن ينجو أخيراً من التخبط بين النقيضين فى الموقف من الجنس ـ هذا التخبط الذى كلف المجتمع الغربى الكثير ـ فإن الإسلام دين الوسط يلوح كمخرج وملاذ .

أما بالنسبة لموضوع تحرير المرأة ، فقد بدأ المرء يلاحظ صحوة فى الغرب ، بعد أن اكتشفت بعض النساء أن الأوان قد فات ليصبحن أمهات فى خلال انغماسهن المحموم لتحقيق نجاحات باهرة فى مجال العمل . ولقد زاد من أسباب هذه الصحوة أن الكثيرات من النساء لاحظن أن الساحة السياسية ودنيا العمل لا يزال الرجل يحكم سيطرته عليهما ، وأن المرأة لا تزال تتعرض لأنواع شتى من الاستغلال حتى لأغراض دعائية وإعلانية . وفى ظل هذا المناخ ، فإن الكثيرات من النساء قد تيقن أن وضع المرأة فى الإسلام وتحرير الإسلام للمرأة لهو أنسب مما يعيشه الغرب . ولذلك تختار كثيرات من النساء ـ بحريتهن ـ ارتداء غطاء الرأس ، والالتزام بالزى الإسلامى ليكتسبن وقاراً وكرامة واحتراماً كن قد فقدناهم فى خضم التنافس على العرى العلنى .

وبالنسبة لمشكلة الشذوذ الجنسى ، نستطيع أن نقول كلامًا مشابهًا لما ذكرناه عن الإجهاض . فإن الشائع الآن أن يبتعد المرء عن هذه المسألة . وقد شهد الغرب تخبطًا واضحًا وتأرجحًا بين موقفين متطرفين من هذه المسألة ؛ فتارة يعاقب القانون على الشذوذ ويَعُدُّه جريمة ، ثم يتم تقبل هذا الأمر حتى يكثر الحديث عن إمكانية ممارسة حياة الشذوذ ، ويتحول الشاذ فجأة من مجرم إلى عضو فى أقلية تتمتع بكافة الحقوق والحماية التى للأقلية ، بل لهم الحق فى عقد الزيجات بينهم!

ولقد اتخذ الإسلام موقفًا عمليًا عقلانيًا من الشذوذ ، فالآية ١٦ من سورة النساء تقول ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ .

فكثير من المفسرين يعتبرون الآية ـ والآية التى تسبقها ـ عن الشذوذ ، والإيذاء هنا

كلمة واسعة تحتمل صنوفا كثيرة من التعزير طبقًا للحالة، أهى مرضية وانحراف عن الفطرة بسبب التنشئة وما إلى ذلك؟ أم هى مجرد فسوق وعصيان يستوجب التعزير الشديد؟

وتقول الآية السابقة لها ﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾، ونجد هنا العقاب بحبس تلك النساء - بعد شهادة أربعة عليهن - فى بيوتهن حتى يتوفاهن الموت، أو يجعل الله لهن سبيلا، وتبين الآية ١٧ ذلك السبيل ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

والإسلام لا يرفع الشذوذ إلى مستوى حياة مقبولة أو حتى مثالية. فالشذوذ لا يمكن عَدُّه أسلوب حياة أبدًا.

وهذا الموقف ينال إعجاب ورضا أناس فى الغرب، ويزداد الإعجاب بموقف الإسلام حيث يؤدى هذا الموقف إلى مقاومة انتشار مرض الإيدز.

يبتسم المسلمون ابتسامة ذات دلالة عند رؤيتهم للمواد الطبية المستخدمة لإنقاص الوزن أو للأطعمة المخصصة للحفاظ على رشاقة الإنسان، خاصة أن مشكلة السمنة أصبحت إحدى الظواهر المخيفة فى المجتمعات الغربية، أى مجتمعات الوفرة والاستهلاك. وسبب هذه الابتسامة التى تحمل قدرًا من الدهشة والسخرية، يعود إلى اقتناع المسلم بأن أنظمة التغذية التى تهدف إلى إنقاص الوزن لا فائدة منها إذا لم تصاحبها عملية تجديد ذهنى وروحى، وأن صيام شهر رمضان كما أمر به الله وكما أراد للمسلم أن يؤديه، يفى بكل ما تهدف إليه الأنظمة الغذائية وأكثر، أى: الإحياء الذهنى والروحى، وممارسة الانضباط، وفقدان الوزن الزائد والسعرات الحرارية غير الضرورية.

لقد تعرف كثير من الناس فى الغرب على الإسلام فى شهر رمضان، وتبينوا من خلال هذا أن الإسلام دين يعنى بالإنسان من جوانبه كافة، ويهتم كذلك بإعادة تشكيل الإنسان.

يعانى الإنسان الغربى من التوتر، ليس فى موقع العمل فقط، ولكن فى أثناء إجازته، بل وخلال ممارسته للجنس داخل إطار الزواج أو خارجه. فمشكلة هذا الإنسان - والتى لم يفكر أحد فيها سابقًا - هى أن يتعايش مع الحياة. فالمشكلة ليست ماذا يحدث فى أثناء الحياة، ولكن المشكلة أن تكون أصلاً على قيد الحياة؛ ولذلك فإن الأمريكى المتوسط له دائمًا طبيب نفسى، إلا إذا كان يتبع أحد الطرق التأملية مثل اليوجا أو طقوس الشاى اليابانية. ولن تجد إنسانًا لا يعانى من أزمة وجوده هذه، إلا وعَدَّه الآخرون إنسانًا غير متعايش مع واقعه وغير عاقل. ولذلك فإن William Ophuls ليس على خطإ تام عندما يقول إن علم الطب النفسى هو ذاته المرض ولو ادعى هذا العلم قدرته على شفاء الناس منه(٧).

ويكتشف بعض الناس أن الإسلام يستطيع أن يحقق معجزة وهى أن يجد الإنسان نفسه ويحفظ ذاته من خلال أدائه للصلاة، والتسليم بكل شىء وبنفسه لله الأعظم الرحمن الرحيم. وفى نفس الوقت يوفر الإنسان هكذا أموالاً طائلة.

كتب فرانشيسكا أوجشتاين Franziska Augstein ذات مرة أن اقتصاديات السوق الحرة حقا يتم - حديثًا بمساعدة هيجل - توطينها أمام بوابات الجنة، أى فى أفضل العوالم كلها(٨).

ولن يستطيع أحد أن ينكر أن هذا النظام الاقتصادى تحول فى الغرب إلى «مجتمع متخم بالرفاهية»، مجتمع التشتت والكآبة (Andreas Pùttlmann)(٩). ولا تعود ملكية رأس المال المعامل والمحرك للاقتصاد الأمريكى إلى مستثمرين مغامرين يستطيعون إعطاء النظام الرأسمالى الحيوية الضرورية، والزيادة تشهدها المؤسسات التى تضمن عائدات الربا وليس المؤسسات التى تغامر برأس المال فى مشروعات إنتاجية. ويرتبط بهذا النظام مخاطر مثل الركود.

أما الإسلام بإصراره على منع وتحريم الربا، فإنما يصر بهذا على تشغيل رأس

---

(٧) Ophuls ص ١٩٨.

(٨) Augstein «ياإلهى قدسيتك عظيمة جدا» FAZ ٢٣/ ٤/ ١٩٩٨.

(٩) نقلاً عن FAZ ٢٧/ ١/ ١٩٩٥ ص٣٨.

المال البـاحـث عن الربح والزيادة عند شـخص ثالث ولكن فى صـورة مـشاركـة فى الربح والخسـارة. ويؤدى تحريم الإسلام ونهيـه عن المضاربة إلى حـماية رأس المال ومنع التلاعب به فى كافة الصور من أسهم إلى عملات وغيره.

هناك من لا يجد مـأربه فى النظام الاقـتصادى الاشـتراكى المبنى على الخطط، ولكنه يرفض كذلك الرأسمالية بحرياتها غير المقيدة. يستطيع من يجد نفسه فى مثل هذا الموقف أن يكتشف أن الإسلام يمثل طريقًا وسطًا فى الاقتصاد خاصة بعد قراءته للتحليلات المبهرة لعمر شابرا Umer Chapra، وهو سعودى من أصل باكستانى تعلم فى الولايات المتحدة.

بعد أن تناولت بالعرض ما يمكن أن يقدمه الإسلام للغرب من مفاتيح جوهرية ومفاتيح أقل أهمية. (وما يجعل هذا الدين جذابًا بالنسبة للغرب)، فإننى سأحاول أن ألخص هذه الفروق الكثيرة بين الغرب والشرق فى مسمى واحد، وإن كان هذا ـ بطبيعة الحال يقلل من حجم الحقيقة إن لم يكن يكاد يمحوها ـ الفارق الأساسى بين العالمين الغربى والشرقى يتلخص فى الفرق بين «الكمية» و«الكيفية» Quantity& Quality. فالغرب لا يعرف قيمة أى شيء ما لم يستطع أن يعبر عن نفسه فى أرقام. فالقيم الفكرية والروحية لا يمكن تسويقها أو الإعلان عنها، ولذلك فهى بلا قيمة مادية. وفى هذا الإطار، فإن اهتمام الإنسان الغربى يدور حول ما (يملكه وما يكون لديه) أما الإنسان الشرقى فيهتم (بالوجود). ويثبت ذلك أن الحديث يدور بكثرة فى الغرب وليس الشرق عن «جودة الحياة». ومن يعيش فى الشرق يكتشف فى حقيقة الأمر: جودة ومعنى للحياة غير قابل للإعلان عنه أو تسويقه، يظهر فى السلوكيات مثل: الموقف غير المتشنج بل الهادئ من الوقت، كرم الضيافة، تواضع العلماء، تحويل كل ما يراه الغرب من ضروريات الحياة إلى مرتبة ثانية، الهدوء والرضا والقناعة كأسلوب حياة.

إن الأمـر كله يكمن فى هذا «النور»، هذا الضـوء الذى كـان دائمًـا يشع من الشرق، هذا الضوء بمعناه الحرفى ومعناه الرمزى (ex oriente lux). إننى بجدالى هنا عن كون الإسلام يملك الإجابات الصحيحة عن أسئلة الغرب الكثيرة وأزماته المتعددة، إنما أوضح وأثبت أن الإسلام ليس طالب إحسان من الغرب، ولكنه مانح رئيسى لكثير من القيم وأساليب الحياة.

أما أن يعترف الغرب بهذا أو لا ، فهذه مسألة أخرى . فجميعنا يعرف بطبيعة الحال الكثير من المرضى أو المدمنين الذين يحجبون الحقيقة ويرفضون الذهاب إلى طبيب حتى لا يواجههم بالحقيقة . وهذا هو حال المجتمع الغربي . فبالرغم من وجود تحليلات دقيقة ونافذة ذات دقة بالغة مثل تحليلات Danill Bell و William Ophuls المبهرة ، فإن غالبية الناس الذين يعيشون معهم هذه الأزمة ، أزمة حضارتهم ، لا يعون أبعاد هذه الأزمة . فالاتجاه العام في الغرب يميل إلى إصدار أصوات الانتصار ، ولا يفيد التشخيص السليم والعلاج السليم مريضا إلا إذا تناول هذا المريض الدواء وتناوله في أوقاته . ولكن هذا غير متوقع ، فجزء من المشكلة هو أن الغرب قادر على الرؤية والفهم ولكنه غير قادر على الفعل ، كما هو حال كل الحضارات في حالات انهيارها . لقد صاغ ذلك الرئيس الألماني السابق Roman Herzog هذا عندما قال : «نحن لا نعاني مشكلة معرفة ، ولكن مشكلة تحويل هذه المعرفة إلى فعل»[١٠] .

إن القرآن يتضمن أخباراً عديدة عن شعوب لم تستمع إلى صوت الحق ولم تستجب لرسلها ، بل ضربت بتحذيراتهم عرض الحائط حتى غربت حضاراتهم تمامًا . والغرب ينتظر مثل هذا المصير . فبعد انتصاره على الشيوعية يتهدده تدمير الذات ومصير الفناء ، إلا إذا تجاوز تأليه الإنسان ، ووجد طريقه مرة ثانية عائداً إلى التمسك بالقيم الإلهية .

ويشير الإسلام إلى هذا الطريق .

* * *

---

(١٠) هيرتزوج Herzog خطبة برلين . العالم يوم الأحد ٢٧/ ٤/ ١٩٩٧ ص١١ .

إسلام صنع فى أمريكا

شعار ١ : إننا نخاطر بمستقبلنا ومستقبل أولادنا .
(L. Kolbe، أطلنطا جريدة : - USA Today تاريخ ٥/ ١٠/ ١٩٩٨).

شعار ٢ : إننى أعتقد أن أوضح صور الدين عند الناس اليوم هى الإسلام :
(- NZZ F. Diernnatt تاريخ ٦/ ٤/ ١٩٩٠).

تبدو المقولة القادمة غير متوقعة، ولكنها بلا شك منطقية، ألا وهى : إذا كان مقدراً للإسلام أن يحقق فى المستقبل المرئى نجاحاً فى الغرب، فإنه سيحققه فى الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك أسباب كثيرة تؤيد هذا الرأى، بينما لا ينفيه إلا القليل جداً من المعطيات.

أهم الأسباب التى تؤيد هذه المقولة، هو فى المقام الأول التعدد والتنوع الدينى الهائل فى الولايات المتحدة الأمريكية . فلا يوجد بلد فى العالم - اللهم إلا البلاد المنخفضة (هولندا) - يتيح لمختلف الديانات والطوائف والفرق المختلفة حرية الحركة والعيش والشعور بالراحة، كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية . ولا يعود السبب فى هذا إلى فتور دينى عند الأمريكيين، بل على النقيض، فالانتماء إلى كنيسة لا يعد - كما يعد فى بلدان الغرب - أحد مظاهر الفكر المحدود، بل هو أمر محمود.

ولكن السبب الحقيقى فى رأيى أن الولايات المتحدة منذ نشأتها، تمثل الملاذ وبلد المهجر لأناس فروا من بلادهم بسبب الاضطهاد الدينى (بين الطوائف البروتستانتية والكاثوليك).

ومن هذا المنطلق، خبر الجميع من البداية، أن حالة التعايش السلمى الداخلى لن تتأتى إلا بالحرية الدينية المكفولة لكل فرد. فالتعدد والتنوع الدينى فى أمريكا يستند إلى العقل، لا إلى اللامبالاة أو اللاإرادية.

ولكن يمكن القول إن أمريكا لم تولد كبلد يقبل التنوع والتعدد بسهولة، بل استطاع أن يكتسب هذه الصفة وهذا التسامح بصعوبة.

فما كادت سفينة ماى فلاور تصل فى يوم ١١ نوفمبر عام ١٦٢٠ إلى الشاطئ، ليؤسس ويليام برادفورد (١٥٩٠ - ١٦٥٧) مستوطنة پلايموث، حتى نشب نزاع حول أمور دينية مع المستوطنة الثانية فى خليج ماساشوستس. ومن الغريب أن يندلع هذا الخلاف فى أوساط الپيوريتانيين الذين فروا من أوروپا بفعل الاضطهاد الدينى. !

وتشير رواية «The Scarlet Letter» لكاتبها ناثانيال هوثورن إلى الأوضاع التى سادت أمريكا، والتى أقل ما توصف به أنها قاسية، حتى أن روجرز ويليامز (١٦٠٣ - ١٦٨٣) اضطر بسبب معتقداته الدينية المتسامحة، أن يفر للمرة الثانية ليصبح مؤسس رود آيلاند وعاصمتها پروفيدنس.

كذلك لم يستطع المستوطنون الأمريكيون الأوائل التغلب على حمى مطاردة الساحرات! . كما هو موثق فى:

(Memorable Providence Relating to Witchrafts & Possessions -1689).

لقد شهدت أمريكا فى القرن السابع عشر ظاهرة حرق الساحرات فى سالم(*) وماساشوستس، بينما تظهر مطاردات مثيلة - على طريقة السناتور چوزيف ماكارثى (١٩٠٩ - ١٩٥٧) - من حين إلى آخر على السطح.

ولقد استشعرت مدى تقبل الولايات المتحدة للتنوع وتمتعها بالاختلافات مقارنة بأوروپا، فى زيارة قمت بها عام ١٩٩٦ للپنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية). فلقد كنت أناقش مع رئيس لجنة الشئون المعنوية للجيش إشراك رجال دين مسلمين

(*) تم حرق أكثر من ٢٠ ساحراً وساحرة، وسجن أكثر من مائة فى أواخر القرن السابع عشر فى مدينة سالم.

فى أفرع القوات المختلفة، كالمشاة والجوية والبحرية• ولقد سبقت الموافقة على تعـيين ٤ منهم بالرغم من وجـود ٠,٤ ٪ فـقط من الجنود المسلمين و٠,١ ٪ من الضباط المسلمين فى القوات المسلحة الأمريكية (هناك بالمناسبة ٠,٥ ٪ و٠,٦ ٪ فقط من اليهود).

لقد تسلم أول إمام فى القوات المسلحة الأمريكية « عبد الراشد محمد » عمله فى الجيش الأمريكى عام ١٩٩٣م، وانضم إلى الفرقة ١٨ فى فورت براج. وقد تولى مالك بن نوبل عام ١٩٩٨م عمله كأول إمام للبحرية• ومنذ ذلك الوقت، يوجد جامع فى قاعدة المارينز فى نورفولك بولاية ڤيرچينيا لخدمة ٧٢٥ بحار مسلم، كما يتم منحهم وقت لأداء صلاة الجمعة.

أما الأدميرال موشون ـ والذى يعتنق سكرتيره الإسلام ـ فمهتم للغاية أن يؤمن جنوده بشيء ما، ولكنه لا يهتم بما يؤمنون به!

ولقد كان اهتمامه منصباً على أشياء أخرى، مثل محتويات « مخلة » الإمام! فمخلة القسيس الكاثوليكى فيها صليب من الفضة، وكتاب العهد الجديد، مطرف، نبيذ وزيت. ولقد أخبرته أن المسلم لا يحتاج إلى تجهيزات خاصة، حيث أنه يحفظ القرآن كما يمكنه الصلاة فى أى مكان تتوافر فيه شروط الطهارة• ولكن هذه الإجابة لم تنل رضا الأدميرال، حيث يرى ضرورة اتباع التعليمات، فالتعليمات هى التعليمات، ويجب على رجل الدين فى الجيش أن يحمل « مخلة » حربية. ولم يبد محدثى ارتياحاً إلا عندما أخبرته أن بإمكانه تجهيز « مخلة » المسلم بالقرآن الكريم وكتاب جامع للأحاديث وسجادة صلاة وماء زمزم.

كما أكد الأدميرال ضرورة معرفة هؤلاء بما يجب على المسلم أن يرتديه وما هو محرم عليه أكله. (لقد طبع لواؤه كتيب يضم كافة المعلومات عن ٢٦١ دين ممثل فى صفوف قوات الجيش) **وبما أنه مذكور أن على المسلمة ارتداء غطاء للرأس، فيحق بالتالى للمجندات الأمريكيات المسلمات ارتداء غطاء للرأس أثناء تأديتهن للخدمة.**

هناك بجانب هذه التعددية عامل آخر يُعزز من فرص الإسلام فى أمريكا. فالإسلام لا يمثل فى العقل الجمعى أى خطر أو تهديد. فبعد طرد الإنجليز، اهتم الأمريكيون ـ على وجه الخصوص ـ بما يجرى فى كل من أمريكا الوسطى والجنوبية،

وخير دليل على ذلك مبدأ مونرو وأزمة كوبا عام ١٩٦٢ . لقد علم الأمريكيون منذ الحرب العالمية الأولى خطورة التورط فى مشاحنات وصراعات أوروبا، كما نما فى وعيهم، بل رسخ فيه، الخطر « الأصفر » وذلك منذ بيرل هاربور فى الحرب العالمية الثانية، أما الإسلام فلم يلفت انتباه المواطن الأمريكى المتوسط غير اليهودى، إلا منذ الهجوم على مركز التجارة العالمى.

أما العامل الثالث الذى يظهر فى صالح الإسلام، فهو عدم ظهور المسلمين كجماعة إثنية عرقية واحدة، فهم ينتمون إلى كافة بلدان العالم وكافة الأعراق المختلفة، وهذا لا يعنى بطبيعة الحال أن لا تجد مساجد ذات صبغة هندية وباكستانية وأخرى عربية وثالثة أفروأمريكانية، ولكن يبقى فى نهاية الأمر حقيقة أن المشهد الإسلامى فى أمريكا متعدد الأعراق. الاستثناء الوحيد تلقاه فى مدينة ديربورن بالقرب من ديترويت، حيث لا تكاد تلقى سوى شيعة لبنانيين، كما تمثل الدوائر الصوفية استثناءً آخر، فمعظم المتصوفة الأمريكيين من ذوى البشرة البيضاء، يفضلون الانغلاق على أنفسهم وعدم الاختلاط بغيرهم !

إذا كانت هناك مجموعة متماسكة ومترابطة من المسلمين، فهم الأفروأمريكيين. ولكن هؤلاء ليسوا مهاجرين يمكن ترحيلهم إلى بلادهم. ويعتقد الكثير من المسلمين السود أن أسلافهم الذين وقعوا فى رق العبودية كانوا مسلمين، كما أنهم على يقين أن أسلافهم حملوا على سفن يملكها يهود إلى أمريكا، حيث أصبحوا: «بضاعة» لتجار رقيق مسيحيين. وهناك قوائم تحمل أسماء سفن العبيد ومالكيها اليهود تتداولها أوساط السود. ويحمل اعتناق الأمريكيين السود للإسلام اليوم احتجاجاً ثقافياً سياسياً وحنين إلى الماضى.

كانت هناك حتى وقت قريب ظاهرة سلبية تتمثل فى تعرف المسلمين السود على الإسلام واعتناقهم إياه، عن طريق جماعة «أمة الإسلام» وزعيمها إليجا (Elijah) محمد، والذى ينسب لنفسه النبوة، كما يدعو لإسلام معادى للبيض واليهود، أى لإسلام عنصرى. فهناك مسلمون ذوو أهمية - مثل مالكولم إكس، فيما بعد مالك الشباظ (١٩٢٥ - ١٩٦٥) كاسيوس كلاى، فيما بعد محمد على - تعرفوا أول الأمر على الإسلام عن طريق هذا الزعيم.

ولقد اتسمت الخطوة التى اتخذها ابن إليجا وريث الدين محمد، بأهمية ثقافية سياسية بالغة • فلقد استطاع بعد وفاة والده أن يدفع الجزء الأكبر من (أمة الإسلام- Nation of Islam) إلى نبذ كافة أشكال العنصرية، وأن يبتعدوا عن المركزية وأن ينضموا إلى الأمة الإسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

كما تيقن مالكولم إكس فى مكة أثناء حجه، أن الرجل الأبيض الذى يؤمن بوجود الله الواحد الأحد، يؤمن كذلك بوحدة الإنسانية، وأن حاجة أمريكا إلى الإسلام تتمثل فى أنه وحده قادر على تخليص المجتمع من عنصريته.

ومنذ ذلك الوقت، أصبحت لا تجد من يدعو إلى إسلام عنصرى ومغاير للإجماع، سوى الزعيم الجديد لجماعة «أمة الإسلام» لويس فرخان ولكنه على ما يبدو مستعد لانضمام أتباعه إلى الجماعة السنية للمسلمين الأمريكيين من أصول إفريقية، ولقد ظهر استعداده هذا بوضوح بعد لقائه التاريخى بوريث الدين محمد فى ربيع عام ٢٠٠٠م.

أما العامل الرابع المميز للإسلام ولفرص انتشاره فى أمريكا، فهو أن غالبية المهاجرين المسلمين أتوا- ويأتون إلى يومنا هذا- كطلبة علم إلى الولايات المتحدة، وبالتالى فإن الجزء الأعظم من أمة المسلمين فى أمريكا يتألف من مسلمين على درجة عالية من التعليم والثقافة.

وأن تكون مسلماً فى أمريكا يعنى أن تكون أكاديمياً. وتدفع هذه الحقيقة عن الإسلام شبهة أن يكون دين أميين وجهلة. بل على النقيض، هذه الحقيقة تمنح الإسلام وضعاً اجتماعياً متميزا وموقفاً مالياً قوياً. **فعندما يجتمع المسلمون على عشاء بهدف جمع تبرعات، سرعان ما يجتمع مبلغ الـ١٠٠ ألف دولار وذلك من عدد محدود جداً من الحضور. ولقد رأيت بنفسى تبرعات تصل إلى ربع مليون دولار.** ومن أمثال الأكاديميين المسلمين، أحب أن أذكر د. نظير خايا من أصل هندى، وهو طبيب متخصص فى الكلى خريج جامعة هارفارد، ويشغل منصب مدير مركز المعلومات الإسلامى IIS (Islamic Information Service) فى لوس أنجلوس. أما رئيس منظمة الحقوق المدنية للمسلمين الأمريكيين (Council of American Islamic Relations) CAIR عمر أحمد الفلسطينى الأصل، فهو

متخصص فى اختبارات مكونات الكمپيوتر الدقيقة. وفى سانتا كلارا، فى قلب وادى السيليكون، تجد ما لا يقل عن ٧٠٠ خبير كمپيوتر مسلم. ولقد شارك الكثيرون منهم فى تطوير .(PentiumIII)

يمارس بعض المسلمين بكثير من النجاح أعمالهم الخاصة، ويديرون شركات متخصصة فى مجال الـ(Software). وتستفيد هذه الشركات من موهبة الهنود المميزة فى مجال الرياضيات.

وهناك حقيقية أخرى تميز وضع المسلمين فى الولايات المتحدة عن غيرهم من مسلمى أوروپا مثل ألمانيا، وهو تمتعهم بحق المواطنة، فغالبية مسلمى أمريكا يحملون الجنسية الأمريكية، ولقد ساعد هذا على اندماجهم فى مجتمعهم الجديد، بل إنهم يحاولون غرس جذورهم فى هذا الوطن الجديد، كما ساعد على تحقيق هذا بعد المسافة عن الوطن الأم جغرافيّاً. فالزيارات المتعددة خاصة فى وجود عدد هائل من الأولاد إلى الهند أو سوريا يكون مكلفًا للغاية، ولذلك تتباعد الزيارات.

تنشط غالبية المسلمين فى المشاركة فى الحياة السياسية فى أمريكا، محتذين بمثال الأقلية اليهودية. ولا يخرج عن هذا الخط إلا جماعات صغيرة مثل حزب التحرير.

يمثل (مجلس المسلمين الأمريكيين - American Muslim Council) مسلمى أمريكا على المستويات العليا عند الحكومة الاتحادية، ويرأس هذا المجلس د. عبدالرحمن المودى وهو من أصل مصرى. ويهتم بشكل ملحوظ بألا تخلو الساحة أمام البيت الأبيض من دليل وجود إسلامى، فتتواجد بجوار الرموز اليهودية والمسيحية رموز إسلامية، وإن كلفه الأمر أن يقوم بنفسه بتنفيذ ذلك.

وهناك منظمة أخرى هى American Muslim Associatian AMA تولى هذه المنظمة الانتخابات اهتمامًا خاصًا، فتبحث موقف المرشحين فى كل دائرة انتخابية من هموم المسلمين والمسائل الإسلامية، فالمسلمون لا يوصون بحزب بعينه، ولا تصدر توصية لصالح مرشح على وجه الشمول، أى لا يصوتون للمرشح الديمقراطى أو الجمهورى، بل يحددون موقفهم فى كل دائرة على حدة. ولقد حققت المنظمة فى الانتخابات الماضية نجاحًا هائلا، حيث تمكنت من دفع مليون

مسلم للإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات الرئاسية، بعد أن كان الكثير منهم يبتعدون تمامًا عن مسألة الانتخابات هذه.

أما منظمة CAIR والتى تنهج نهج المنظمات اليهودية، فتتسم بالنشاط الملحوظ، سواء كان هذا فى مجال الإعلام أو فى حماية شخصيات مسلمة من الاضطهاد، خاصة وأن المنظمة تستعين بخبير إعلامى مثل إبراهيم كوپر (Cooper). يقوم أحد العاملين بالمنظمة كل يوم من خلال الـ Enternet بالتحقق من عدم وجود حوادث أو مواقف معادية للإسلام، وإذا ما وجد مثل هذا الموقف، يتم تعبئة الرأى العام من خلال الإعلام، فينهال ما يزيد عن ٢٥ ألف احتجاج من المسلمين العاملين فى كافة المجالات، كالإعلام والاقتصاد والإدارة. فصاحب العمل - على سبيل المثال - الذى يفصل عاملة بسبب ارتدائها للحجاب، سيجد على بابه جمهور من المسلمين يحملون اللافتات معترضين على قراره هذا!

لقد قامت CAIR فى بدايات عام ١٩٩٩ بمقاضاة إدارة مطار Dulles فى واشنطن D.C. لأنها قامت بطرد ٧ من الموظفات بسبب ارتدائهن الحجاب، وقد نجحت المنظمة فى مسعاها هذا، حتى أن الموظفات رجعن إلى أعمالهن مع دفع رواتبهن بأثر رجعى، وتعويض قدره ٢٥٠٠ دولار، بالإضافة لاعتذار مكتوب، وموافقة على طلب إعطاء العاملين بالمطار دورات تنمى الحساسية الدينية، أى مراعاة الشعور الدينى لدى الآخرين .(Religious Sensitivity Training)

ولقد كانت هذه الواقعة عمل روتينى بالنسبة لـ CAIR وليس حادثة فريدة. فلقد استطاعت المنظمة من قبل أن تُخضع معارضين أقوى من خلال تلويحهم وتهديدهم بالمقاطعة مثل Master Card بسبب إعلان خادش للحياء فى أحد المساجد. وكذلك شركة NIKE بسبب نعل حذاء إذا ما قرىء عربيًا كان يحمل اسم الله. وكذلك Simon & Schuster بسبب فصل يتضمنه أحد كتب الأطفال يحوى إهانات للإسلام.

وتقوم منظمة CAIR بنشر تقرير عملى مفصل عن وضع الحقوق المدنية للمسلمين فى الولايات المتحدة. وذلك بشكل علنى، حيث يتم ذلك فى مؤتمر سنوى. ويقوم هذا التقرير بوظيفة قياس الوضع وتحديد الوقائع المعادية للإسلام

بشكل إحصائى وتحليلى• ومن الأحداث المثيرة، اللقاء السنوى للمسلمين الأمريكيين والذى يدعو له المتحمس د/ سعيد محمد سعيد من كشمير، فعندما تدعو الجمعية التى يرأسها (المنظمة الإسلامية لأمريكا الشمالية ـ Islamic Society Of North America) (ISNA) إلى مؤتمر، يتجمع حوالى ١٢ ـ ١٧ ألف مسلم من كافة أنحاء أمريكا، غالبيتهم من الشباب (وغالبية الشباب هذه من النساء) ـ لقاءات عقدت: ١٩٩٦ كولومبوس بولاية أوهايو، ١٩٩٧ شيكاغو، ١٩٩٨ سان لويس بولاية ميسورى.

يصاحب هذه التجمعات واللقاءات إقامة سوق تجارى فى إحدى المدن الكبرى، ويضم كل ما يشتهيه المسلم من ملابس وحلى ومستحضرات تجميل شرقية وبرامج كمپيوتر إسلامية، وكذلك تلاوات للقرآن على شرائط كاسيت وأسطوانات للكمپيوتر، كذلك كتب وسبح، وسجاجيد صلاة ومشهيات شرقية، وهذا من ضمن ما ينتجه بلد الإمكانيات غير المحدودة أمريكا.

وتنتهز بعض المنظمات الإسلامية ـ مثل اتحاد الأطباء والمحامين والمهندسين وعلماء النفس والمعلمين والطلبة ـ فرصة انعقاد هذه المؤتمرات، للدعوة لانعقاد مؤتمراتهم السنوية. وفى مثل هذه التجمعات، يلحظ المرء الجو الأكاديمى الخالص والتوجه الأكاديمى الذى تتصف به الأمة الإسلامية فى أمريكا.

يتسم المسلمون فى أمريكا بصفات أمريكية، مثل الديناميكية ودرجة تنظيمهم العالى، وفضائل المجتمع المدنى، وإحساسهم المهنى العالى.

وسيزداد كل هذا إذا ما انضم إليهم من الصحفيين والمحامين المتحمسين للعمل من أجل الإسلام من خلال سياسة المنح والرغبة فى زيادتها والتى تتبناها CAIR.

تصدر فى أمريكا أهم المجلات الإسلامية فى العلوم الاجتماعية، وهى مجلة American Journal of Islamic Social Studies (AJISS)

كما ستجد أول كلية معترف بها فى الغرب للدراسات الإسلامية وهي: School of Islamic and Social Studies (SISS) فى Leesbing بولاية ڤيرچينيا حيث يقوم بالتدريس فيها كل من د. طه جابر العلوانى (أمريكى من أصل عراقى) و د. منى

أبو الفضل و د. إقبال يونس، وأستاذ اللغة العربية الأمريكي يوسف طلال دولورنزو. بالإضافة إلى ذلك هناك العديد من دور النشر الإسلامية.
Amana, Razi, American Educational Trust, Threshold Books

والمجلات والمعاهد البحثية مثل معهد الدراسات الإسلامية والعربية فى أمريكا:
Institute of Islamic and Arabic Sciences in America (IIASA) القائم فى Faiv-fax بولاية ڤيرچينيا.

وهناك شبكة تضم حوالى ٤٠٠ مدرسة إسلامية خاصة، يقوم مجلس المدارس الإسلامية فى أمريكا الشمالية بالتنسيق فيما بينها:
Council of Islamic Schools in North America (CISNA).

ومما يدعو للفخر، أن يكون الأستاذ خالد يحيى بلانكنشب وهو مسلم، أستاذ كرسى لمادة التاريخ بجامعة Temple فى فيلادلفيا.

لا توجد فى أمريكا قناة تليفزيونية إسلامية ولا محطة إذاعية كاملة. ولكن يمهد الـ Videos IIS للمحطات التليفزيونية الخاصة، كما تقوم منظمة الإذاعة الكندية بتخصيص ساعات إرسال منتظمة للمسلمين، وكذلك الحال بالنسبة للعديد من المحطات الإذاعية.

يمكننا فى مجمل القول أن نتبين أن النشاطات الثقافية الإسلامية تتركز فى كل من نيويورك، شيكاغو، واشنطن، ولوس أنجيلوس. وتزداد أهمية الأخيرة هذه لوجود د. فتحى عثمان بها وممارسته لنشاطه الملحوظ فيها.

ومن المتوقع بطبيعة الحال وجود الكثير من المساجد فى البلاد، وقد بلغ عددهم عام ١٩٨٨م «٣٥٩٦» مسجداً منهم «٦٠» بلوس أنجيلوس و«١٢» فى كليفلاند، ولكن مما يثير الدهشة أن تجد فى صحراء أريزونا فى فونيكس، نموذج مصغر لقبة الصخرة بالقدس، والتى يرتادها الهنود- الذين أسلموا- كجامع ومسجد لهم!

أما أقدم من أسلم من الأمريكيين البروفيسور تى بى إرفنج والذى أقام أول جامع سنى بالبلاد فى موطن رأسه Ceder Rapids بولاية Iowa وأول من قدم ترجمة أمريكية للقرآن، فما كان أن يجرؤ أن يحلم بأن يرى فى حياته هذا الكم

من البنيـة الأسـاسيـة للإسـلام فى الولايات المتـحـدة، حـتى أنه وصل إلى كليـة الحقوق بجامعة هارڤادر نفسها. هل كان ليحلم بـ ٦ أو ٧ مليون من الإخوة فى الإسلام؟

* * *

نظراً لما يتمتع به مسلمو أمريكا الشمالية من كثافة المتعلمين المثقفين وتوفر مقومات البحث المثالية هناك، خاصة عدم وجود رقابة، فإن العالم الإسلامى يرنو بآمال عريضة إلى إخوته وأخواته فى أمريكا.

فهل من الممكن أن يستمد الإسلام بواعث نهضته اللازمة فى الألفية الثالثة من أمريكا؟

ومن الضرورى أن نشير إلى أن مسلمى أمريكا يواجهون الكثير من الصعاب، فهم لا يجدون أنهاراً من اللبن والعسل فى أمريكا، بل يواجهون موقفا صعبًا شرسًا نظراً لوجود آلة الإعلام الصهيونية والنفوذ الصهيونى المتغلغل فى كافة المجالات والمنظمات، وهناك الكثيرون بينهم يعتقدون أنهم يفيدون إسرائيل عندما يشوهون صورة الإسلام. وبالنسبة لهذه النقطة على وجه التحديد، فإن وضع المسلمين فى أوروپا أفضل بكثير من مسلمى أمريكا.

وللأسف، فقد تدهور الأمر فى الآونة الأخيرة بالنسبة للمسلمين. ومن المؤشرات الدالة على ذلك رد الفعل الفورى الذى عم أمريكا عندما وقع الانفجار فى أوكلاهاما سيتى يوم ١٩/ ٤/ ١٩٩٥، فلقد تم إلصاق الفعل بالمسلمين دون وجود دليل على ذلك، حتى أنه تم إلقاء القبض على مسافر عربى ملتحى لا لشيء إلا لأنه قام بحجز رحلة طيران إلى إنجلترا. ولقد وقعت فى الأيام التالية حوالى ٢٠١ حادثة اعتداء وهجوم على منشآت إسلامية وأفراد مسلمين، ومن ضمن الاعتداءات: اعتداء بالأسلحة الخفيفة والضرب المبرح وكسر النوافذ الزجاجية، وتهديد بالموت وإلقاء القنابل عبر التليفون. لقد وجد أطفال مسلمون أنفسهم فجأة منبوذين لا يكلمهم أصدقاؤهم فى المدرسة (حتى بعد إلقاء القبض على الجناة الذين تبين أنهم ليسوا بمسلمين، فما زال المسلمون فى انتظار اعتذار لهم).

كما كان إلقاء القبض على « الفهد الأسود » السابق Rap Brown Black Panther (التى سميت الموسيقى الـ Rap على اسمه) بمثابة ناقوس خطر . لقد أسلم راپ وهو فى أحد سجون نيويورك، وتعلم العربية وأصبح إمامًا يحمل اسم جميل عبد الله الأمين، وهو اليوم يرأس جمعية مساجد أطلنطا بولاية چورچيا، ويعد من أكثر الشخصيات الإسلامية نفوذا فى أمريكا الشمالية• بالرغم من ذلك، وجه له المكتب الفيدرالى تهمة القتل، ولقد تلقى حكمًا بالبراءة عندما اعترف الشاهد الرئيسى فى قاعة المحاكمة أن البوليس أجبره على الإدلاء بالشهادة الزور، وأعلن اعتناقه الإسلام.

إن تأثير القوى الصهيونية على وسائل الإعلام والجامعات ودنيا المال والكونجرس ودوائر الحكومة قوى للغاية، ومسيطر بصورة محكمة حتى يبدو أن السياسة الأمريكية تجاه العالم الإسلامى لا تأخذ المصلحة القومية فى الاعتبار عند اتخاذها لقراراتها!

وليس من المستغرب أن يتهم البعض « القوى العظمى - أمريكا» - بخضوعها لتل أبيب ورغباتها، فى كافة قراراتها، ويؤيد ذلك تصريحات مثل تصريح آل جور نائب الرئيس الأمريكى والمرشح الجديد للرئاسة (إن التزامنا بحفظ أمن إسرائيل غير مشروط » (١٨/ ٥/ ١٩٩٨) هناك بعض الاتجاهات المعارضة لهذا تتمثل فى كتاب (إنهم يتجرأون على الكلام - Paul Findley - (They dare to speak out

وكذلك كتاب : أمة واحدة تحت سيطرة إسرائيل .

Androw Hurley - (One Nation Under Israel)

ومما يثير قلق واستياء الأمة الإسلامية الأمريكية، أن أنور خدام ممثل الجبهة الإسلامية الجزائرية، والذى مارس نشاطه لسنوات طويلة فى واشنطن، قد تم القاء القبض عليه وهو فى طريقه إلى السويد دون إدعاء رسمى، كما تم إدراج اسمه على قائمة شرطة الهجرة لخطورته على الأمن . ونظراً لما سبق، فلا يثير ظهور فيلم (الحصار - The Siege) أدنى دهشة، حيث تم تصوير المسلمين الأمريكيين كخطر إرهابى يهدد الولايات المتحدة• (يمكنك أن تحزر بالثلث أية جماعة دينية يدين لها صناع الفيلم بالولاء) .

ولكن الأهم من كل ذلك، أن بعض الكتاب المسلمين من أمثال Betty Bowman يسوقون اليوم حججاً جديدة، مثل رأيهم القائل بتطابق القيم الإسلامية مع قيم الثورة الأمريكية؛ ليتحرك المسلمون من منطلق وطني باستفادة أمريكا لقيمهم التي هي قيمها الأصلية، بل يتصاعد هذا الاتجاه من خلال كتاب - The Sun Rises in The West الشمس تشرق في الغرب - الصادر عام ١٩٩٩م، والذي يعطي مؤشراً أن ليس فقط تجديد الولايات المتحدة، بل تجديد الإسلام كله سينطلق من أمريكا!

* * *

ماذا سيحدث إذا أتوا فعلاً؟

شعار : «إن الاحتمال الثالث القائم هو أن يداهمنا الإسلام» .

(Fuldaer Bischof Dyba في حديث لمجلة دير شبيجل Der Spiegel بتاريخ ٢٢/١٢/١٩٩٧).

- ١ -

يتضح من الفصول الأخيرة أنه وفقًا لتقديرات البشر، فإن «اختراق» الإسلام للغرب وتحقيق انتصار فيه أمر غير متوقع في الوقت الحالي، حتى في أمريكا الشمالية . هذا النصر كما جاء في سورة النصر (١ - ٣) التي وردت في القرآن الكريم : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ . ولكن من المحتمل ألا يكون النصر صورة مستقبلية في عصرنا نحن . قد تكون نبوءة بما وقع فعلاً قبل وفاة الرسول، الدخول السلمي لمكة في ١١ من يناير عام ٦٣٠ والذي واكبه دخول أعداد غفيرة من الناس في دين الله، الإسلام . ويؤيد هذا التفسير رواية عن الرسول، مرة عن طريق جابر بن عبد الله، وأخرى عن طريق أبي هريرة : «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا»(*) . ولكن لندع أمر المستقبل للمستقبل .

أما ما يشغل بال الناس في الغرب اليوم، فهو ما سيحدث لهم وما سيصيب أسلوب حياتهم إذا ما أصبح المسلمون في الغرب أغلبية . إن هذه المخاوف وإن

(*) [ضعيف] أحمد ٣/ ٣٤٣، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» [١٧٩٦] .

بدت مبهمة، إلا أنها مخاوف حقيقية، يعمل على تجسيمها وزيادتها، بل المبالغة فيها كتابات لكتاب من أمثال Wiheim Dietl في كتابه (الحرب المقدسة في سبيل الله Heiliger Krieg fúr Allah) وكذلك Gerhard Konzelmann في (التحدى الإسلامى Die Islamische Herausforderung)، و Peter Scholl - Latour, Rolf Stolz (حكم الملا على ضفاف الراين، هل يأتى الإسلام) Mullahas am Rheir, Kommt der Islam?) و Bassam Tibi (كالنار والماء - Wie Feuer und Wasser)[1].

وسينهى هذا الكتاب فصوله بالتعليق على هذه المخاوف؛ لأنها ليست مسألة نظرية فقط، ولكنها مخاوف متعلقة بالمستقبل وذات تأثير على الحاضر. ولذلك فإننى أقوم هنا بالإشارة إلى الحماية التى يكفلها الإسلام للأقليات الدينية، وإثبات أن وضع الأقليات فى الإسلام، وما تتمتع به هذه الأقليات من حماية وحقوق، ليبين بالفعل أن الإسلام أكثر النظم التى عرفها العالم - إلى يومنا هذا - ليبرالية.

أود من خلال هذا العرض أن أوضح أن المسلمين فى الغرب يطالبون دول الغرب بالقليل جدا، مقارنا بما هم، أى المسلمين، على استعداد لمنحه للأقليات التى تعيش فى دول إسلامية.

- ٢ -

تعود ضرورة مناقشة تسامح الإسلام إزاء الديانات الأخرى إلى آيتين وردتا فى القرآن وأسىء تفسيرهما، وهما الآية «١٩» من سورة آل عمران والآية «٣٣» من سورة التوبة. فالآية الأولى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران: ١٩) كثيراً ما يتم ترجمتها بعبارة: «إن الدين عند الله هو دين الإسلام». وهذه الترجمة التى تساوى الإسلام بالشرع الإسلامى ترجمة غير دقيقة؛ لأن كلمة الإسلام التى وردت فى الآية إنما تعنى - كما كثر استخدامها فى القرآن فى مواضع شتى - معناها الأساسى والأصلى أى التسليم لله، هذا المعنى الذى فهمه الرسول وصحابته، وليس دين

(١) يرى طيبى فى Der Spiegel ‏/٣٧ ١٩٩٤ ص ١٧٠ فيما يكتبه تحت هذا العنوان أن الإسلام التقليدى لا يفسح مجالاً لحقوق الإنسان الفردية، حتى الحق فى تكوين وإبداء رأى حر ينكره الإسلام على الإنسان، وبالتالى لا تستقيم حرية الرأى مع الإسلام.
(فالشريعة تفصل المسلم عن جميع الحضارات التى تعترف بحقوق الإنسان) (ص١٧٢).

الإسلام[٢]. ولذلك لابد أن تفهم هذه الآية على محملها الصحيح ، أى أن الدين الحق عند الله هو التسليم له[٣]. فالإسلام بمعنى إسلام النفس لله والتسليم له.

ويمكننا أن نكرر نفس القول بالنسبة للآية «٨٥» من السورة نفسها (سورة آل عمران): ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾. وهنا يجب كذلك فهم الإسلام على أنه التسليم لله.

وهذا الأمر يسرى كذلك على ترجمة الآية «٣٣» فى سورة التوبة: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾. وهنا يسمح فعل «ظهر»، بمعناه فى اللغة العربية، بتفسير الآية بأن دين الحق سطع على الديانات الأخرى، كما يسطع نور أقوى على مصادر أخرى للنور، وليس انتصار دين وسحق أديان أخرى.

ولقد تعرضنا فى فصل سابق (لا تفرقة على أساس اللون) لما يتضمنه الإسلام من مبدإ أساسى للمساواة بين البشر، ولرفضه التفرقة بجميع صورها. ونحن هنا ننتقل من نفى عدم تسامح الإسلام مع الديانات الأخرى، إلى إثبات أن الإسلام يتسامح مع الأديان كافة من خلال موقف مبدئى واضح. وإننى أستشهد هنا بالآية «٤٨» من سورة المائدة: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾. ولكن هناك عدة مواقع قرآنية أخرى تنادى بمثل هذا الموقف، مثل: الآية «١٣» من سورة الحجرات: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾، وكذلك الآية «٢٥٦» من سورة البقرة: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾، والآية «٦» من سورة الكافرون:

---

(٢) مثلاً ترجمة القرآن لمحمد حميد الله (Brattleboro, 1989) وكذلك Denise Masson (Paris, 1967) T. B Irving (Brattleboro 1985).

Rashif Said Kassab (Amman, 1987) Marmaduke Pickthall (London, 1930)

كذلك الترجمات السعودية الرسمية إلى اللغة الإنجليزية (المدينة ١٩٩٢).

(٣) هناك أقوال يعنى فيها «الإسلام» الدين الإسلامى فعلاً كما هو فى الآية (٣) من سورة المائدة.

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ . والآية «٢٩» من سورة الكهف : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ . والآيات «٦٧ ـ ٦٩» من سورة الحج : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ . وآيات سورة المائدة «٤٣ ـ ٤٨» : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

لابد أن هذه الآيات تكفى دليلاً على أن الإسلام يرى :

١ ـ التنوع الدينى والعرقى طبيعة أرادها الله وأقرها .

٢ ـ الإيمان مسألة لا تخضع لأى ضغوط أو إكراه .

٣ ـ النزاعات والخلافات الدوجماتية غير مثمرة .

لابد أن هذا الموقف جدير بالإعجاب إذا كان يهدف إلى التعايش السلمى

فحسب، ولكنه يتجاوز هذا لأن الإسلام مهتم بالوحدة والتنوع كمبدأين فى حد ذاتهما.

يرى الإسلام أن وحدة البشر ترتكز على دعامتين، أولى هذه الدعائم هى الوحدة الأنتولوچية للبشر، أى وحدة الوجود والوحدة التى تجمع المخلوقات كافة وما خلقت من أجله، وهى عبادة الله. فقد ورد فى القرآن فى الآية «٤١» من سورة النور: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾.

أما فى سورة النحل فقد ورد فى الآيتين «٤٨ و ٤٩»: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

- وورد كذلك فى الآية «١٨» من سورة الحج: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ... ﴾.

ووفقًا لهذه الوحدة الكونية لكل الموجودات والمخلوقات، فلا توجد فوارق إذًا بين السنى والشيعى، بين الكاثوليكى والپروتستانتى، بين المسيحى واليهودى، بين البوذى والهندوسى. فهم جميعًا شركاء فى الفطرة البشرية. ويؤكد الله هذا فى سورة الأنبياء الآية «٩٢»: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ والمقصود: بالأمة هنا هى أمة البشر كافة أى البشرية جمعاء.

أما الركيزة الثانية لأساس الوحدة، فهى الرابطة الإبراهيمية التى تجمع الموحدين كافة كما تعبر الآية «١٣» من سورة الشورى بوضوح عن هذا المعنى. ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ... ﴾. وهذا الدور الموكول لإبراهيم غاية فى الأهمية، ولإبراهيم مكانته حتى إن السورة «١٤» فى القرآن مسماة باسمه.

يسيء المسيحيون كثيرا فهمَ وحدة المخلوقات وما يعنيه الإسلام بها، كما يرتابون كثيرا فى الرابطة الإبراهيمية ويشكون فى أنها فخ منصوب لهم. ولكن الإسلام لا يبغي ضم أحد إليه كارها. فالوحدة بين المتنوعين ممكنة. وهذه الرابطة الإبراهيمية تشكل القاعدة الطبيعية لأى حوار إسلامي - مسيحى، ولأى حوار ثلاثي الأطراف، أى حوار يهودي - مسيحي - إسلامى. وإذا ما اختار كل منا أن يدخل فى مثل هذه الحوارات الجماعية التى تضم البشرية من منطلق هذا الفهم وبهذه الروح لأمكن لكل من مر من قبل Paul Schwarzenau و John Hick و Hans Küng أن يخلدوا أخيرا للراحة.

لا يعتقد الإسلام أن مثل هذا الحوار الثلاثي الأطراف يهدف فى نهاية الأمر إلى خلق نسبية لا أدرية، فهناك أمور غير قابلة للنقاش أو التفاوض بشأنها والتفريط فيها، وهي: أن الطريق إلى الله كما جاء به محمد سيظل منسوبًا إلى محمد، وأن التوحيد حقيقة لا مساس بها، وأن الإيمان بالله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد مسألة غير قابلة للمساس بها، أو التفريط فيها أو التفاوض بشأنها؛ فكما قيل سابقًا إن الذهب النقي - ذا الـ ٢٤ قيراطا - لا يمكن تحسينه أو تنقيته.

-٣-

لقد استطاعت علوم القانون الإسلامية إعداد قوانين لحماية الأقليات الدينية على أساس هذه القاعدة الدينية المتينة التى سبق شرحها، وذلك منذ زمن بعيد. فقد أقرت هذه العلوم قواعد قانونية وسير تبدو بعد ١٤٠٠ عام من وضعها حديثة جدا[٤]!

لقد اتسم العرف العربى بكرم ضيافة شديد. فكان يسمح لكل فرد من أفراد القبيلة حتى النساء منها باستضافة الضيوف من الأغراب ومنحهم الأمان المعروف[٥]. ومن هذا العرف تطورت علاقة الحماية القائمة بين الدولة الإسلامية

---

(٤) سِيَر تعنى هنا سلوكا فيما يخص حقوق الشعوب أو الحق الخاص الدولي.

(٥) انظر Doi ص ٤٢٦ - ٤٣٧ وkruse ص ٧٤ - ص ١٥٤.

ومن لهم حق الحماية من غير المسلمين ، أى من أهل الذمة ، الذين يذكرهم القرآن فيسميهم أهل كتاب[٦] .

وبفضل هذا الوضع تمتعت الأقليات الدينية بحكم ذاتى فى المسائل الدينية التى يدخل فى نطاقها مجالات الأسرة والميراث والحدود . ولذلك تمتع هؤلاء الذميون بنوع من الحكم الذاتى ، وإن تمتعوا بالحماية التى تكفلها الدولة . ولقد استطاع المسيحيون فى ظل هذا القانون أن يقوموا بتربية الخنازير وأن يتاجروا فى الخمور . واستطاع اليهود أن يقوموا بالتعامل بالربا فى المسائل المالية[٧] . وفى الوقت نفسه تمتع أهل الذمة بالحماية التى تكفلها الدولة للنفس وللجسد وللحياة وللملكية وحماية الأداء العلنى للعبادات وممارسة الشعائر الدينية ، وتمتعت فى ظل هذا القانون الكنائس والمعابد بنفس الحماية التى تكفلها الدولة للمساجد ، بلا أى تفرقة ، كما وعد محمد - صلى الله عليه وسلم - عام ٦٣١ جماعة من مسيحيى نجران عندما بعث إليهم بواحد من خيرة رجاله - هو أبو عبيدة -[٨] .

فجريمة قتل مسيحى تعادل جريمة قتل مسلم[٩] . ورُوى أن محمدا قد قال : «من آذى ذميا فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله» [*] .

لقد اختلفت معاملة الذميين عن المسلمين فى ثلاث نقاط فقط ، هى :

١ - لم يكن عليهم واجب الانضمام للقوات[١٠] المحاربة[**] (الخدمة العسكرية حديثًا) .

---

(٦) انظر رمضان ص ١٠٦ - ١٥٥ .

(٧) انظر الترابى (١٩٩٢) ص ٣٣ - ٣٥ .

(٨) انظر سالم ص ١٥٣ فيما يخص الاتفاق مع مسيحيى نجران ، فإنه ينقل هذا عن كتاب الخراج لأبى يوسف ، القاهرة ١٩٣٣ ص ٧٢ ، ٧٣ .

انظر كذلك سنن أبى داود حديث رقم ٣٠٣٥ . وأبو عبيدة أحد المبشرين بالجنة .

(٩) البخارى جزء ٩ رقم ٤٩/ أبو داود سنن رقم ٢٦٣٥/ المصرى ٥٢٠١ (٣٨٢) .

(*) [موضوع] الخطيب فى «تاريخ بغداد» ٨/ ٣٧٠ ، وأورده القارى فى «الأسرار المرفوعة» رقم [٤٨٢] .

(١٠) لم يحرم هذا الذميين من أشياء مادية أو غيرها لصالح مجهوداتهم الخاصة للدفاع عن أنفسهم .

(**) ليس عليهم واجب الانضمام للقوات المحاربة ، ولكن يمكنهم ذلك ، إذا أرادوا .

٢ ـ في مقابل هذا كانوا يدفعون الجزية، وهى ضريبة (تحتسب على الفرد). لم تكن بالضرورة تزيد عما يدفعه المسلم من ضريبة فى صورة زكاة[١١].

ولقد كانت الدولة الإسلامية ترد هذه الجزية إلى أهل الذمة فى حالة ضعف الدولة وحين لا تتمكن من أداء واجبها فى حماية هؤلاء ورد المعتدى عن البلاد، كما حدث فى عصر الخليفة الثانى عمر، عندما أعلن أبو عبيدة شكه فى قدرته على ردع العدو البيزنطى ورده عن البلاد وبالتالى حماية أهل الذمة، فرد إليهم الجزية.

٣ـ كان ولا يزال أمراً طيبًا أن يشارك أهل الذمة فى الإدارة العامة للدولة وفى اتخاذ القرارات، كما حدث عندما تكون فى المدينة عام ٦٢٢ نواة لدولة إسلامية تضم نسبة كبيرة من اليهود[١٢]. ولكن يظل منصب رئيس الدولة حكراً على المسلمين. بيد أن هناك عددا كبيرا من وزراء الحكم من غير المسلمين على مر التاريخ الإسلامى حتى يومنا هذا، فيتقلد المسيحيون واليهود مناصب الوزراء فى مصر والمغرب والعراق.

لقد اتسم قانون الأقليات هنا وتنفيذه بكرم بالغ، حتى إنه ألحق ضرراً بالأغلبية الإسلامية فى القرن ١٩. فلقد مهدت الإمبراطورية العثمانية لانهيارها وأفولها عندما تمسكت بحق الأقليات فى البلقان بالتمتع بجميع الحقوق التى يكفلها لها الإسلام، ومنحتها حمايتها، مما أتاح لهذه الأقليات اليونانية والصربية والبلغارية الفرصة لتكوين إحساسهم بقوميتهم الخاصة.

وبالرغم من كل ما سبق، يخشى البعض فى ألمانيا أن لا يسرى قانون حماية الأقليات الإسلامى ـ فى الدول الإسلامية ـ على جماعات بعينها، مثل الملحدين واللاأدريين، لأن هؤلاء ليسوا أهل كتاب كما ورد فى القرآن. وبالفعل فلقد كان تعبير أهل الكتاب يُفهم دائمًا على أنهم اليهود والمسيحيون فقط، ولكن اتسع

---

(١١) بلغت الجزية على الفقير من أهل الكتاب فى العصور الوسطى ما بين ١٢ درهمًا ودينار للفرد الواحد. شرح النووى على صحيح مسلم [٣٩/ ١٢] طبعة دار الريان.

(١٢) لقد شاركت القبائل اليهودية فى تأسيس الكيان الفيدرالى بنفس قدرة مشاركة المسلمين، فنواة الدولة الإسلامة الأولى لم تكن إسلامية خالصة.

المفهوم ليشمل أصحاب ديانات أخرى مثل الزرادشتية (فارس)، حتى إن هذا المفهوم أصبح يشمل كذلك الهندوس[١٣].

ولذلك نستطيع أن نقول إن حدود تعبير أهل الكتاب ليست مفصلة بدقة. ولذلك يعتقد أحمد البرعى عام ١٩٩٥ بصحة اقتراحه القائل: «إن أهل الكتاب هم كل الناس ممن لهم نص دينى أو كتاب دينى أو نصوص يمكن أن تأخذ يومًا ما شكل كتاب بشرط ألا يكونوا مشركين»[١٤].

ولكننى أعتقد أن هذا الرأى الأخير غفل عن الآية «٦» من سورة التوبة: والذى يقدم الحل لهذه المشكلة من وجهة نظرى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾. وأعتقد أنه من المؤكد إسلاميا أن الملحدين من هؤلاء المشركين هم الذين تحدثت عنهم الآية. ونستنتج من هذا أن الملحدين يتمتعون مثلهم مثل الأقليات الدينية بحرية العبادة، ولا يصح إكراههم على شىء. وهناك أعداد متزايدة من السلطات الإسلامية التى تعلن عن حمايتها للملحدين بناءً على هذا الرأى. وفعلاً، كيف ننكر عليهم هذه الحماية دون أن نخالف بذلك ما يأمرنا به الله فى قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾؟

كل ما سبق عرضه يدخل ضمن النظرية، ولكن دعونا نرى حقيقة الأمر عند التطبيق. ولحسن الحظ لم يختلف التطبيق عن النظرية كثيراً على مر التاريخ الإسلامى، إلا فى حالات محلية نادرة جدا عندما ينتشر بين الطرفين اعتقاد بقيام حرب بينهما. ولقد أدى هذا فى بعض الحالات النادرة المتفرقة إلى فرض معايير خاصة بالملبس، لمنع غير المسلمين من ركوب الدواب (ما عدا الحمير)، أو منع دق نواقيس الكنيسة، أو منع إقامة كنائس فى مدن جديدة[١٥] وكان أحيانًا يتم منع المسيحيين «من أكل الخنزير وشرب الخمور»[١٦].

---

(١٣) انظر المصرى فصل ١١٠١ ص ٦٠٧.

(١٤) La Condition des minorités en Islam وضع الأقليات فى الإسلام.
دراسة مقدمة للاجتماع العام للمجلس الأعلى الإسلامى المصرى السابع والمنعقد فى القاهرة فى يوليو عام ١٩٩٥، ص ١٩.

(١٥) شرح النووى للحديث رقم (١٩٩٤).

(١٦) سالم ص ١٥٥ ـ ١٥٨.

وكل هذه السلوكيات المنافية لنصوص القرآن ولروحه كان يتم تسويغها فى العصور الوسطى بجزء من الآية «٢٩» من سورة التوبة والتى تقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[١٧]. ولكن النص العربى هذا يتيح ترجمة (الترجمة الألمانية شديدة القسوة) أخرى تتماشى مع المبادئ العامة للإسلام، أى أن يحارب أهل الكتاب حتى يدفع كل حسب مقدوره أما عن الإهانة والبطش والتسلط فلا حديث عن مثل هذه الأشياء[١٨].

مجمل القول ليس هناك سند قرآنى يبيح السلوك غير المهذب إزاء غير المسلم.

لقد استطاع المسيحيون واليهود بفضل الحقوق التى تتمتع بها الأقليات الدينية وفق الشريعة الإسلامية أن يقوموا بدور إيجابى فى المجتمعات المسلمة، فلقد كان معاوية الخليفة الأموى متزوجًا من مسيحية ومن قبله الرسول محمد الذى تزوج من ماريا القبطية، وصفية اليهودية.

- ٤ -

وأعود هنا بحديثى إلى الواقع المعاصر، إلى حاضرنا، خاصة فى ألمانيا.

أعتقد أن السؤال المهم الذى يجب أن يُطرح ليس هو ماذا سيفعل المسلمون إذا ما أصبحوا أغلبية؟ ولكن كيف تتصرف الأغلبية فى الدول الغربية اليوم إزاء الأقلية المسلمة؟ هل الغرب على استعداد لأن يسلك سلوكًا ليبراليا إزاء المسلمين؟ سلوكا يعادل ما يأمر الإسلام المسلمين به إزاء المسيحيين؟

يعترف المسلمون شاكرين بأن جميع أنواع الاضطهاد وعدم التسامح إزاء كل ما هو إسلامى قد أخذ يتضاءل فى الغرب منذ أواخر القرن الثامن عشر. ولقد كان للتطور الذى شهدته الولايات المتحدة فى أمريكا الشمالية أثر بالغ فى هذا الصدد،

---

(١٧) هذه رؤية النووى.

(١٨) انظر محمد أسد (الرسالة ١٩٨٠) عن الآية ٢٩ من سورة التوبة.

حيث أصبحت هذه الولايات بعد فترة من التعثر ملاذًا وملجأ للمضطهدين دينيًا، وبالتالى أخذت تتطور بشكل إيجابى نحو التعدد والتنوع الدينى.

ولقد أدت موجات الهجرة المغاربية والهندية والتركية إلى أوروپا دورًا بارزًا؛ لأنها أحدثت تغيرات فى صورة أوروپا ذات الدين الواحد، ومن ثم عرفت أوروپا تنوع الأديان وتعايشها.

وعلينا كذلك أن نتعامل بإيجابية فى هذا الصدد مع ما أقرته الولايات المتحدة والمجلس الأوروپى من قوانين لحماية حقوق الإنسان عامة وحرياته الدينية خاصة، وتؤدى «الاتفاقيات التالية» فى هذا الشأن دورًا مهمًا:

- الإعلان العام لحقوق الإنسان الصادر فى ١٩/ ١٢/ ١٩٤٩[١٩] المعاهدة الأوروپية لحقوق الإنسان الصادرة فى ٤/ ١١/ ١٩٥٠[٢٠].

- الاتفاق الدولى للحقوق المدنية والسياسية الصادر فى ١٩/ ١٢/ ١٩٦٦[٢١]. ولقد جاء فى المادة ٢٧ من هذا الاتفاق: «لا يحق فى الدول ذات الأقليات العرقية والدينية واللغوية أن يُمنع أفراد هذه الأقليات من حقهم فى ممارسة حياتهم الثقافية، والاعتراف بدينهم وممارستهم لشعائر دينهم، واستخدام لغتهم الخاصة فى ضوء تعاونهم ومشاركتهم لأعضاء الجماعات الأخرى».

لقد كان لكل هذا آثاره الإيجابية على التطورات التى يشهدها العالم الغربى. ولكن يظل قانون حماية الأقليات الغربى الحديث أضيق بكثير، وأقل كرمًا بكثير مما يمنحه الحق الإسلامى للأقليات الدينية وذلك منذ ١٤٠٠ عام.

إذًا فمن يجب أن يخشى الآخر؟

إن المسلمين ليسوا بالحالمين، فهم لا يتوقعون أن تمنحهم دولة غربية حقوقهم

---

(١٩) خاص بهذا الموضوع: المادة ٢ (عدم التفرقة).
المادة ١٤ (حق اللجوء).
المادة ١٨ (حرية العبادة).

(٢٠) خاص بهذا الموضوع: المادة ٩ (حرية العبادة).
المادة ١٤ (عدم التفرقة).

(٢١) خاص بهذا الموضوع: المادة ١٨ (حرية العبادة).

كـاملة، أو حـتى حق تقـرير أشـيـاء تخـصـهم، أعنى أى شكل من أشكال الحكم الذاتى.

المسلمون ليسوا بالحالمين أو المتمردين، فهم على استعداد للخضوع للقوانين التى تحكم البلاد التى يقيمون فيها كأقلية. ولقد أفردت علوم القانون الإسلامية دراسات عديدة منذ خمسة قرون لوضع المسلم فى بلد غير إسلامى، أى عندما يصبح المسلم ذميا للمسيحى. وذلك لأنه فى هذا الوقت أصبح الكثير من المسلمين الأندلسيين تحت حكم كـاثوليكى؛ لأنهم ـ أى المسلمين ـ لم يهـاجـروا كـافـة إلى شـمـالى إفريقيا[٢٢]. فلقد أقر الإسلام بقاء المسلم فى العالم المسيحى طالما كان متاحًا له أن يمارس الواجبات الأساسية والفروض الإسلامية التى لا غنى عنها. ولكن إذا تعذر هذا، فعليه الهجرة إلى حيث يتمكن من ممارسة دينه. ولقد أمرت علوم القوانين الإسلامية فى ذلك الوقت المسلمين المهاجرين أن يلتزموا تمامًا بقوانين البلاد التى يعيشـون فيـهـا. وحـتى إن المذهب الحنفى أعـفى المسلم فى هذه الحـالة من بعض المبادئ، مثل عدم التعامل بالربا. فمن إذًا يجب أن يخشى الآخر؟

لقد قـمت ـ على ما أظن ـ بتوضـيح ما يطالب المسلمون الغـرب به أو ما يتوقـعه المسلمون من الدولة فى الغرب. إن المسلمين لا يطالبون بحقوق الأقليات كما كفلها الإسلام، ولـكن يطالبون بالمعـاملة بالمثل، أى أن يتـساووا مع كل من يعيش فى هذه الدولة، أى أن يتوقف الكيل بمكيالين.

ولكن هناك الدلائل الكثيرة التى تشير إلى صعوبة تحقيق هذا الأمر. ويتضح هذا جليا عندما نتعرض لأمر بناء جامع؛ إذ لا يتم التصريح بأمر البناء إلا بعد عدة سنوات من تقديم الطلب، ويصرح بالبناء فى موقع بغيض بجوار سلخانة أو خلف القطارات. لابد أن تساوم من أجل ارتفاع كل متر للمئذنة، كما لو أن هناك قانونا يلزم بألا ترتفع المئذنة عن أى كنيسة (لم يتم التصريح ببناء قبة الجامع لأنها ـ وإن توافقت مع النسب الكلاسيكية ـ إلا أنها ترتفع ٥٠ سم أكثر مما ينبغى). أما إذا تم بناء الجامع، فكثيرًا ما يتم منع استخدام المئذنة للنداء للصلاة بدون إبداء أى سند قانونى لهذا المنع، ولكنهم يأتون بأسباب واهية. يتم هذا بالرغم من تصريح المسئول عن

---

(٢٢) انظر دراسة الفضل المستفيضة.

شئون الأجانب فى الحكومة الاتحادية عام ١٩٩٧ بأن الأذان المنبعث من مكبرات الصوت خاضع للحماية الدستورية، وبالتالى فإنه ليس فى حاجة للحصول على إذن، كما أنه لا يسببُ أى أضرار للبيئة ولا يلحق أضراراً بالمرور أو الصحة[٢٣]

أما أسوأ ما فى الأمر، فإنه لبناء الجامع، غالبًا ما يضطر المسلمون لانتزاع تنفيذ ذلك خطوة وراه خطوة، وسبيل ذلك يكون بأمر من المحكمة. وكثيراً ما يرفض المسئولون إعطاء التصاريح، مع أن القانون لا يمانع فى التصريح بهذه الإجراءات. ولا يختلف الوضع فى فرنسا عنه فى ألمانيا[٢٤]. لا تملك أى ديمقراطية حيال المقاومة السلبية للبيروقراطية حلاً.

أما المسألة الثانية بعد بناء الجوامع، فهو غطاء الرأس الذى ترتديه المسلمة ـ قطعة النسيج هذه التى تستطيع أن تهز جمهوريات بأسرها. فإذا كان ارتداؤه يعد دعاية للإسلام، فلماذا لا يتم منع ارتداء الصلبان[٢٥] أو دق نواقيس الكنائس[٢٦]؟ وإذا كان ارتداء غطاء الرأس هذا دليل قمع للمرأة، فلماذا لا تسأل المرأة التى ترتديه؟ وإذا كان إرتداء غطاء الرأس يخالف قواعد الملبس فى العمل، فلماذا لا يتم تغيير هذه القواعد؟

يسعد كثير من المسلمين عندما يتضح لهم أن الكثير من دول الغرب دول غير دينية ظاهريًا فقط؛ لأن هذه الدول قد أدمجت الكثير من الدين فى أمور الدولة، ولكن لهذا السبب ذاته يبدو غريبًا جدا أن ينازعوا المسلمة حق تقرير ارتدائها لغطاء الرأس من عدمه!

---

(٢٣) نشرها المسئول عن شئون الأجانب فى الحكومة الاتحادية ص. ب ٥٣١٠٧ و ١٤٠٢٨٠ بون.

(٢٤) لقد صاغها القانونى Dior Diop فى مقولة أنيقة:
Construire une mosquée - est - ce si difficile? بناء جامع ـ هل هو صعب إلى هذه الدرجة؟ فى La Medina Paris Nr. 1, 1999 ص٥٦
الأمر لا يتعلق بالنص القانونى ولكن تنفيذه تجاه المسلمين.

(٢٥) انظر: edd. Stefan Hustler, Winfried Brugger Baden - Baden 1998. الخلاف حول الصليب فى المدرسة.

(٢٦) لقد سمحت محكمة إدارية لكنيسة فى أشفنبورج Aschaffenburg بدق الناقوس لصوت يبلغ ٨٦,٣! ورد فى FAZ ١٢/١٢/١٩٩٨.

أما ما يصيب المسلمين من ذهول ويخرجهم عن شعورهم، فهو أن تقوم بعض السلطات غير المسلمة بتفسير القرآن للمسلمين بدءاً من رئيس حماية الدستور ومروراً برئيس الكنيسة الإنجيلية فى مقاطعة «هسن ونساو» ووزيرة الثقافة فى مقاطعة بادن ـ فُرتمبرج Baden - Wùrttemberg، وصولاً إلى محاكم إدارية! .

فالمسلمون يتعلمون من هؤلاء المذكورين أنه على عكس فهمهم، يحق لهم تناول أنواع اللحوم كافة، كما يحق لهم ارتداء البكينى فى مجتمع مختلط، كما أن المرأة المسلمة ليس لها أن تغطى شعرها وترتدى غطاء للرأس. وتقع مثل هذه المحاولات من المسلمين موقع الإمبريالية الثقافية الأوروبية المركز.

ولكن لن يجرؤ أحد تحت أى ظروف أن يسمح لنفسه بتفسير التوراة أو المشنة أو التلمود للمواطنين اليهود.

ويتحدث المسلمون بسخرية لاذعة عن الكيل بمكيالين فى أمر الذبح وفق الشريعة الإسلامية. فمن المعروف أن هذا الذبح يتطابق مع ذبح اليهود لذبائحهم. فبينما مسموح لليهودى بالذبح وفق شريعته ـ يُعَدّ نفس أسلوب الذبح عندما يقوم به مسلم سلوكًا مخالفًا لحقوق حماية الحيوان والرفق به.

لم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد حاولت محكمة إدارية أن تثبت للمسلمين أن بمقدورهم التغاضى تمامًا عن مسألة الذبح الشرعى هذا: فالقرآن يسمح فى حالة الضرورة القصوى بأكل ما نهى عنه، وبما أن هناك قانون دولة يحرم مسألة الذبح الشرعى هذا، فإن بإمكان المسلمين فى حالة الضرورة هذه أن يتناولوا جميع أنواع اللحوم الأخرى. ولم يتبين القاضى بطبيعة الحال أن الضرورة هنا تعنى للمسلم حالة تعرضه للموت جوعًا، (ولكن الحقيقة أن بإمكان المسلم تناول اللحوم عند المسيحى حتى لو لم تكن ذبحت وفق الشريعة الإسلامية شريطة ألا تكون هذه اللحوم من الخنزير).

وهذا المبدأ المذكور، أى أن تملى السلطات على المسلمين ما يجب أن يفعلوه من منطلق أن هذه السلطات تفهم الإسلام وتقوم بتفسيره مثلهم، تتبعه بعض

المقاطعات الألمانية فيما يخص دروس الدين الإسلامي في المدارس. ولذلك، فإنني أعتقد أن السماح بإعطاء دروس دين إسلامي في المدارس تحت إشراف الحكومة لهو انتصار وهمي للمسلمين. فوزارة التعليم تحدد مناهج الدين الإسلامي للمسلمين في مدارسها دون الرجوع للمسلمين أو الاتفاق معهم أو حتى السماح لهم بمراجعة هذه المناهج! ولا أستبعد أن يتعلم أطفال المسلمين (على يد مدرسين غير مسلمين بطبيعة الحال) أن صيام رمضان في مجتمع صناعي كألمانيا لهو أمر غير عملي، وغير قابل للتطبيق، وغير ذلك كثير.

لقد أراد Jörg Schönbohm عام ١٩٩٨، عندما كان نائبًا، منع جميع حصص الدين الإسلامي بالمدارس الحكومية في برلين، ليتحقق بذلك مبدأ الانسجام والتجانس بين الأطفال؛ لأن هذا التدريس كما يعتقد، يؤدي في نهاية الأمر إلى تشكيل جسم غريب عن بقية المجتمع. ولقد اعتمد في رأيه هذا على خطابات كثيرة وصلته تحذر من خطورة تعرض الشعب الألماني لعملية تبديل على المدى الطويل(٢٧).

لقد أطلق Konrad Schuller صيحة تتهم Schònbohm بأنه لم يعد يتعرف على وطنه حيث بات ضروريا «أن يتخذ كفتة اللحم (Bulette (طعام ألماني تقليدي) موقفًا دفاعيا من الكباب»، ووجه سؤاله ساخرًا إلى Schònbohm: «هل تريد أن تقرب مسلمي العاصمة من الإيمان بالثالوث، أم تريد إقناعهم بتناول لحم الخنزير مع الكرنب المخلل (أكلة ألمانية تقليدية)»(٢٨)؟

لم يستطع المسلمون في برلين المشاركة في هذا المزاح؛ لأنهم يعلمون خلفية هذا النقاش. فقد أثبت استبيان أجري في ألمانيا عام ١٩٩٥ أن ٤٨٪ ممن شملهم هذا الاستبيان يرون في الإسلام «خطرًا يهدد الحضارة والثقافة الغربية». وهناك ٣٧٪ ينفون هذا، بينما هناك ١٥٪ لا رأي لهم(٢٩).

---

(٢٧) خطاب قارئ من Bijorn Clemens في FAZ ٣١/ ١/ ١٩٩٩. إنه يَعُدُّ السماح بحصص للدين الإسلامي في المدارس في ألمانيا فظاعة كبرى.

(٢٨) انظر Konrad Schuller: عندما تخسر كرات اللحم (كفتة / طعام ألماني شديد الخصوصية) يتشمم Schònbohm مخاطر الجيتو (استخدم لوصف حالة الشم فعلا لا يستخدم إلا مع الكلاب) في FAZ ١٥/٦/١٩٩٨.

(٢٩) انظر Reinhard Hesse صورة العدو: الإسلام. جريدة الأسبوع Die Woche ٢٣/ ٤/ ١٩٩٧.

فمن يجب أن يخاف الآخر إذًا؟

لا يعطي المسلمون حاليًا أدنى اهتمام لمسألة حقهم في الاعتراف بهم كجماعة دينية لها كافة الحقوق العامة، كما جاء في دستور فايمار[٣٠].

هذا هو حال الغرب مع مسلميه، ونحن على أعتاب الألفية الثالثة، والتي تَعدُ بأنها ستكون مشحونة، وسيقوم الإسلام بأداء دور فيها، فلماذا لا يُترك له المجاَل ليقوم بتأدية دور إيجابي؟

إنني أختتم هذا الفصل من كتابي هذا بالسورة ١٠٣ من القرآن، وهي سورة العصر (١ ـ ٣): ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

* * *

(٣٠) لقد تم إضافة المواد ١٣٦ ـ ١٤١ الخاصة بالدين التي وردت في دستور فايمار إلى الدستور العام من خلال المادة ١٤٠.

LITERATUR

مراجع أخرى

—: *Conferences of Riyad* on *Moslem Doctrine and Human Rights in Islam*. Beirut: Dar al-Kitab al-Lubnani (o.J.).

—: *Der Koran*, Übers. Max Henning, überarbeitet und herausgegeben von Murad Wilfried Hofmann. München: Diederichs 1999.

—: *Die Bedeutung des Korans*, 5 Bde., Übers. Fatima Grimm u.a. München: SKD Bavaria Verlag 1998, 2. Aufl.

Abd el-Wahab, Ahmad: *Dialogue Transtextuel entre le Christianisme et l'Islam*. Paris: Centre Abaad 1987.

Abdou, Mohammed: *Rissalat al-Tawhid, Exposé de la Religion Musulmane*. Paris: Geuthner 1984.

Affendi, Abdel Wahab El-: *Turabi's Revolution*. London: Grey Seal Books 1991.

—: *Who Needs an Islamic State?* London: Grey Seal Books 1991.

Afifi, Zeinab: »Die Stellung der Frau im Islam«, in: *Gesichter des Islam*. Berlin: Haus der Kulturen der Welt 1992, S. 119 ff.

Afkhami, Mahnaz: *Faith & Freedom – Women's Human Rights in the Muslim World*. London: Tauris 1995.

Ahmad, Kurshid (Hrsg.): *Elimination of Riba from the Economy*. Islamabad: Institute of Policy Studies 1994.

—: »Man and the Future of Civilization: An Islamic Perspective«, in: *Encounters*, Jg. 1, Nr. 1, 1995, S. 103.

Ahmad, Mumtaz: »Islam and Democracy: The Emerging Consensus«, in: *Middle East Affairs Journal*, Jg. 2, Nr. 4, 1996, S. 29 ff.

Ahmed, Akbar: *Post Modernism and Islam*. London: Routledge 1992.

Ahmed, Akbar S./Hastings, Donna: *Islam, Globalization, and Postmodernism*. London: Routledge 1994.

Ahsan, Manazir/Kidwai, A.R.: *The Satanic Saga – Muslim Perspectives on the Satanic Verses Affair*. Markfield, LE: The Islamic Foundation 1991.

Ahsan, Manazir: »Arrival, Expulsion and Return: Muslim Experience in Europe«, in: *Al-Mizan*, Jg. 2, Nr. 1, 1996, S. 23 ff.

Ali, Ausaf: »An Essay on Public Theology«, in: *Islamic Studies*, Jg. 34, Nr. 1, 1995.

Alwani, Taha Jabir al-: *Ijtihad*. Herndon, VA: I.I.I.T. 1993.

Amin, Hussein: *Le livre du musulman désemparé*. Paris: La Découverte 1992.

Amin, Qasim: *Die Befreiung der Frau* (1889). Würzburg: Echter 1992.

Antes, Peter: *Der Islam als politischer Faktor*. Hannover: Niedersächsische Landeszentrale für Politische Bildung 1991, 2. Aufl.

Arkoun, Mohammed: *Pour une critique de la raison islamique*. Paris: Maisonneuve 1984.

—: *Ouvertures sur l'Islam*. Paris: Jacques Grancher 1989.

Armstrong, Karen: *Holy War – The Crusades and their Impact on Today's World.* New York: Papermac 1992.
—: *Nah ist und schwer zu fassen der Gott* (A History of God). München: Droemer-Knaur 1993.
Asad, Muhammad: *Islam at the Crossroads.* Lahore: Ashraf Press 1934.
—: *The Message of the Qur'an* (Koran-Übersetzung mit Kommentar). Gibraltar: Dar al-Andalus 1980.
—: *The Principles of State and Government in Islam* (1961). Gibraltar: Dar al-Andalus 1980.
—: *This Law of Ours and other Essays.* Gibraltar: Dar al-Andalus 1997.
—: *Vom Geist des Islam* (1979), Übers. Hasan Ndayisenga. Köln: Islam. Wiss. Akademie 1984.
—: »Muhammad Asad und die Reise nach Mekka«, Interview von Karl Günter Simon, in: *Frankfurter Allgemeine Zeitung* vom 18.11.1988.
Asad, Talal: *Genealogies of Religion: Discipline and Reason of Power in Christianity and Islam.* Baltimore: John Hopkins Univ. Press 1993.
Aschmawy, Muhammad Said: *L'Islamisme contre l'Islam (al-Islam al-siyasi).* Paris: Ed. la découverte 1989.
Atlan, Henri: *A tort et à raison – Intercritique de la science et du mythe.* Paris: Seuil 1986.
Attas, Syed Muhammad Naquib: *Islam and Secularism.* Kuala Lumpur: ABIM 1978.
—: (Hrsg).: *Islam and the Challenge of Modernity.* Kuala Lumpur: I.I.I.T. 1996.
Ayoub, Mahmoud: »Islam and Pluralism«, in: *Encounters,* Jg. 3, Nr. 2, 1997, S. 103.
Azmeh, Aziz al-: *Islam and Modernities.* London/New York: Verso 1993, 2. Aufl.
Azzi, Abderrahmane: »Islam in Cyberspace«, in: *Islamic Studies,* Jg. 38, Nr. 1, 1999, S. 103 ff.
Bachelard, Gaston: *Le Nouvel Esprit Scientifique.* Paris: Presses Universitaires de France 1968, 10. Aufl.
Badri, Malik: *The Dilemma of Muslim Psychiatrists.* London: MWH 1979.
—: *the aids crisis: an islamic socio-cultural perspective.* Kuala Lumpur: ISTAC 1997.
Bahnassawi, Sali El-: *Die Stellung der Frau zwischen Islam und weltlicher Gesetzgebung.* München: SKD-Bavaria Verlag 1993.
Balic, Smail: »Die islamische Überlieferung in der Postmoderne«, in: *Gottes ist der Orient, Gottes ist der Okzident.* Köln: Böhlau 1991, S. 108 ff.
Banna, Hasan al-: *Five Tracts of Hasan al-Banna* (1906–1949), Übers. Charles Wendell. Berkeley: Univ. of California Press 1975.
Barboza, Steven: *American Jihad – Islam after Malcolm X.* New York: Doubleday 1994.
Barrett, Swaantje: *Islam, Blasphemie und freie Meinungsäußerung – Was hat Salman Rushdie getan?* Hildesheim: Internat. Kulturwerk 1994.

Baumann, Zygmunt: *Modernity and the Holocaust*. Oxford: Polity Press 1991.

—: *Modernity and Ambivalence*. Oxford: Polity Press 1993.

Behrens, Michael/Rimscha, Robert von: *»Politische Korrektheit« in Deutschland. Eine Gefahr für die Demokratie*. Bonn: Bouvier 1995.

Bell, Daniel: *The Cultural Contradictions of Capitalism*. London: Heinemann 1976.

Benchekroun, Mohamed: *L'Islam et les obligations fondamentales*. Rabat: Arrissalat 1988.

Benjamin, David: *Muhammad in der Bibel*. München: SKD Bavaria Verlag 1987.

Berque, Jaques et al.: *aspects de la foi de l'Islam*. Brüssel: Facultés universitaires Saint Louis 1985.

Bielefeldt, Heiner: »›Schwächlicher Werterelativismus‹? Zur Notwendigkeit des interkulturellen Dialogs über Menschenrechte«, in: Kai Hafez, *Der Islam und der Westen*. Frankfurt: Fischer 1997, S. 56.

Boisard, Marcel: *Der Humanismus des Islam*. Kaltbrunn: Verlag zum Hecht 1982.

Borrmans, Maurice: *Wege zum christlich-islamischen Dialog*. Frankfurt: Cibedo 1985.

Brown, Daniel: *Rethinking tradition in modern Islamic thought*. Cambridge: Cambridge University Press 1996.

Buaben, Jabal Muhammad: *Image of the Prophet Muhammad in the West*. Markfield, LE: Islamic Foundation 1996.

Bürgel, Johann C.: *Allmacht und Mächtigkeit, Religion und Welt im Islam*. München: C.H. Beck 1991.

Bukhari, al-: *Sahih al-Bukhari*, 9 Bde., Übers. Muh. Muhsin Khan. Chicago: Kazi Publications 1976–1979.

Bukharyy, al-: *Auszüge aus Sahih al-Bukharyy*, Übers. Muh. Ahmad Rassoul. Köln: IB Verlag 1989.

Blumenberg, Hans: *The Legitimacy of the Modern Age*. Cambridge, MA: MIT Press 1984.

Bucaille, Maurice: *Bibel, Koran und Wissenschaft – Die Heiligen Schriften im Licht moderner Erkenntnisse*. München: SKD Bavaria Verlag 1984.

Bunt, Gary: »Islam in Cyberspace«, in: *The muslim world book review*, Jg. 18, Nr. 1, 1997, S. 3 ff.

Buti, Muhammad Sa'id al-: *Jihad in Islam – How to understand & practice it*, Übers. Munzer Adel Absi. Damaskus: Dar al-Fiqr 1995.

Cahen, Claude: *Orient et Occident au temps des croisades*. Paris: Aubier 1983.

Chapra, M. Umer: *Islam and the Economic Challenge*. Herndon, VA: I.I.I.T. 1992.

—: *Towards a Just Monetary System*. Leicester: The Islamic Foundation 1995.

Chejne, A.G.: *Ibn Hazm*. Chicago: Kazi Publ. 1982.

Cherfils, Christian: *Napoleon and Islam, From French and Arab Documents*. Kuala Lumpur: Utusan Publ. 1999.

Chimelli, Rudolph: *Islamismus*. Zürich: Vontobel Holding 1993.
Choudhury, Masudul Alam: *Reforming the Muslim World*. London/New York: Kegan Paul 1998.
Cohn-Sherbok, Dan (Hrsg.): *Islam in a World of Diverse Faiths*. London: Macmillan 1991.
Cooper, John/Nettler, Ronald/Mahmoud, Mohamed (Hrsg): *Islam and Modernity*. London: Tauris 1998.
Coury, Ralph: »Neo-Modernization Theory and its Search for Enemies: The Role of the Arabs and Islam«, in: *Islamic Studies*, Jg. 35, Nr. 4, 1996.
Cragg, Kenneth: *The Christ and the Faiths: Theology in Cross-Reference*. London: SPCK 1986.
Daniel, Norman: *Islam and the West – The Making of an Image*. Oxford: One World Publ. 1993, 2. Aufl.
Davutoglu, Ahmet: *Alternative Paradigms: The Impact of Islamic and Western Weltanschauungs on Political Theory*. London: Univ. of America Press 1994.
—: *Civilizational Transformation and the Muslim World*. Kuala Lumpur: Mahir Publications 1994.
—: »The Clash of Interests: An Explanation of World [Dis]order«, in: *International Discussion*, Jg. 2, Nr. 2, 1994, S. 107 ff.
Daweke, Klaus (Hrsg.): »Der rechte Weg – Versuche einer Annäherung an den Islam«, in: *Zeitschrift für Kulturaustausch*, Jg. 42, Nr. 4, 1992.
Denffer, Ahmad von: *Der Islam und Jesus*. München: IZM 1991.
Deschner, Karlheinz: *Der gefälschte Glaube*. München: Knesebeck & Schuler 1988.
Diamond, Larry: »The Globalsation of Democracy«, in: Robert Slater/Barry Schutz/Stephen Dorr, *Global Transformation and the Third World*. Boulder, CO: Lynne Rienner 1993, S. 31 ff.
Doi, Abdur Rahman: *Shari'ah, The Islamic Law*. London: Ta Ha Publishers 1984.
Dürr, Hans-Peter (Hrsg.): *Physik und Transzendenz*. München: Scherz 1989.
Dunn, Michael: »Islamic Movements at the End of the 20th Century«, in: *Middle East Affairs Journal*, Jg. 2, Nr. 4, 1996, S. 3 ff.
Duran, Khalid: »Demographic Characteristics of the American Muslim Community«, in: *Islamic Studies*, Jg. 36, Nr. 1, 1997, S. 57 ff.
Eaton, Charles de Gai: *Der Islam und die Bestimmung des Menschen* (Islam and the Destiny of Man). München: Diederichs 2000, 3. Aufl.
Eisenmann, Robert/Wise, Michael: *Jesus und die Urchristen*. München: Bertelsmann 1992, 2. Aufl.
Elmessiri, Abdelwahab: »Feature of the New Islamic Thought«, in: *Encounters*, Jg. 3, Nr. 1, 1996, S. 45 ff.
—: »Towards a More Comprehensive and Explanatory Paradigm of Secularism«, in: *Encounters*, Jg. 2, Nr. 2, 1997, S. 137 ff.
Engineer, Asghar: *The Rights of Women in Islam*. London: Sterling Publ. 1992.
—: *Rethinking Issues in Islam*. London: Sangam Books 1998.

Esack, Farid: *On Being a Muslim – Finding a religious Path in the World today*. Oxford: Oneworld Publ. 1999.
Esposito, John: *Voices of Resurgent Islam*. Oxford: Oxford Univ. Press 1983.
—: *The Islamic Threat: Myth or Reality?* Oxford/New York: Oxford Univ. Press 1992.
Fadl, Khaled Abu el-: »Islamic Law and Muslim Minorities«, in: *Islamic Law and Society*, Jg. 1, Nr. 2, 1994.
—: *The Authoritative and Authoritarian in Islamic Discourses*. Los Angeles: MIV 1997.
Falaturi, Abdoljavad (Hrsg.): *Islam: Raum-Geschichte-Religion, Der Islamische Orient*. Köln: Islam. Wiss. Akademie 1990.
Falk, Richard: »False Universalism and the Geopolitics of Exclusion: the Case of Islam«, in: *Third World Quarterly*, Jg. 18, Nr. 1, 1997, S. 7 ff.
Faruqi, Ismail Raji (Hrsg.): *Trialogue of the Abrahamic Faiths*. Herndon, VA: I.I.I.T. 1991.
Feindt-Riggers, Nils/Steinbach, Udo: *Islamische Organisationen in Deutschland*. Hamburg: Deutsches Orient-Inst. 1997.
Fox, Matthew: *Vision vom kosmischen Christus. Aufbruch ins Dritte Jahrtausend*. Stuttgart: Kreuz 1991.
French, Hal: *Adversary Identity: A Study of Religious Fanaticism and Responses to it*. Lampeter, Wales: Edwin Mellen Press 1990.
Fricke, Wedding: *»Standrechtlich gekreuzigt«. Person und Prozeß des Jesus aus Galiläa*. Buchschlag: Mai Verlag 1986.
Fukuyama, Francis: »The End of History?«, in: *The National Interest*, Frühjahr 1990.
—: *The End of History and the Last Man*. New York: Penguin 1992.
Fulton, John/Gee, Peter: *Religion in Contemporary Europe*. Lampeter, Wales: Edwin Mellen 1994.
Garaudy, Roger: *Pour un Islam du XXe siècle* (Charte de Seville). Paris: Tougui 1985.
—: *Verheißung Islam*. München: SKD Bavaria Verlag 1988.
Gardell, Matthias: *Countdown to Armaggedon – Louis Farrakhan and the Nation of Islam*. London: C. Hurst 1996.
Gardet, Louis: *Les Hommes de l'Islam*. Paris: Hachette 1977.
Gellner, Ernest: *Relativism and the Social Sciences*. Cambridge: Cambridge Univ. Press 1985.
—: *Postmodernism, Reason and Religion*. London: Routledge 1992.
Ghannouchi, Rachid al-: »Towards Inclusive Strategies for Human Rights Enforcement in the Arabs World« – a Response, in: *Encounters*, Jg. 2, Nr. 2, 1996, S. 190 ff.
Ghaussy, Ghanie: *Das Wirtschaftsdenken im Islam*. Bern: Haupt 1986.
Ghazali, Abu Hamid al-: *Ihya Ulum-id-Din*, 4 Bde., Übers. Fazul-ul-Karim. Lahore: Sind Sagar Academy (o.J.).
Gibb, H./Kramers, J.: *Shorter Encyclopaedia of Islam*. Leiden: Brill 1974.
Gleave, Robert: »Elements of Religious Discrimination in Europe: the Position of Muslim Minorities«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 2, 1998, S. 169 ff.

Goethe, Johann Wolfgang von: *Werke*. Frankfurt: Insel 1993.
Guazzone, Laura (Hrsg.): *The Islamist Dilemma*. Reading: Garnet 1995.
Habermas, Jürgen: *Faktizität und Geltung*. Frankfurt: Suhrkamp 1992.
Haddad, Yvonne/Smith, Jane (Hrsg.): *Muslim Communities in North America*. Albany: SUNY 1994.
Hafez, Kai (Hrsg.): *Der Islam und der Westen*. Frankfurt: Fischer 1997.
Haikal, Muhammad Hussein: *Das Leben Muhammads*. Siegen: Tackenberg Verlag 1987.
Hamidullah, Muhammad: *The First Written Constitution in the World*. Lahore: Sh. Muhammad Ashraf 1975, 3. Aufl.
—: *The Emergence of Islam*, Übers. Afzal Iqbal. Islamabad: Islamic Research Institute 1993.
Harrington, Michael: *The Politics at God's Funeral: The Spiritual Crisis of Western Civilization*. New York: Holt, Reinhart & Winston 1983.
Hart, Michael: *The 100. A Ranking of the Most Influential Persons in History*. New York 1978, S. 33.
Hasenfratz, Hans-Peter: *Das Christentum – Eine kleine »Problemgeschichte«*. Zürich: Theologischer Verlag 1992.
Hashemi, Nader: *»How dangerous are the Islamists?«*, in: Middle East Affairs Journal, Jg. 2, Nr. 4, 1996, S. 12.
Hathout, Hassan: *Reading the Muslim Mind*. Plainfield, IN: American Trust 1995.
Heine, Peter: *Halbmond über deutschen Dächern*. München: List 1997.
Herman, Edward: »Free Expression in the West: Myth and Reality«, in: *Encounters*, Jg. 2, Nr. 1, 1996, S. 23 ff.
Hesse, Reinhard: »Feindbild Islam«, in: *Die Woche* vom 23.04.1997.
Hibri, Aziza al-: »Islamic Constitutionalism and the Concept of Democracy«, in: *24 Case Western Reserve Journal of International Law*, Nr. 1, 1992.
Hick, John: *The Myth of God Incarnate*. London: SCM Press 1977.
—: *God an the Universe of Faiths*. London: Macmillan 1988.
—: *An Interpretation of Religion*. Basingstoke, Hampshire: Macmillan 1989; deutsche Ausgabe: *Religion – Die menschlichen Antworten auf die Frage nach Leben und Tod*. München: Diederichs 1996.
—: *The Metaphor of God Incarnate*. London: SCM Press 1993.
—: »Religiöser Pluralismus und Absolutheitsansprüche«, in: Kirste, 1994, S. 128–149.
—: »Wahrheit und Erlösung im Christentum und in anderen Religionen«, in: Kirste, 1994, S. 113–127.
—: *The Rainbow of Faiths*. London: SCM Press 1995.
Hick, John/Meltzer, Edmund (Hrsg.): *Three Faiths – One God; A Jewish Christian, Muslim Encounter*. London: Macmillan 1989.
Hicks, Neil: »Islam and Human Rights«, in: Muslim Politics Report, Nr. 12. New York: Council on Foreign Relations 1997.
Hilal, Iyad: *Studies in Usul ul-Fiqh*. Walnut, CA: Islamic Cultural Workshop (o.J.), 2. Aufl.
Hilf, Rudolf: *Weltmacht Islam*. München: Bayr. Landeszentrale für pol. Bildung 1988.

Hodgson, Marshall: *The Venture of Islam*, 3 Bde. Chicago: Univ. of Chicago Press 1974.

Hoffmann, Christian (Abdul Hadi): *Zwischen allen Stühlen – Ein Deutscher wird Muslim*. Bonn: Bouvier 1995.

Hofmann, Murad Wilfried: *Der Islam als Alternative*. München: Diederichs 1995, 3. Aufl.

—: *Islam 2000*. Beltsville, MD: amana 1996, 2. Aufl.

—: *Reise nach Mekka*. München: Diederichs 1996.

—: »The European Mentality and Islam«, in: *Islamic Studies*, Jg. 35, Nr. 1, 1996, S. 87 ff.

—: *L'Islam que cherche-t-il en Europe?* Casablanca: Ministère des Habous 1997.

—: »The Protection of Religious Minorities in Islam«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 2, 1998, S. 137 ff.

Holt, Maria: »Palestinian Women and the Contemporary Islamist Movement«, in: *Encounters*, Jg. 3, Nr. 1, 1997, S. 64.

Houellebecq, Michel: *Die Welt als Supermarkt*. Köln: DuMont 1999, 2. Aufl.

Hughes, Thomas Patrick: *Dictionary of Islam* (1886). Chicago: Kazi 1994.

Hunke, Sigrid: *Allah ist ganz anders – Enthüllungen von 1001 Vorurteilen über die Araber*. Bad König: Horizonte 1990.

Huntington, Samuel: »The Clash of Civilizations«, in: *Foreign Affairs*, Jg. 72, Nr. 3, 1993, S. 17–33.

—: *The Clash of Civilizations and the Making of a New World Order*. New York: Simon & Schuster 1996.

—: »The West: Unique, Not Universal«, in: *Foreign Affairs*, Jg. 75, Nr. 6, 1996, S. 28–46.

Ihsanoglu, Ekmeleddin: »Europe and Islam, New Challenges, New Horizons«, in: *The West and Islam*. Istanbul: IRCICA 1999, S. 3.

Imam, Ahmad 'Ali al-: *Variant Readings of the Qur'an*. Herndon, VA: I.I.I.T. 1998.

Iqbal, Muhammad: *The Reconstruction of Religious Thought in Islam*. (1928/29). Lahore: Sh. Muhammad Ashraf 1986.

Izetbegovic, 'Alija 'Ali: *Islamic Declaration* (1979). Anonymer Samisdat-Druck.

—: *Islam between East and West*. Indianapolis, IN: American Trust 1989, 2. Aufl.

Jamil, Javed: *Islamic Model for Control of AIDS*. Saharanpur (Indien): Mission Publications 1996.

Jaweed, Najma: »Human Rights in Islam«, in: Al-Mizan, Jg. 2, Nr. 1, 1996, S. 65 ff.

Jayyusi, Salma Khadra (Hrsg.): *The Legacy of Muslim Spain, HdO*. Leiden: Brill 1992.

Kabbai, Shaykh Muhammad/Bakhtiar, Lalah: *Encyclopedia of Muhammad's Women Companions and the Traditions they related*. Chicago: ABC International/Kazi Publ. 1998.

Kant, Immanuel: *Kritik der reinen Vernunft* (1781), Bd. 1 und 2. Frankfurt: Suhrkamp 1996.

—: *Kritik der praktischen Vernunft* (1788). Frankfurt: Suhrkamp 1996.

Karic, Enes: »In Europe there are no ›indigenous‹ and ›imported‹ religions«, in: *Islamic Studies*, Jg. 37, Nr. 1, 1998.

Kathir, Ibn: *Tafsir Ibn Kathir*. London: Al-Firdous – erscheint fortlaufend seit 1996.

—: *The Life of the Prophet Muhammad – al-Sira al-Nabawiyya –*, 4 Bde. Reading: Garnet – seit 1998.

Kausar, Zeenath: »Sexuality and Reproductive Rights in ›Platform for Action‹ and Islam«, in: *Encounters*, Jg. 3, Nr. 2, 1997, S. 149.

Kepel, Gilles/Yann, Richard (Hrsg.): *Intellectuels et militants de l'islam contemporain*. Paris: Seuil 1990.

—: *Die Rache Gottes. Radikale Moslems, Christen und Juden auf dem Vormarsch*. München: Piper 1991.

Khaldun, Ibn: *The Muqaddimah. An Introduction to History*, Übers. Franz Rosenthal. Princeton: Bolligen Series, Princeton Univ. Press 1967.

Khaleel, Shawki Abu: *Islam on Trial*. Beirut: Dar el-Fikr el Mouaser 1991.

Khan, Mujeeb R.: »Bosnia-Hercegovina and the Politics of Religion and Genocide in the ›New World Order‹«, in: Islamic Studies, Sonderausgabe Islam in the Balkans, Jg. 36, Nr. 2 und 3, 1997, S. 287 ff.

Khir, Bustami Muhammad: »Concept of Sovereignty in the Contemporary Islamic Movements«, in: *Encounters*, Jg. 1, Nr. 1, 1995, S. 5 ff.

Kierkegaard, Søren: *Die Krankheit zum Tode*. Köln: Jakob Hegner 1956.

Kirchhoff, Jochen: *Räume, Dimensionen, Weltmodelle. Impulse für eine andere Naturwissenschaft*. München: Diederichs 1999.

Kirste, Reinhard: »Entwicklungslinien der Bibelauslegung – Chancen für ein sachgemäßes Koranverständnis?«, in: Gottes ist der Orient, Gottes ist der Okzident. Köln: Böhlau 1991, S. 362–395.

Kirste, Reinhard et al. (Hrsg.): *Interreligiöser Dialog zwischen Tradition und Moderne. Religionen im Gespräch (RIG)*, Bd. 3. Balve: Zimmermann 1994.

Köse, Ali: *Conversion to Islam*. London: Kegan Paul 1996.

Krämer, Gudrun: »Der ›Gottesstaat‹ als Republik«, in: Kai Hafez, *Der Islam und der Westen*. Frankfurt: Fischer 1997, S. 44.

Kramer, Martin: *Arab Awakening & Islamic Revival*. New Brunswick, NJ: Transaction Publ. 1996.

Kreeft, Peter: *Ecumenical Jihad*. San Francisco: Ignatius Press 1996.

Kremer, Alfred von: *Geschichte der herrschenden Ideen des Islam* (1868). Hildesheim: Georg Olms 1961.

Kruse, Hans: *Islamische Völkerrechtslehre*. Bochum: Brockmeyer 1979, 2. Aufl.

Küng, Hans/Ess, J. van: *»Islam«, Christentum und Weltreligionen*, Bd. 1. Gütersloh: Mohn 1987.

Küng, Hans/Kuschel, Karl-Josef (Hrsg.): *A Global Ethic: The Declaration of the Parliament of World's Religions*. London: SCM Press 1993.

Küng, Hans: *Pourquoi suis-je toujours chrétien?* Paris: Centurion 1988.

—: *Projekt Weltethos*. München: Piper 1990.

—: Vorwort, in: Karl-Josef Kuschel/Hermann Häring (Hrsg.), *New Horizons for Faith and Thought*. London: SCM Press 1993.

Kuschel, Karl-Josef: *Abraham – a Symbol of Hope for Jews, Christians and Muslims*. London: SCM Press 1995.

—: *Vom Streit zum Wettstreit der Religionen – Lessing und die Herausforderung des Islam*. Düsseldorf: Patmos 1998.

Lang, Jeffrey: *Struggling to Surrender*. Beltsville, MD: amana 1995, 2. Aufl.

—: *Even Angels Ask*. Beltsville, MD: amana 1997.

Laoust, Henri: *la profession de foi d'Ibn Taymiyya – La Wasitiyya*. Paris: Geuthner 1986.

Lawrence, Bruce B.: *Shattering the Myth – Islam beyond Violence*. Princeton: Princeton University Press 1998.

Lee, Robert: *Overcoming Tradition and Modernity: The Search for Islamic Authenticity*. Boulder, CO: Westview Press 1997.

Lelong, Michel: *Si Dieu l'avait voulu* ... Paris: Tougui 1986

Lemu, Aisha/Heeren, Fatima: *Women in Islam*. Leicester: Islamic Council of Europe 1978.

Lerch, Wolfgang Günter: *Muhammads Erben – Die unbekannte Vielfalt des Islam*. Düsseldorf: Patmos 1999.

Lincoln, C. Eric: *The Black Muslims in America*. Grand Rapids, MI: Wm. B. Eerdmans Publ. 1994.

Little, David/Kelsay, John/Sachedina, Abdulaziz: *Human Rights and the Conflicts of Culture: Western and Islamic Perspectives on Religious Liberty*. Univ. of South Carolina Press 1989.

Lüdemann, Gerd: *Die Auferstehung Jesu*. Göttingen: Vandenhoeck & Ruprecht 1994.

—: *Ketzer – Die andere Seite des frühen Christentums*. Stuttgart: Radius 1995.

Lyotard, Jean-François: *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*. Manchester: Manchester Univ. Press 1986.

Maalouf, Amin: *Les croisades vues par les Arabes*. Paris: Edition J'ai lu 1991.

Mack, Burton: *The Last Gospel – The Book of Q and Christian Origins*. Element Books 1993.

Malik b. Anas, Imam: *Al-Muwatta*, Übers. 'Aisha 'Abdarahman und Yaqub Johnson. Norwich: Diwan Press 1982.

Malley, Robert: *The Call from Algeria*. Berkley: Univ. of California Press 1996.

Mantran, Robert: *les grandes dates de l'Islam*. Paris: Larousse 1990.

Manzoor, Parvez: »An Epistemology of Questions: The Crisis of Intellect and Reason in the West«, in: *The Muslim World Book Review*, Jg. 7, Nr. 2, 1987.

—: »Human Rights: Secular Transcendence or Cultural Imperialism«, in: The Muslim World Book Review, Jg. 8, Nr. 3, 1994, S. 3 ff.

—: »Hubris and Humility: Christian Perplexity at the Plurality of Faith«, in: The Muslim World Book Review, Jg. 15, Nr. 4, 1995, S. 3 ff.

—: »Desacralizing Secularism«, in: *The American Journal of Islamic and Social Sciences*, Jg. 12, Nr. 4, 1995, S. 545 ff.
—: »Against the Absolutism of Science and Society«, in: The Muslim World Book Review, Jg. 18, Nr. 2, 1998, S. 3 ff.
—: »Freedom as Transcendence? Contemporary Islam and the Puzzle of Modernity«, in: The Muslim World Book Review, Jg. 19, Nr. 2, 1999, S. 3 ff.
Martinez, Florentino Garcia: *The Dead Sea Scrolls*. Leiden: Brill 1994.
Marty, Martin/Appleby, Scott (Hrsg.): *The Fundamentalism Project*, 4 Bde. Chicago: Univ. of Chicago Press 1993, 1994.
Maududi, Abu 'Ala: *Islam in the Face of Contemporary Challenges*. Kuwait: Dar al-Arqam 1971.
Mayer, Ann Elizabeth: *Islam and Human Rights*. Boulder, CO: Westview 1995, 2. Aufl.
Mazrui, Ali: »Islam and the End of History«, in: The American Journal of Islamic Social Studies, Jg. 10, Nr. 4, 1993, S. 512–535.
—: »North American Muslims: Rising to the Challenge of Dual Identity«, in: Islamic Studies, Jg. 34, Nr. 4, 1995, S. 451 ff.
—: »Human Rights between Rwanda and Reparations: Global Power and the Racial Experience«, in: *Encounters*, Jg. 2, Nr. 1, 1996, S. 3 ff.
—: »Islamic and Western Values«, in: *IQRA*, Jg. 18, Nr. 1, 1998, S. 13 ff. (1997 in *Foreign Affairs*).
Meier, Andreas: *Der Politische Auftrag des Islam*. Wuppertal: Peter Hammer 1994.
Mernissi, Fatima: *Sultanes Oubliées, femmes chefs d'état en islam*. Casablanca: Le Fennec 1992.
—: *Der politische Harem. Mohamed und die Frauen*. Frankfurt: Dagyeli 1989.
—: *Die Angst vor der Moderne*. Hamburg: Luchterhand 1992.
Miles, Jack: *Gott – Eine Biographie –*. München: Hanser 1996.
Misri, Ahmad ibn Naqib al-: *The Reliance of the Traveller*, Übers. Noah Ha Mim Keller. Dubai: Modern Printing Press 1991.
Monshipouri, Mahmood: *Islamism, Secularism, and Human Rights in the Middle East*. Boulder, CO: Lynne Rienner 1998.
Moore, Kathleen: *Al-Mughtaribun: American Law and the Transformation of Muslim Life in the United States*. Albany, NY: State Univ. Press 1995.
Moten, Abdul Rashid: *Political Science: An Islamic Perspective*. Basingstoke, Hampshire: Macmillan 1996.
—: »Democratic and Shura-based Systems«, in: *Encounters*, 3. Jg., Nr. 1, 1997, S. 3 ff.
Mousalli, Ahmad: *Radical Islamic Fundamentalism: The Ideological and Political Discourse of Sayyid Qutb*. Beirut: American Univ. of Beirut Press 1992.
Munoz, Gema Martinez (Hrsg.): *Islam, Modernism and the West*. London: Tauris 1999.
Murad, Khurram: »Islam and Terrorism«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 1, 1997, S. 103 ff.

Murray, Stephen O./Roscoe, Will: *Islamic Homosexualities*. New York: New York University Press 1997.
Muslim: *Sahih Muslim*, 4 Bde., Übers. Abdul Hamid Siddiqi. Lahore: Sh. Muhammad Ashraf 1976.
Muzaffar, Chandra: *Human Rights and the New World Order*. Penang (Malaysia): JUST 1994.
Nadvi, Syed: *Habib ul-Haque*. Durban (Südafrika): Academia 1995.
Nagel, Tilman: *Staat und Glaubensgemeinschaft im Islam*, 2 Bde. Zürich/München: Artemis 1981.
—: *Geschichte der islamischen Theologie*. München: C.H. Beck 1994.
Na'im, Abdullah A. an-: *Human Rights in Cross-Cultural Perspectives*. Philadelphia: Pennsylvania Press 1992.
Nasr, Seyyed Hossein: *Ideal and Realities of Islam*. Kairo: American Univ. in Cairo Press 1989.
—: *Ideal und Wirklichkeit des Islam*. München: Diederichs 1993.
Nawawi, an-: *Minhaj-et-Talibin. A Manual of Muhammadan Law*. Lahore: Law Publishing Co. (1914) 1977.
—: *Vierzig Hadite*, Übers. Ahmad von Denffer. Leicester: The Islamic Foundation 1979.
—: *Riyad us-Salihin, Gärten der Tugendhaften*, Bd. 1. Garching: Dar-us-Salam 1996.
Nielsen, Jørgen S.: »Muslims in Europe or European Muslims: the Western Experience«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 2, 1998, S. 205 ff.
Nietzsche, Friedrich: *Werke in zwei Bänden*. München: Hanser 1967.
Nu'man, Fareed: *The Muslim Population in the United States*. Washington: American Muslim Council 1992.
Nyazee, Imran Ahsan Khan: *Theories of Islamic Law, The Methodology of Ijtihad*. Islamabad: I.I.I.T. 1994.
O'Ballance, Edgar: *Islamic Fundamentalist Terrorism 1779–1995*. Basingstoke, Hampshire: Macmillan 1997.
Ophuls, William: *Requiem for Modern Politics – The Tragedy of the Enlightenment and the Challenge of the New Millenium*. Boulder, CO: Westview Press 1997.
Osman, Fathi: *Jihad – a Legitimate Struggle for Human Rights*. Los Angeles: Minaret 1991.
—: *Sharia in Contemporary Society – The Dynamics of Change in the Islamic Law*. Los Angeles: Multimedia Vera International 1994.
—: *The Children of Adam – An Islamic Perspective on Pluralism*. Washington: Georgetown Univ. Press 1996.
—: *Human Rights on the Eve of the 21st Century – Problems for Muslims and Others*. London: Islam & Modernity 1996.
—: *Concepts of the Quran – A Topical Reading*. Los Angeles: Multimedia Vera International 1997.
Otaibi, Moneer al-/Rashid, Hakim: »The Role of Schools in Islamic Society«, in: *The American Journal of Islamic Social Sciences*, Jg. 14, Nr. 4, 1997, S. 1 ff.
Ott, Claudie: »Das Feindbild in den westlichen Medien«, in: *Cibedo*, Jg. 7, Nr. 3, 1993, S. 76.

Otto, Rudolf: *Das Heilige – Über das Irrationale in der Idee des Göttlichen und sein Verhältnis zum Rationalen.* München: C.H. Beck 1997.

Packard, Vance: *Pyramid Climbers.* Harmondsworth: Pelican 1962.

—: *The Sexual Wilderness.* New York: David McKay 1968.

Parrinder, Geoffrey: *Mysticism in the Worlds Religions.* Oxford: One World 1995.

Pasquier, Roger du: *Unveiling Islam.* Cambridge: The Islamic Texts Society 1992.

Pearl, David: »Conflicts and Tensions in the Proposal for a System of Personal Law for Muslims in the UK«, in: *Encounters,* Jg. 4, Nr. 1, 1998, S. 3 ff.

Phipps, William: *Muhammad and Jesus.* London: SCM Press 1996.

Piscatori, James: *Islam in a Word of Nation States.* Cambridge: Cambridge Univ. Press 1986.

Popper, Karl R./Eccles, John C.: *The Self and its Brain.* Heidelberg: Springer 1977.

Pryce-Jones: *At War with Modernity: Islam's Challenge to the West.* London: Institute for European Defence and Strategic Studies 1992.

Qaradawi, Jusuf al-: *Islamic Awakening between Rejection and Extremism.* Herndon, VA: I.I.I.T. 1987.

—: *Erlaubtes und Verbotenes im Islam.* München: SKD Bavaria Verlag 1989.

Qutb, Muhammad: *Einwände gegen den Islam.* München: SKD Bavaria Verlag 1994.

Qutb, Sayyid: *Milestones* (Ma'alim fi-l-Tariq). Indianapolis: American Trust Publ. 1990.

Rahim, Muddathir 'Abd al-: *The Development of Fiqh in the Modern Muslim World.* Kuala Lumpur: IKIM 1996.

Rahim, Muhammad 'Ata ur-: *Jesus – A Prophet of Islam.* London: MWH Publishers 1977.

Rahman, Fazlur: *Islam.* New York: Holt, Rinehart and Winston 1966.

—: *Islamic Methodology in History* (1964). Islamabad: Islamic Research Institute 1995, 3. Aufl.

Rahman, Mohibur: »Clash of Civilizations or Clash of Ideas?«, in: *Al-Mizan,* Jg. 2, Nr. 1, 1996, S. 38.

Ramadan, Said: *Das islamische Recht.* Wiesbaden: Harrassowitz 1980.

Rehs, Michael: »Die Welt des Islam zwischen Tradition und Fortschritt«, I/II, in: *Zeitschrift für Kulturaustausch,* Jg. 35, Nr. 3 und 4, 1985.

Reich, Charles A.: *The Greening of America.* New York: Random 1970.

Riesmann, David et al.: *Die einsame Masse.* Reinbek: Rowohlt 1958.

Riße, Günter: »Der Islam, eine politische Religion?«, in: *Cibedo,* Jg. 7, Nr. 2, 1993, S. 33.

Robinson, Neal: *Discovering the Qur'an – A Contemporary Approach to a Veiled Text.* London: SCM Press 1996.

Rodinson, Maxime: *Die Faszination des Islam* (1980). München: C.H. Beck 1985.
Runnymede, Trust: »›Islamophobia‹ in Britain«, in: *The Muslim Politics Report*, Jg. 15, 1997, S. 2 f.
Rushd, Ibn (Averroës): *The Distinguished Jurist's Primer* (Bidayat al-Mujtahid), 2 Bde. Reading: Garnet 1994, 1995.
Safi, Louay: »Islam and the Global Challenge: Dealing with Distortions of the Image of Islam by Global Media«, in: *Islamic Studies*, Jg. 35, Nr. 2, 1996, S. 191.
Said, Edward: *Orientalism*. New York: Random House 1978.
—: *Covering Islam*. New York: Pantheon 1981.
—: Culture and Imperialism. London: Chatto & Windus 1993.
Salem, Isam Kamel: *Islam und Völkerrecht*. Berlin: Express 1984.
Salvatore, Armando: *Islam and the Political Discourse of Modernity*. Reading: Garnet 1997.
Sardar, Ziauddin: *Postmodernism and the Other: The New Imperialism of Western Culture*. London: Pluto Press 1997.
Sardar, Ziauddin/Nandy, Ashish/ Davies, Merryl Wyn: *Barbaric Others: A Manifesto of Western Racism*. London: Pluto Press 1993.
Sartori, Ralf/Steidl, Petra: *Tango. Die einende Kraft des tanzenden Eros*. München/Kreuzlingen: Atlantis 1999.
Schacht, Joseph: *An Introduction to Islamic Law*. Oxford: Clarendon 1964.
Schimmel, Annemarie: *Mystische Dimensionen des Islam. Die Geschichte des Sufismus*. München: Diederichs 1985.
Schlatter, Adolf: *Die Geschichte der ersten Christenheit* (1926). Darmstadt: Wiss. Buchgesellschaft 1971, 5. Aufl.
Schmidt, Helmut (Hrsg.): Allgemeine Erklärung der Menschenpflichten. München: Piper 1997.
Schönig, Hannelore: »Die rechtliche Stellung der Frau im Islam«, in: *Die Welt des Islam zwischen Tradition und Fortschritt*, II. Stuttgart: Inst. für Auslandsbeziehungen 1985, S. 439 ff.
Schulze, Reinhard: »Gibt es eine islamische Moderne?«, in: Kai Hafez, *Der Islam und der Westen*. Frankfurt: Fischer 1997, S. 31 ff.
Schuon, Frithjof: *Den Islam verstehen*. Bern: O.W. Barth Verlag 1988.
Schwarzenau, Paul: *Korankunde für Christen*. Stuttgart: Kreuz Verlag 1982.
—: »Biblische und koranische Grundlagen für den christlich-islamischen Dialog«, in: *Gottes ist der Orient, Gottes ist der Okzident*. Köln: Böhlau 1991, S. 499–508.
—: *Das nachchristliche Zeitalter*. Stuttgart: Kreuz Verlag 1993.
Shafi'i, al-: *Risala. Treatise on the Foundation of Islamic Jurisprudence*, Übers. Majid Khadduri. Cambridge: Islamic Texts Society 1991.
Shahrour, Mohammad: »The Divine Text and Pluralism in Muslim Societies«, in: *Muslim Politics Report*, Nr. 12, 1997, S. 3–9.
Sharif, M.M. (Hrsg.): *A History of Muslim Philosophy*, 2 Bde. Wiesbaden: Harrassowitz 1963, 1966.

Siddiqi, Muhammad Nejatullah: »Towards Regeneration: Shifting Priorities in Islamic Movements«, in: *Encounters*, Jg. 1, Nr. 2, 1995, S. 3 ff.

—: »Christian-Muslim Dialogue: Problems and Challenges«, in: *Encounters*, Jg. 2, Nr. 2, 1998, S. 123 ff.

—: »Future of the Islamic Movement«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 1, 1998, S. 91 ff.

Siddiqui, Jawed ul-Haq: *21st Century & the Birth of United States of Islam*. Karachi: USI Publ. 1997.

Sigler, John: »Understanding the Resurgence of Islam: the Case of Political Islam«, in: *Middle East Affairs Journal*, Jg. 2, Nr. 4, 1996, S. 79 ff.

Smith, Wilfred Cantwell: *What is Scripture?* London: SCM Press 1993.

Spuler-Stegemann, Ursula: *Muslime in Deutschland*. Freiburg: Herder 1998.

Stolz, Rolf: *Mullahs in Deutschland – Der Sprengstoff von morgen*. Frankfurt/München: Ullstein 1996, 2. Aufl.

—: *Kommt der Islam? Die Fundamentalisten vor den Toren Europas*. München: Herbig 1997.

Swinburn, Richard: *The Existence of God*. Oxford: Clarendon Press 1979.

Tahtawi, Rifa'a al-: *Ein Muslim entdeckt Europa*. München: C.H. Beck 1989.

Talbi, Mohamed/Bucaille, Maurice: *Réflexions sur le Coran*. Paris: Seghers 1989.

Talbi, Mohamed: »Is cultural and religious co-existence possible? Harmony and the right to be different«, in: *Encounters*, Jg. 1, Nr. 2, 1995, S. 74 ff.

Tamimi, Azzam: »›Fundamentalist‹ Islam and the Media«, in: *Al-Mizan*, Jg. 2, Nr. 1, 1996.

—: »Democracy in Islamic Political Thought«, in: *Encounters*, Jg. 3, Nr. 1, 1997, S. 21 ff.

—: »Democracy: The Religious and the Political in Contemporary Islamic Debate«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 1, 1998, S. 35 ff.

Tibi, Bassam: *Die Krise des modernen Islam*. Frankfurt: Suhrkamp 1991.

—: »Wie Feuer und Wasser«, in: *Der Spiegel*, Nr. 3, Jan. 1994, S. 170–172.

—: *Der wahre Imam. Der Islam von Mohammed bis zur Gegenwart*. München: Piper 1996.

Troll, Christian: »Witness meets Witness: the Church's Mission in the Context of the Worldwide Encounter of Christian and Muslim Believers Today«, in: *Encounters*, Jg. 4, Nr. 1, 1998, S. 15 ff.

Turabi, Hasan al-: *Women, Islam and Muslim Society*. London: Milestones 1991.

—: *Islam, Democracy, the State and the West*, in: Arthur Lowrie (Hrsg.), *A Round Table with Dr. Hasan Turabi*. Tampa, FL: The World and Islam Studies Enterprise 1993.

Turner, Bryan S.: *Orientalism, Postmodernism and Globalization*. New York: Routledge 1994.

Tworuschka, Udo (Hrsg.): *Gottes ist der Orient – Gottes ist der Okzident* (Festschrift für Abdoljavad Falaturi). Köln: Böhlau 1991.

Wagner, Peter: *Soziologie der Moderne*. Frankfurt: Campus 1995.

Walker, Dennis: »The Revived Nation of Islam and America's Western System in the 1990s: Ambiguous Protest of a new Black Elite«, in: *Islamic Studies*, Jg. 37, Nr. 4, 1998, S. 445 ff.

Watt, William Montgomery: *Religious Truth for Our Time*. Oxford: Oneworld Publ. 1995.

Wehr, Hans: *Arabisch-Deutsches Wörterbuch*. Wiesbaden: Harrassowitz 1985, 5. Aufl.

Westerlund, David/Hallencreutz, Carl (Hrsg.): *Questioning the Secular State: The worldwide Resurgence of Religion in Politics*. London: Hurts & Co. 1996.

Woods, John: »Imagining and Stereotyping Islam«, in: *Muslims in America – Opportunities and Challenges*. Chicago: Intern. Strategy and Policy Inst. 1996, S. 45–77.

Zakzouk, Mahmoud et al.: *Gesichter des Islam*. Berlin: Haus der Kulturen der Welt 1992.

Zaman, Muhammad Qasim: *The Making of a religious Discourse – an Essay in the History and Historiography of the Abbasid Revolution*. Islamabad: I.I.I.T. 1995.

الدكتور مراد هوفمان

● ولـد الدكتور مـراد هوفـمان عام ١٩٣١ في ألمـانيا لأسـرة كـاثوليكية ، ثم أتم دراساته الجامعية والعليا في نيويورك وميونيخ وهارفارد على التوالي .

● عمل في الخارجية الألمانية ، وتقـلد منـاصب عديدة ، منها خبـير نـووي في حلف الأطـلنطي ، وأنهى خدمته سفيراً لألمانيا في الجزائر ثم المغرب .

● عاش الدكتور هوفمان خمسين عاماً من عمره كاثوليكيا ، وعشرين عاماً مسلماً ، فخبر الجانبين .

● تفـرغ الدكـتور هـوفمان من منـتصف التسعيـنيات للاشتراك في الندوات وإلقاء المحـاضرات عن الإسـلام ، وجاب في ذلك العالم من شرقه إلى غربه .

● يـرى الدكـتور هـوفمـان أن في الإسلام فرصـة أوروبا والولايـات المتحدة لحـل أزمـاتهم .

● وفي نفس الوقـت ينتقد العـالم الإسـلامي لانحـرافه عن جوهر الإسلام ويقترح لذلك أفكاراً إصلاحية .